عزيز نيسين

صحوة الناس



قصص قصيرة

الوطنية الجديدة

ترجمة: محمد مولود فاقي

صحوة الناس

* صحوة الناس «قصص»

* تأليف: عزيز نيسين

* ترجمة: محمد مولود فاقي

* الطبعة الأولى ٢٠٠٠

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٢٢٢٠٥

هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ ـ ٤٤١٨١٧٢

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

موافقة وزارة الإعلام ٤٨٤٠٥

عزيز نيسين

صحوة الناس

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب بالتركية

AZIZ NESIN

INSANLAR UYANIYOR

القسم الأول

ميدالية التمساح
للقصة القصيرة الساخرة

أعلنت مجلة التمساح الروسية الواسعة الانتشار (والتي يطبع منها ثلاثة ملايين نسخة من كل عدد) عن مسابقة للقصة القصيرة الساخرة، وقد جاءت قصة الكاتب التركي عزيز نيسين «صحوة الناس» في المرتبة الأولى من بين آلاف القصص لمشتركين من أنحاء العالم، ونال «ميدالية التمساح».

اعتبر عزيز نيسين في طليعة كتاب القصة القصيرة الساخر فقد أتقن فنون وألوان السخرية والمزاح، مستمداً أفكاره من واقع حياته ومحيطه الاجتماعي، فاستحق ميدالية التمساح عن جدارة وتقدير، حيث أن هذه الميدالية لا تقدم إلا لمن يملك الموهبة والقدرة على فن صياغة النكتة، ويتمتع بروح مرحة، ومزاج زاخر بألوان السخرية والضحك.

١

صحوة الناس

كانت أيامه الأخيرة في السجن جحيماً لا يطاق، وكان المنفى البعيد الذي عاشه بعد خروجه من السجن يعصر فؤاده فقد هجرته زوجته وهو في السجن أيضاً، وأحس بعد عودته من المنفى إلى العاصمة بأن الوحدة ستقضي عليه.

هذه المواقف تجعل الإنسان نهبا لأفكار مزاجية سوداوية تشاؤمية، وخاصة عندما لا يجد بين يديه من المال ما يدفع عنه غائلة الجوع. هل يبتعد عن السياسة وما يدور حولها وينبذ كل ما يتعلق بها ويبحث عن عمل مناسب يعيش منه؟.

راح يفتش في المدينة عن غرفة تأويه، والبيوت في المدينة والضواحي مرتفعة الأجور، لقد ضاق ذرعاً بموظفي الحجوزات لكثرة ما حجزوا على بعض أمتعته وخاصة الآلة الكاتبة التي يملكها، ومن نظرات الجيران وفضولهم، وتخوفهم من حركات وتصرفات هذا المخلوق الغريب. ولهذه الأسباب بدأ بالبحث عن منزل صغير متواضع ورخيص في منطقة بعيدة عن المدينة وضجيجها.

وبعد طول عناء، عثر على ما كان يتمناه. منزل شعبي مؤلف من غرفة صغيرة، يبعد عن المدينة مسيرة ساعتين سيراً على الأقدام. يقع على مرتفع وسط عدد من المنازل الفقيرة المتباعدة مما يوفر له الراحة والهدوء. لم يكن يملك من أثاث المنزل سوى محفظتين من الكتب وبعض الأمتعة القديمة

البالية. بدأ بتغطية نوافذ منزله الشعبي بأوراق الصحف بدلاً من الستائر التي لا يملكها، انفرجت أساريره وشعر بشيء من السعادة. بقي عليه أن يجد عملاً يؤمن له حياته.

قبالة منزله بنيت بقالية متواضعة من بقايا الأخشاب والتنك المهترئ، وإلى يسارها، كوخ لبيع الخضار والفواكة. كان يشتري لوازمه منهما، ومع مرور الزمن توطدت عرى صداقته معهما. كان البائعان يشتكيان دائماً من تدني المبيعات لقلة عدد الزبائن من جهة، ولفقرهم المدقع من جهة ثانية، ويتذمران من وضعهما المادي وعدم قدرتهما على شراء محال في أماكن أكثر حركة ورواجاً.

بعد فترة قصيرة من استقراره في مسكنه الشعبي المتواضع، حضر إلى الحي بائع الكعك وبائع الذرة الصفراء واستقرا جانب البقال ثم حضر بائع حلوى «الغريبة» مع صندوقه الزجاجي واستقر بجوار بائع الخضار والفاكهة، ثم جاء بائع المياه الغازية المعبأة بزجاجات، وأخيراً جاء الإسكافي واستقر إلى جانبهم تحت مظلته القديمة.

لقد تحول المكان إلى سوق تجاري بسيط، وبدأ عامل النظافة بتنظيف المكان بمكنسته المهترئة من الصباح وحتى المساء، كما حضر أحد الباعة المتجولين وأشاد مقهى صيفياً بين البقال وبائع الخضار، وتطور الحي لدرجة أن بعض سكان المدينة حضروا لاستئجار المنازل الفارغة والإقامة فيها.

كان يشعر بالسعادة تغمره لهذا الجو الرحب الباعث للفرح والبهجة، لكنه مع الأسف ما زال عاطلاً عن العمل، وعبثاً استطاع تأمينه رغم البحث المستمر والمضني. وبخاصة عندما يكتشف أربابه أنه من أصحاب السوابق وخريج السجون.

لم يبق أمامه من وسيلة للحصول على المال سوى الاستدانة من أصدقائه، لكنهم جميعاً مفلسون. عرض عليه أحد معارفه العودة إلى

المدينة والسكن معه في غرفة واحدة مجاناً ريثما تصلح حاله، لقد أعجبته الفكرة كثيراً، لكن يستحيل عليه إخلاء منزله فهو مدين للبقال وبائع الخضار وآخرين.

وفي ليلة من ذات الليالي، وبينما كان يفكر في التخلص من ديونه، ببيع ما يمكنه من أمتعته، وإذا بالباب يقرع، كان الحاضرون ثلاثة أشخاص البقال وبائع الفاكهة وصاحب المقهى الصيفي.

رحب بالضيوف وبدا شديد الخجل والارتباك وقال:

أهلاً بكم. أرجو المعذرة! ليس عندي ما أقدمه لكم، فلا قهوة عندي ولا سكر، ولا شيء آخر.؟

ـ أجاب البقال بابتسامته العريضة:

ـ لا ضرورة أن تقدم لنا شيئاً، لقد أحضرنا معنا القهوة والسكر. ووضع الكيس الذي يحمله على الطاولة.

أصيب بالدهشة... لماذا أحضروا هذه الأشياء معهم؟ فهل جاءوا للمطالبة بديونهم... وإذا لم يكن كذلك، فلماذا هذه الهدايا إذن؟

ـ قال بائع الفاكهة: هل ما سمعناه صحيح؟ عن رغبتك بالانتقال من هنا؟

ـ نعم سأنتقل.

لقد فهم الآن سبب حضورهم. فقد ساورتهم الشكوك أنه سيغادر منزله قبل أن يدفع لهم ديونهم.

ـ صحيح سأنتقل... ولكن من نقل لكم الخبر؟

ـ أجاب صاحب المقهى: نحن نسمع الخبر من لحظة انطلاقه من مصدره.

ـ اطمئنوا... لن أغادر هذا المنزل قبل أن أدفع لكم ديونكم.

- أجاب القهواتي: ماذا تقول يا سيد... من المعيب أن تفكر هكذا... هل طالبك أحدنا بشيء؟

- وقال البقال: إن دينك لا يستحق الذكر، كم ليرة هو؟

- وقال بائع الفاكهة: بالنسبة لي، مالي حلال لك، ولا أريد منك شيئاً حتى ولو أعطيتني المبلغ فلن آخذه منك.

- لكن لماذا تقولون هذا؟

- نحن من يعرف ويقدر مكانتك؟ أنت غمرتنا بأعمالك الصالحة وحسناتك.

- توقف لسانه في حلقه لدى سماعه هذا الكلام.. فأجاب بصعوبة بالغة:

- استغفر الله....

كانوا يعرفون أنه من أشد المناضلين عن الفقراء والمشردين ليعيد لهم حقوقهم وكرامتهم. لكن لماذا بدا عليه كل هذا التشاؤم؟ ولماذا جال في بحار الضياع والخوف وحب الانتقام؟ وما سبب محاولة الابتعاد عن السياسة؟

- قال القهواتي: لقد حضرنا إلى منزلك لنطلب منك البقاء فيه وعدم الانتقال إلى منزل آخر خارج هذا الحي.

- وأضاف بائع الفاكهة: نحن نعرف عنك كل شيء، وخاصة أوضاعك المادية. لقد فكرنا طويلاً وتناقشنا وقررنا نحن أشباه الحرفيين الموجودين هنا، أن نجمع لك منا شهرياً مبلغاً من المال ندفعه أجاراً لمنزلك. المهم أن تبقى عندنا.

- أضاف البقال: الرجاء أن لا تغادر منزلك لمكان آخر، ولا تفكر مطلقاً بالإيجار نحن سندفعه لك...

ـ اغرورقت عيناه بدموع الفرح. وأوشكت قطرات الدمع أن تنسكب على وجنتيه.لأن الشعب بدأ يقدره حق قدره بعد فوات الأوان، فهو الذي ناضل وضحى لإنقاذ الشعب من براثن الإقطاع والجوع والتشرد.

قال: هذا مستحيل لن أقبل بذلك. ولن تدفعوا عني الإيجار، فأنا هنا عاطل عن العمل، لقد قررت السكن مع أحد أصدقائي.

ـ أجاب القهواتي: منذ زمن طويل ونحن نتحدث عن أوضاعك، فكرنا بكل شيء حتى حياتك اليومية وعيشك اليومي، سندفع لك مبلغاً من المال في نهاية كل شهر لتعيش براحة وسلام نتوسل إليك أن تبقى عندنا ولا ترحل وتتركنا هكذا... لقد انطلقت عبارات الرجاء دفعة واحدة.

كان على وشك أن يطلق العنان لنفسه ويجهش بالبكاء. ثمة تغيير مفاجئ في هذا البلد شعر وكأن الصحوة بدأت توقظ الناس من سباتهم، فهو لم يعمل مع رفاقه كل تلك السنين لأمور تافهة.. وهؤلاء الأشخاص الواقفون أمامه كانوا يشيحون بوجوههم عنه ويحتقرونه.

ـ أشكركم جزيل الشكر... أدامكم الله... أشكر مشاعركم السامية، ولكن اسمحوا لي فأنا أعتذر عن قبول معونتكم!

ـ عاودوا رجاءهم ثانية، قال البقال: هذا الحي غير لائق بك وكذلك المنزل نحن نعلم أن هذا المكان لا يعجبك، ولكن هناك بناء مؤلف من طابقين على مسافة قصيرة من هنا، الطابق الثاني فيه معد للإيجار، يحتوي على غرفة للنوم وأخرى للاستقبال ومطبخ وحمام إفرنجي، فهو مريح ومناسب. لنستأجره لك...

وقال القهواتي: الرجاء أن لا تبتعد عن هذا الحي.

ـ أصابته الحيرة... لماذا يطلبون منه كل ذلك؟ قال لهم:

حسناً: لماذا تريدون مني البقاء في هذا الحي.؟.

ـ الأمر واضح يا سيدي... جميعنا نتاجر ونربح ونعيش من وجودك معنا هنا.

ـ استغفر الله... ولكني لا أشتري منكم ما يجعلكم تحصلون على الأرباح!

ـ شراؤك أو عدمه سيان عندنا. المهم أن قدومك جلب الحظ لنا. سابقاً كان يحضر إلى محلاتنا شخص أو شخصان فقط، لكن بعد مجيئك تغيرت المنطقة بكاملها وعمها الفرح والسرور وازدهر النشاط التجاري فيها، وبدأ المواطنون بالهجرة إلينا من المدينة وأصبحنا على وشك تشكيل نواة مدينة مزدهرة.

ـ قال البقال: جميع هذه التطورات والنجاحات جاءت بفضلك.

ـ قال القهواتي: اشملنا بالرحمة والشفقة.. إذا انتقلت من منطقتنا فمعنى ذلك أن الجميع سيشربون حبوب الشقاء والفقر.. وأنا أولهم، وسأكون مرغماً على إقفال أبواب المقهى إلى الأبد.

ـ قال بائع الفاكهة: إذا انتقلت من هذه المنطقة.. ستعود حياتنا يائسة كما كانت وسنعيش رجالاً ونساء وأطفالاً تحت رحمة شبح الجوع والفقر.

بعد أن بدأ ثلاثتهم بالترجي مرة ثالثة..فكر بأن: هناك أطفالاً صغاراً يجب أن يعيشوا، يجب أن ترى عيونهم أنوار السعادة والفرح..إن وجودهم ومصيرهم متعلق بالبقاء في هذه المنطقة، وهم جاهزون ليدفعوا راتباً شهرياً.

ـ أدامكم الله... فأنا غير من تتصورونه، لأقدم لكم هذه الخدمات فأنا مواطن، من واجبي أن أعمل... ماذا فعلت من أجلكم لتصرّوا على بقائي بينكم.

ـ قال بائع الفاكهة: ماذا ستفعل أكثر مما فعل، لن ننسى أفضالك علينا،

عندما حضرت إلى حينا، بدأت الشرطة السرية تجوب أزقته بمظاهر مختلفة (الزبال... ماسح الأحذية) لمراقبتك ووضعك باستمرار تحت أنظارهم، وعلى هؤلاء الشرطة جاءت شرطة أخرون لمراقبة رفاقهم، وهكذا امتلأت المنطقة بالسكان.

قال البقال: لقد سألتنا الشرطة السرية عنك عمن يحضر لزيارتك وأشياء كثيرة.

قال بائع الفاكهة: جميع هؤلاء كانوا يتسوقون من محلاتنا ومن أجل هذا حضر بائع الكعك والحلوى...

قال القهواتي: فتحت المقهى من أجل لقمة العيش، وأنا اليوم أحيا بسعادة لوجودك هنا، إن أفراد الشرطة السرية يستريحون عندي في المقهى، يلعبون الورق حتى المساء. لو شرب كل واحد منهم عدة فناجين قهوة فهذا كاف وممتاز.

نظر إليهم والحسرة تملأ قلبه:

ـ هل جميعهم من الشرطة المدنية؟

ـ نعم، بعضهم من الشرطة العادية، لو اجتمع عشرة أشخاص في مكان، فسيجتمع حولهم خمسون والآن نقول: إذا انتقلت من هنا ستعود المنطقة إلى حالها السابقة من الفقر والعوز، لأن جميع أفراد الشرطة سيرحلون ليقتفوا أثرك.

ـ قال البقال: عندها نكون قد احترقنا وأفلسنا

ـ قال بائع الفاكهة: ارحمنا نحن المساكين، وأشفق على الفقراء أمثالنا.

ـ قال القهواتي: على الأقل انتظر فترة من الوقت حتى نجمع بعض المال.

فكر طويلاً... أنه حيثما ذهب سوف تتكرر هذه المسرحية.

أجابهم: حسناً... لن أنتقل من هنا، ولكن أعيدوا معكم ما أحضرتموه من القهوة والسكر وأعاد الأكياس المرفوعة فوق الطاولة إلى البقال.

ـ قال بائع الفاكهة أثناء خروجه من الباب:

ـ هل أنقل خبر بقائك عندنا للآخرين؟

ـ نعم لن أنتقل... ولا أريد منكم شيئاً.

ـ قال القهواتي: ليرضى الله عنك.

٢
زوجته على حق

كانت الزوجة تخاف الرياح العاصفة وأمواج البحر الهائج، لذلك تمتنع عن ركوب السفن والسفر في هذه الأجواء السيئة، وأي محاولة لإرغامها على السفر في تلك الظروف، ستؤدي إلى إصابتها بالهيجان والانفعال، ولكن الانتقال بين شطري استنبول بالسفن أمر لا مفر منه.

ولأمر هام، اضطر الزوجان للسفر إلى الشطر الشرقي من استنبول، وكان الجو عاصفاً ولا مناص لهما من ركوب السفينة. ومن أجل أن يهدئ الزوج روع زوجته، بدأ يشرح لها بأنه خلال تاريخ طويل لم يصدف أن غرقت سفينة في منطقة المضيق حتى وأثناء هياج البحر.

ـ هل معنى كلامك أنه لم تغرق سفينة حتى الآن، ولن تغرق مستقبلاً؟

حاول الزوج انتزاع الخوف من زوجته بملاطفتها بالحديث، وتقديمه أمثلة عن الشجاعة فقال لها والابتسامة العريضة على وجهه:

انظري كيف تتمايل السفينة كأننا في أرجوحة... وبينما كانت الزوجة منهمكة في غرس أظافرها بالمقعد الطري، بدأت السفينة تعلو فوق سطح الموجة ثم تهوي إلى الفراغ بين الموجتين، وعندها ابتسم الزوج مقلداً صعود وهبوط السفينة «هووووب».

انتفضت الزوجة في مقعدها وانتهرت زوجها قائلة: هذه عادتك إنك لا تأبه بمشاعري مطلقاً، لذلك لن أبوح لك بعد الآن بأي علة تصيبني، لأنني إذا ما حدث وفتحت لك قلبي، لن ألقى منك سوى

الهزء والسخرية! أين حبك واحترامك لي؟ قلت لك إني خائفة فسخرت مني!.

لم يكن الزوج راغباً في تجاهل أحاسيس زوجته ومشاعرها، وجلّ اهتمامه أن تتسلح بالشجاعة وتبعد عنها شبح الخوف، بينما كان ردها قاسياً وعصبياً دون إنذار، التزم زوجها الصمت كالأطفال وهو في حيرة من أمره، وبدت عليه علامات الحزن والأسى.

بعد انتهاء عملهما في «قارشي يافا» الجزء الشرقي من استنبول، قفلا عائدين إلى منزلهما على متن سفينة ثانية وفي وقت اشتدت فيه العاصفة. وقف الزوج صامتاً، وقد ارتسمت على وجهه علامات الحزن، ماذا بإمكانه أن يفعل، لإنقاذ زوجته المسكينة التي كانت ترتجف خوفاً؟ وماذا يستطيع تقديمه ليأمن غضبها. توجب عليه هذه المرة أن يشرح لها بصورة منطقية أنه لا خطر عليها من العاصفة، لكنه عوضاً عن ذلك قطّب حاجبيه وبنبرة حادة قال:

انظري يا حبيبتي، وكما ترين، فالسفينة تعج بالركاب، ولم يظهر على أي منهم علامات الخوف، فلو كان ثمة خطر ما، لشاهدت الجميع هنا يصرخون ويولولون طالبين النجدة، لو فكرنا منطقياً بالوضع القائم لسارت الأمور بشكل عادي، ولكن الزوجة عادت وانفجرت بالبكاء والصراخ:

ـ أقول لك بأني خائفة وأنت تكلمني بالمنطق... بعض الأمور لا منطق لها، ثم هل من منطق وعقل للخوف. أقول أنا خائفة وكفى...

ـ حسن... حسن يا عزيزتي... وبدأ يخفف من ثورة زوجته بكلام لطيف وبصوت خافت خشية سماع الركاب لجدلهما.

وبالطبع فإن الزوجة محقة في كلامها، فالعقل والمنطق لا وجود لهما مع الخوف، ظل الزوج حائراً قلقاً، ومتأثراً، عدة أيام، لا يتحدث إلى زوجته ولا يكترث لوجودها في المنزل.

غير أن الظروف اضطرتهم ثانية للسفر إلى شرق استنبول بالسفينة أيضاً، كان ذلك اليوم عاصفاً جداً والأمواج العاتية ترتفع في السماء كالجبال. وكعادتها كانت زوجته ترتجف خوفاً وهلعاً من منظر البحر الهائج. تأملها الزوج بحنان، ماذا بإمكانه أن يفعل؟ كيف يتصرف، لو مازحها قليلاً فسيكون المزاح إهانة لمشاعرها، ولو كلّمها بالمنطق والعقل فسيذهب كلامه أدراج الرياح، لذلك قرّر الصمت، بينما زوجته تتحدث لنفسها دون توقف. وعندما وجدته صامتاً، صرخت في وجهه وقالت: أي نوع من الرجال أنت؟ ألم تنظر إلى حالي البائسة ومعاناتي الأليمة إنك أشبه بصنم جامد لا تهتز فيك شعرة ولا يتحرك لك جفن.

أجاب وهو يتلعثم بكلامه:

- المعذرة... المعذرة يا حبيبتي، أنا دائماً إلى جانبك لا تخافي.

بالطبع لقد كانت الزوجة محقة في كلامها، فهل يحق لزوجها أن يقف كصنم ولا يهرع لمساعدتها والتخفيف عنها؟

- إنك تهملني ولا تكترث لوجودي، ولا تقف لجانبي ولو لمرة واحدة؟

- ماذا فعل الزوج المسكين لتتهمه زوجته بالتقصير، عاوده الحزن والاكتئاب ثانية وغرق في بحر من الصمت ولكن ماذا يفعل؟ سيعودان مساءً إلى منزلهما ويضطران إلى ركوب السفينة ثانية والعاصفة لم تهدأ.

كانت السفينة ترتفع عالياً مع الأمواج وتهبط معها، ووجه الزوجة يمتقع خوفاً، وزوجها يفكر ماذا سيفعل؟ لو طيّب خاطرها فسوف تغضب منه لاعتقادها بأنه يسخر منها، ولو ابتسم لفسّرت ابتسامته قلة احترام أوتقدير لمشاعرها، حتى العقل والمنطق لم يكن بإمكانهما حل هذه العقدة، ولو صمت عن الكلام لغضبت منه ووبخته لأنه لا يعيرها انتباهاً. فكّر وفكر ماذا يفعل؟ وكيف يتصرف لترضى عنه زوجته؟

ظلت الزوجة تتكلم مع نفسها وتقول: ليتنا لم نركب هذه السفينة لو

علمتُ بوجود العاصفة لما سافرت وبقيتُ في استنبول نعم... أي... نعم...

لم يضحك الزوج ولم ينطق بحرف واحد، ومع ذلك لم يستطع البقاء صامتاً، أدار رأسه ونظر إلى زوجته نظرة كانت كافية لانفجارها.

ـ ماذا هناك؟ وماذا تريد؟ لماذا ترمقني بنظراتك، هل قلت لك شيئاً ألست زوجي، ألا تريد أن أشكو لك همومي.

ـ أجاب الرجل: لماذا حزنتِ يا روحي أنا لم أقل لك شيئاً ولم أنطق ببنت شفة.

ـ لو قلت شيئاً بدَلَ نظرتك لكان أفضل، هذه النظرة يعرفها جميع الناس بأنها نظرة استخفاف واستهجان ولامبالاة. هل تستطيع أن تقول لي أي معنى لهذه النظرة الغريبة التي رمقتني بها؟

بالطبع كانت زوجته على حق... كيف نظر إليها يا ترى حتى أغضبها إلى هذا الحد؟ ظل الزوج عدة أيام لا يتحدث مع زوجته ولا ينظر إليها، وأقسم أنه لن يركب السفينة معها ثانية في يوم عاصف.

في أحد الأيام أرغمتهما الظروف على الانتقال إلى الضفة الأخرى من المضيق.

كان الفصل صيفاً، والبحر جميلاً هادئاً، كانت النسمات العليلة تدغدغ وجهيهما وهما على ظهر السفينة. وفجأة قالت الزوجة:

ـ هل تسمع صوت المحرك؟

ـ أي محرك؟

ـ ما نوع المحرك الموجود في السفينة، من المؤكد أنه ليس محرك آلة خياطة وبما أننا في الباخرة فمعناه أنه صوت محرك الباخرة.

ـ وما الذي حصل لمحركها؟

ـ ألا تسمع كيف يعمل؟... أجزم أن هناك عطلاً ما في المحرك...

ـ أنا لا أفهم شيئاً في أصوات المحركات.

ـ يعني ماذا تريد أن تقول؟ هل هذا هو الصوت الطبيعي للمحرك؟

وعندما صمت الزوج خوفاً من إغضابها... قالت:

ـ تكلم هل صوت المحرك طبيعي؟

وبما أنه يعرف سلفاً أن الجواب بنعم... سيغضبها، قال وهو يمضغ كلامه:

ـ نعم ليس طبيعياً بالدرجة المطلوبة.

ـ هل تسخر مني؟

صمت الزوج... واغتاظت الزوجة وقالت بنبرة قوية:

ـ هاه... تمام... هل رأيت؟ لقد بدلت السفينة وجهة سفرها إنها تبحر باتجاه بحر مرمرة.

نظر الرجل من النافذة ليرى السفينة وهي تسير في خطها الاعتيادي، كيف يتصرف وماذا يفعل؟ لزم الصمت وتمنى لو تقترب السفينة من الميناء.

ـ إلى أين نذهب يا ترى؟ لاشك أن مروحة السفينة مكسورة.

ـ لو انكسرت المروحة لتوقفت السفينة يا روحي.

ـ أصلا أنها لا تسير بل تدور في مكانها، ربما كسرَ أحد مراوحها.

بدت على الزوج تصرفات غريبة لتردده بين الجد والضحك، والكلام والسكوت، والنظر وإغماض العينين، والحديث وعدمه.

قالت الزوجة:

ـ في أسفارنا السابقة كنا نصل (قره كوي) خلال عشرين دقيقة.

نظر الرجل إلى ساعته، لقد مضى خمس عشرة دقيقة على خروج السفينة من الميناء. وبعد خمس دقائق كانوا سيصلون إلى (قره كوي). ولكن حسب ساعة زوجته فهما في البحر منذ أكثر من ساعة. توقفت السفينة في الميناء ونزلا منها.

ـ قالت الزوجة: وصلنا في ساعة واحدة.

ـ بالطبع كانت زوجته على حق، ولكن بماذا؟

ـ ظل الزوج يردد في داخله الإجابة على هذا السؤال «لماذا يتزوج الإنسان من فتاة قبل أن يركب معها السفينة. يجربها... هذا ما سيحصل... انصرف من هنا نعم إن زوجتي على حق».

٣

استغفر الله يا أستاذي

كان كاتباً مشهوراً بلغ الخامسة والستين من عمره، فمشاهير الرجال يعمرون طويلاً. ويظن قراؤه أن عمره أكبر من ذلك، بعضهم تمنى له الموت لتبقى كتاباته تنبض بالحياة وليبقى تراثه متألقاً، ويعتقد غالبية الناس أن مشاهير الكتاب أغنياء لأن الشهرة تأتي من المال، ولا شهرة بدون مال؛ لا أحد يعرف منزله، موقعه، عدد طوابقه، أثاثه الفاخر والثمين، الجدران المزينة باللوحات النادرة والخزائن المكتظة بالتحف الثمينة والجوائز والميداليات.

سنتحدث عن هذا الكاتب ونقول: لم يكن جمهور القراء مخطئاً في تقدير عمره، فالكتاب يبلغون الشهرة بسرعة ويشيخون باكراً. ولم يكن مخطئاً أيضاً بمستوى غناه، فالجديد من ثيابه يعود إلى عشر سنين خلت، يملك طقمين من الثياب الداخلية فقط، وبزة واحدة، وبنطالاً وسترة، ولكنه يعتني بنظافتهما ومظهرهما فيغسلهما ويكويهما دائماً، مما يضفي على شخصه نعمة العيش والثراء، مع أن خزانته كانت خاوية. وإن كان في جيبه عشر ليرات فقط، فهو يتحكم بصرفها عقلانياً، مقتنعاً بأنه سيحصل في القريب العاجل على عشرة آلاف غيرها، وهذا التصرف يضفي عليه مسحة من البحبوحة والغنى. فقد ظل طوال سني حياته يعاني من أزمة مالية حادة واستطاع التكتم عليها قدر الإمكان. وعندما انحسرت شمس شهرته لتقدمه في السن خفّ معها تدفق الأموال عليه،

فهل أصبح كاتباً ثانياً لم يعد القراء يحبون أساليبه... أم ماذا؟

الصحف والمجلات والندوات أشاحت وجهها عنه، حتى دور النشر لم تعد تطلب منه كتابة قصة أو رواية مع أنه كاتب عاش بفضل قلمه، والآن ماذا باستطاعته أن يعمل وهو في هذه السن المتقدمة، لقد ظن أن نجمه سيبقى ساطعاً في سماء الأدب، فهل بدأ نجمه بالأفول؟ ما زال جمهور الكتاب الجدد يقدرون أعماله، ويتناقلون سيرته في الندوات والحافلات والسهرات، حتى وسائل الإعلام كانت تخصه بخبر أدبي بين حين وآخر.

لقد كتب لسنوات عدة في الصحف والمجلات، ولم يعد اليوم يعرف أحداً من مدرائها وأصحابها، فلو ظل واحد من أصدقائه على رأس عمله في هذا المجال، لراح يطلب منه عملاً.

الجميع يعرف الكاتب الشهير، يلقون التحية عليه باحترام أينما وجدوه يقولون «كيف الحال يا أستاذنا». لم ينقطع عن زيارة إدارات الصحف والمجلات لمجرد إثبات، ليتحدثوا عنه ما شاؤوا، فهو متيقن أن ابتعاده عن بيئة الإعلام ليس لصالحه، لربما يطلبون منه كتابة أوترجمة مقال أو قصة، أو يخصونه بزاوية أدبية.

ذات يوم نهض من نومه باكراً وبدا متأنقاً في لباسه، فتوجه مباشرة إلى إدارة الصحيفة التي خصّها سابقاً بالعديد من رواياته وكتاباته. قديماً كان يدخل على بناء الصحيفة بحرية تامة، وكان الترحاب به يتواصل من الباب الخارجي إلى الطوابق العليا حتى غرفة رئيس التحرير، أما اليوم فعندما وصل إلى باب الجريدة سأله الحارس: ماذا تريد؟ وعن أي شخص تبحث؟

ـ عن أي شخص أبحث يا ترى؟ ما اسم ذلك الشخص وعمله، وهل هو موجود أم أن الاسم مختلق؟ أجاب الحارس أنه يريد رئيس التحرير.

ـ وإذا سألني عن اسمي وعملي بماذا أجيب؟ أفصح الكاتب للحارس

عن اسمه، لا شك أن الأخير قد سمع بهذا الاسم، لأنه تحرك بسرعة وقال باحترام:

ـ أنا بخدمتك يا سيدي، واتصل مع رئيس التحرير وأخبره وعلى الفور قال:

ـ تفضلوا يا سيدي إنه بانتظارك.

أوصله الحارس إلى غرفة رئيس التحرير وفتح له الباب قائلاً: تفضلوا يا سيدي. كانت معرفته قليلة برئيس التحرير الذي استقبله باحترام، ونهض عن كرسيه ومشى نحو الباب وصافحه بحرارة، وأشار إليه بالجلوس... ثم قال: ماذا تشربون سيادتكم؟

ـ أريد قهوة سكرها قليل.

تحدث الكاتب إلى نفسه، لو سأله رئيس التحرير ما سبب زيارتكم يا سيدي؟ لا... لا لن يسأل بهذه القساوة، لقد استقبله بكل احترام ولو سأله: أوامركم سيدي؟ بماذا سيجيبه آنذاك؟ لن يقول له جئت لأطلب عملاً. ولكي يمنع ذلك السؤال قال لرئيس التحرير:

ـ إني معجب جداً بكتاباتكم يا سيدي، وأنا أقدركم على ذلك.

ـ هذا من لطفكم يا أستاذنا.

ـ كل يوم أقرأ زاويتكم بشغف وامتنان.

ـ أشكركم جداً، أنتم أستاذنا وقدوتنا ومثلنا... أدامكم الله.

ـ كنت ماراً من هنا، قلت لأعّرج عليكم للسلام فقط.

ـ هذا من لطفكم يا أستاذنا.

ـ أتمنى أن لا أكون أخذت من وقتكم وأنا أعرف ضيق وقت رؤساء التحرير.

ـ أمان... استغفر الله... لقد شرّفتمونا بزيارتكم يا أستاذنا.

انتهى من شرب القهوة، والأحاديث العادية الرسمية، وعبارات التعظيم بالاستقبال... ماذا سيحصل الآن؟ بكل تأكيد سيفهم رئيس التحرير سبب زيارته... وسيقول في نفسه: هذا الإنسان لم يأتِ لزيارة مقر الجريدة منذ مدة طويلة، لماذا حضر اليوم... نعم سيعرف سبب حضوري ويسألني: هل تحمل معك روايتك يا سيدي لننشرها في صحيفتنا... أرجوك. سأجيبه: الآن لا أحمل معي شيئاً ولكن لديّ روايتان سأنتهي منهما خلال أيام قليلة.

لم يأت حديثهما بهذا الاتجاه... ومن أجل البدء بتمهيد للحديث قال لرئيس التحرير:

ـ أنتم متعمقون في السياسة وتعرفون جميع مداولاتها وكواليسها، ما رأيكم بالخطاب الأخير للسيد رئيس مجلس الوزراء؟

لم يفهم شيئاً من آراء وأفكار رئيس التحرير، لقد جلسا وتحدثا طويلاً عن أمور عامة... ولكن رئيس التحرير لم يطلب منه كتابة رواية أو قصة ساخرة...

ـ اعذرني يا سيدي، واسمح لي بالمغادرة، لقد أخذت الكثير من وقتكم، وعطلتكم عن عملكم.

ـ أمان... أستاذنا، لقد شرفتمونا بقدومكم... لو تفضلتم وحضرتم ثانية، سأكون بانتظاركم، وستكون زيارتكم شرفاً كبيراً لنا يا أستاذنا.

بدأت تجول مخيلته وهو يهبط الدرج متثاقلاً، ولم يقطعها سوى صوت رئيس التحرير قائلاً: تفضلوا لزيارتنا ثانية، نحن بانتظاركم ما معنى هذا الكلام، إنه يرجو منه التكرم بزيارة ثانية، وتقاليد الاحترام تقضي بألا يطلب منه كتابة مقالة أو رواية من الزيارة الأولى، ولكن عندما يزوره ثانية، سيطلب منه ذلك، وأغلب الظن بأن طلب كتابة المقالات ليس من اختصاص رئيس التحرير.

عرّج في طريقه على صحيفة ثانية، وكله أمل بلقاء صاحبها. إنه يعرف والده حيث كانا صديقين حميمين جداً، سيتحدثان عن المرحوم ومآثره، من غير المحتمل بحث موضوع الكتابة وغيرها من الأمور الشخصية.

ـ ماذا تريد يا أستاذ؟

ـ أرغب زيارة صاحب الجريدة.

ـ لكنه غير موجود، فقد سافر أوروبا منذ أيام.

تردد بين الدخول والعودة وبعدها استدرك الطلب قائلاً:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أرغب بمقابلة رئيس التحرير.

ـ أقول له من؟ عندها أعلمه عن اسمه.

كانت أحاديثه مع رئيس التحرير مشابهة لسابقه، مضافاً إليها: أنه يكتب قصصاً ساخرة، لعل صحيفته تنشر بعضاً منها.

ـ ربما لا تتذكرون تلك الأيام.

ـ أمان... يا أستاذنا الجليل، ومن لا يتذكر قصصك الساخرة التي كنا نقرأها كل يوم، وقد احتفظت بالعديد منها في مكتبتي.

ـ شباب اليوم يختلفون كلياً عن شباب الماضي... إن حقوق المؤلف للقصة الساخرة شيء آخر... وكتابتها لا تخلو من المصاعب.

ـ أمان... يا أستاذنا... أين هي تلك القصص التي كانت تنشر في أيامكم؟

عندها وردت في خاطره تلك المقولة «هل أنت أعمى؟ ألا ترى الشخص الجالس أمامك؟ » ولكنه آثر عدم البوح بها. قال رئيس التحرير وهو يودعه:

ـ أرجوك يا أستاذنا، أن تشرفونا ثانية، سنكون بانتظاركم.

جال على معظم دور النشر والصحافة، طوال أيام الأسبوع، وتحدث طويلاً إلى مدرائها ورؤساء تحريرها وأمنائها، وسكرتارياتها، وشرح لهم بعض ترجماته، وخلاصات رواياته وقصصه، ولكنه عاد من جميع تلك الدور خاوي الوفاض، محملاً بأكداس من عبارات التفخيم والوداع. وتكررت زياراته إلى تلك الدور التي كانت تنتظره، ولكن أياً منها لم يقترح أو يطلب منه عملاً.

ربما خجل هؤلاء جميعاً من علو مقام الكاتب الشهير، وربما كانوا يظنون أيضاً أن أموره المادية جيدة ومستقرة ولا حاجة له للعمل. فقرّر هذه المرة أن يطلب منهم العمل بكل صراحة ووضوح، وبما أنه على إطلاع ودراية بالمنافسات القائمة بين المسؤولين في الصحافة، فقد علم سلفاً أنه لن يشغل منصباً حساساً. فهو لا يريد سوى عملاً صغيراً وفي زاوية ميتة يستطيع أن يعيش منه.

عاد بالتجوال على دور الصحافة والنشر. كان الجميع يحترمونه بكلماتهم المنمقة وعباراتهم الطنانة المعتادة: أهلاً أستاذنا، تكرّموا بزيارة ثانية أستاذنا إلى آخر من هنالك من عبارات التفخيم والتعظيم، ولم يكن باستطاعته فتح قلبه لواحد منهم. كان في حالة شديدة من الفاقة والبؤس، ولم يجرؤ على البوح بها لهم. فهو يستطيع القول: بأنه ضاق ذرعاً وسط الجدران الأربعة، ويود الخروج للعمل، لا يعد كبيراً في السن، لديه القدرة على الإنتاج، لقد ضاق ذرعاً من البطالة. ليت لي بعمل مهما كان متواضعاً.

صرخ رئيس التحرير فجأة:

ـ أمان... يا أستاذنا... استغفر الله... ما هذا الكلام... استغفر الله إني أخجل من ذكر العمل، لأن كل المناصب في الصحيفة لا تليق بك، حتى الوظائف الكبرى... استغفر الله.

قال له رئيس التحرير عند خروجه من مكتبه: تفضلوا زورونا ثانية يا أستاذنا، نحن دائماً بانتظاركم.

قصد صحيفة ثانية، وألح هناك بطلب الوظيفة، واسترحمهم قائلاً: أنه في ضيق شديد، وتمنى لو يسندوا إليه عملاً صغيراً، وليكن مدققاً لغوياً.

ـ أجاب صاحب الجريدة:

أمان... كيف يكون هذا يا أستاذنا، استغفر الله... هل يليق بك عمل المدقق اللغوي... استغفر الله.

ـ نسي أن يقول له: إذا لم تكن وظيفة مدقق لغوي، لتكن أي وظيفة أخرى.

توجه نحو صحيفة ثالثة، تحدث هناك عن أحواله بصراحة... إنه لم يدفع آجار منزله منذ ثلاثة أشهر، وغارق في بحر من الديون... وأنه على استعداد للقيام بأي عمل يسند إليه. فهو مضطر للعمل في مجال الصحافة لأنه قضى فيه سنين طويلة.

ـ هذا غير ممكن يا أستاذنا... أرجو أن لا تكون تسخر منا وتحقّرنا

أمان... استغفر الله... ما هذا الكلام؟ هل يصدق أحد أن كاتباً شهيراً مثلكم...

توجه إلى صحيفة رابعة، وتوجب عليه الحديث بصراحة أكثر، ويقول ما يجب أن يقال: إنه في حالة ضيق شديد، باع أمتعته القديمة، ولم يبق من ألبسته سوى ذلك الطقم الذي يرتديه الآن، هل باستطاعته أن يبوح أكثر من ذلك؟ كان يطلب عمل مدقق لغوي أو أي عمل آخر. المهم أن يعمل.

ـ أمان: استغفر الله أستاذنا! هل أنت متأكد من هذا الكلام، هذا

العمل لا يليق بك وخاصة لكاتب شهير مثلك. الله... الله... هذا يعتبر تحقير لشخصكم استغفر الله...

في البداية، كان يشعر بالفخر والغرور لدى سماعه (استغفر الله يا أستاذنا)، لكنه فهم أخيراً أن ترديد الكلمة ليست إلا وسيلة للتهرب منه. من أجل هذا لم ينقطع عن زيارة دور الصحافة والنشر، وهو مقتنع أنهم لن يجدوا له عملاً... فقد زارهم عدة مرات وطلب عملاً فقالوا له:

استغفر الله يا أستاذنا.

كان عزاؤه الوحيد تكرار سماعه لهذه العبارة.

٤

نقطة... نقطة... نقطة

توصل علماء اللسانيات المهتمون باللغة التركية، أن هذه اللغة تحوي من كلمات السب والشتم اكثر من أي لغة في العالم. هذه الحقيقة أطلعنا عليها المستشرقون والباحثون الأجانب، نحن أيضاً نكيل السباب والشتائم، وتعابير التحقير والذم ببهلوانية لسانية لا مثيل لها وهي مدعاة فخرنا واعتزازنا. ماذا نفعل يا سيدي، لساننا مثل المطاط قابل للتمدد والتقلص، والدوران في جميع الاتجاهات، إننا نملك معجماً ضخماً للتعابير والألفاظ البذيئة، وعادات شتم وذمّ قديمة جداً، حتى أن سبعين بالمائة من مسرحيات وألعاب الأطفال (الدمى المتحركة ـ كراكوز عيواظ) مغلف بشتى أنواع السباب والشتائم، ونحن ملتزمون باستخدام لسان الشتم المطاطي. نستمر في كيل السباب والشتائم أياماً وأسابيع، بينما غابت كلمات الحب العذبة المعبرة بصدق ومودة. لا نستطيع التفاهم مع شخص ما إلا بالشتائم. مثالكم على ذلك، إذا غضبنا من أحدهم نصرخ في وجهه:

ـ كذا... ابن... كذا

وإن أعجبنا أحدهم وأحبنا نقول:

ـ واي: كذا... ابن... كذا

وإذا أعجبنا شيء في أحدهم نقول:

ـ هاي: كذا... ابن... كذا

الكتاب والفنانون والرسامون الذين نقدر كتاباتهم ولوحاتهم ورسوماتهم، كذلك السياسيون الذين نجلّهم ونحترمهم نقول:

واي... شيء ابن... شيء. ما هذه الكتابة؟ ولك ما هذه اللوحة الجميلة، ولك هذا الانسان كذا... ابن... كذا

هذه العبارة كذا... ابن... كذا كافية لإثارة أكثر من خمسين حاسة من أحاسيسنا، إن غنى لغتنا بتعابير السب والشتم، تسهل النقاش والمحادثة في بلدنا، لكن استعمالها في الكتابة لدى الكتاب عملية صعبة، يشعر بها الأدباء أثناء كتابتهم نصوص القصة والشعر. فالأديب لا يستخدم تعابير الشتم في قصته أو شعره لأن معظمها تعابير مستهجنة ومعيبة... يستخدم بعض الأدباء هذه الكلمات والتعابير بشكل واسع في كتاباتهم، متذرعين بستار الواقعية والحقيقة، ولكن يبقى المستعمل منها قليل جداً بالنسبة لباقي التعابير المرفوضة.

في مثل هذه المواقف، تسرع النقطة لنجدتنا. الشتائم التي لا نريد كتابتها نضع بدلاً عنها نقطة أو عدة نقاط حسب شدة الشتيمة وعيبها. وفي بعض الكتب المدرسية أو المراجع، التي يستخدمها الطلاب، فإنهم يضعون الكلمات (الشتائم) المناسبة في الفراغات. والقراء المطلعون يضعون مكان النقط الشتائم المناسبة. وبالنسبة لي يجب كتابة الشتائم صريحة وكما هي وذلك أفضل من وضع النقاط مكانها، لأن قراءنا الأعزاء يستطيعون ملء الفراغات المنقطة بتعابير وكلمات أكثر بذاءة وأشد وقعاً.

أحاديثنا المقزعة المليئة بالشتائم شاهد عيان يومياً علينا. هذا ليس مهماً والمهم في الأمر... لماذا... وكيف ولأي سبب نتحدث بأسلوب الشتائم أكثر من الدول والأمم الأخرى؟ لمعرفة ذلك، يجب أن يخصّ علماء الاجتماع في بلدنا الموضوع بالبحث والتقصي.

في الأيام الأخيرة، بدأت أفكر ملياً في هذه الظاهرة وتساءلت لماذا نستعمل السباب والشتائم في أحاديثنا ومناقشاتنا... بينما كنت غارقاً في التفكير حول الموضوع، وإذا بساعي البريد يسلمني دعوة شخصية من وزير الثقافة لحضور حفل تكريم السيد «محسن أرطفرل» الذي كان له الفضل الكبير في إقامة المسرح التركي المعاصر.

وبالنسبة لي، لا احب مثل هذه الدعوات الاحتفالية، لكن عندما يتعلق الأمر بالسيد «محسن ارطفرل» فهذا شيء آخر. لأنني أحب هذا الفنان وأقدره، وكان سروري عظيماً لدعوتي إلى حضور الاحتفال.

سوف تتساءلون أين سيقام هذا الاحتفال؟ إنه مكان لا يعرفه حتى الشيطان. «في المتحف»، الذي يحمل بنظر الدولة معنى وعلو مكانة الكاتب المسرحي العظيم. علق بعض الذين لا يحبون محسن ارطفرل بقولهم: إن وزارة الثقافة جعلت محسن ارطفرل شبيهاً بالمخلفات العتيقة (الأنتيكا). لا أعرف سبب تسميته تلك، ربما هذا واقع، ومن أجل كل ذلك قال «محسن ارطفرل» ما قاله بمسارح الدولة والبلدية: ليبتعدوا عني، وليصبحوا ركيزة لجهنم.

المهم، جاء يوم الاحتفال وحددت الحفلة في تمام السادسة مساءً كما ورد في بطاقة الدعوة.

لبست ثيابي الجديدة والأنيقة احتراماً وتقديراً للمسرحي الكبير «محسن ارطفرل» وتوجهت إلى الشارع حيث أقلّتني سيارة أجرة، وبعدها السفينة التي أوصلتني إلى «قره كوي». كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً وعشرين دقيقة، ... أي واه... الاحتفال الوحيد الذي تمنيت حضوره، لن أستطيع حضوره لفوات الأوان، إنه العيب بذاته... ركبت سيارة الأجرة وقلت للسائق:

من فضلك، أرغب الوصول بسرعة إلى حديقة «غول هانة»، سأقدم

لك نقوداً زيادة بقدر ما تريد... خذ خمس عشرة ليرة.

بدا السائق رجلاً طيباً، لكن الطريق كانت مزدحمة في تلك الأمسية. اجتزنا الشوارع بسرعة عجيبة وبأسلوب أشبه بأفلام المطاردة، نصطدم بالأرصفة على الجانبين، ونقفز من واحد لآخر.

قلت للسائق: أمان أرجو أن تسرع أكثر وأنا على استعداد لتحمل جميع المخالفات.

وصلت السيارة حديقة «غول هانة»، وكان موسم الشتاء، والظلمة حالكة، وزاد في ظلامها كثافة الأشجار العالية. وكما تعرفون منطقة المتحف، فإن الجن والشياطين يلعبون الكرة هناك. حتى وإن حدثت جريمة قتل أو غيرها فلن يراها أو يسمع بها أحد.

عندها تكلم السائق وهو يرتعد من الخوف: ماذا سنفعل هنا؟ أصيب السائق بالهلع خاصة لأن الصحف كانت تتحدث عن السرقات وعمليات الاختطاف والقتل التي تحدث للسائقين. ولكن ماذا يحدث لو أخفت طيلة أربعين سنة من عمري أحد السائقين لمرة واحدة.

كان الباب الحديدي للمتحف موصداً. الله... الله... ربما ساعتي مخطئة سألت السائق كم الساعة الآن؟ أجاب السابعة إلا ربعاً.

إذن بدأ الاحتفال منذ خمس عشرة دقيقة، ربما أغلقوا الأبواب بعد أن دخل جميع المدعوين، وكان خوفي أن يقام الاحتفال في متحف «توب فابي».

ذهبنا إلى متحف «توب فابي» بالسيارة. وكان بابه مغلقاً أيضاً، ولم أحظ بشخص في تلك الأطراف لأسأله. وفي هذه الأثناء شاهد السائق نوراً يخبو خلف الجدار الحجري السميك، طرق شباك النافذة بأصابعه، فظهر شاب من خلفها، صرخت به من داخل السيارة وكأني في مزرعة والدي: لماذا باب المتحف مغلق هكذا؟

لم يعرف الشاب نوع سيارتنا هل هي أجرة أم حكومية. ربما من صرخ

يكون مسؤولاً كبيراً، وزيراً مثلاً. وبما أني صرخت على الشاب بقوة أجابني:

ـ سأفتح الباب من الداخل يا سيدي.

أعطيت السائق أجرته وغادر المكان، كذلك فتح الشاب الباب الحديدي وغادر مكانه أيضاً.

بقيت وحيداً في حديقة المتحف الكبيرة، لم أجد باباً لأدخل منه، ولا ضوءَ استهدي به، كنت أتجول بين التماثيل المحطمة، والأعمدة الكبيرة الباقية من عصور الحثيين والآشوريين والبيزنطيين والرومان.

وفجأة سمعت صوتاً من خلفي ينادي:

ـ شيشت، من أنت ولك؟ لماذا تتجول هناك؟

أي واه: هل أنت من يسرق المتاحف، سيقبضون عليك بتهمة محاولة سرقة الآثار فإن كنت بريئاً اشرح لي الموضوع وخلص نفسك وابعد التهمة عنك.

قبل أن أجيب الرجل، نادى على شخص آخر:

ـ مراد... مراد...

حضر مراد بسرعة أيضاً، فقلت لهما وأنا أرتجف خائفاً:

ـ لقد دعيت إلى اجتماع في هذا المكان.

ـ ما هذا الاجتماع.

ـ من أجل السيد «محسن ارطفرل».

ـ قلت من؟

ـ محسن.

ـ هل تقول محسن؟

ـ نعم.

ـ سأل رفيقه من هو محسن ولك.

ـ لا أعرفه.

ـ ناداني: اقترب ولك لنراك جيداً.

وقفنا أمام باب غرفة مفتوحة، فخرج منها شخص آخر وبعد أن كرر أمامه اسمه مرتين:

ـ محسن... محسن قال:

قد يكون ذلك الشاب الأسمر الذي حضر للعمل هنا خادماً.

أجبته: لا ليس هو، فأنا أسألك عن الشخص المسرحي «محسن ارطفرل».

ـ هل تقول التيوتراجي، المسرحجي... لا هذا شخص آخر، حضرت إلينا بالخطأ هذا المكان هو متحف... وماذا يفعل المسرحجي هنا؟

ـ لا أعرف ماهية المكان هل هو متحف أم لا، ولكن من المفروض أن يعقد اجتماع احتفالي هنا.

ـ المتحف مغلق...

ـ كيف سأشرح لهم أن الدولة ستقوم بتكريم الفنان المسرحي محسن ارطفرل في هذا المكان. قلت:

ـ كان من المحتمل أيضاً أن يحضر الوزير إلى هذا المكان.

ـ هل قلت الوزير.

ـ نعم.

ـ وهل الوزير مجنون إلى هذا الحد ليقوم بالإغارة على هذا المتحف في هذه الليلة المظلمة. قلنا لك مغلق... ألا تفهم؟

ـ فهمت... فهمت ولكن ألا يوجد أحد من موظفي المتحف هنا؟

ـ نعم يوجد... خذه... فالمدير لم يغادر المتحف حتى الآن.

دخلنا باتجاه مكتبة المتحف... شاهدنا رجلاً يهبط من على الدرج... سألنا:

ـ من تريدون؟

ـ كان من المقرر أن يعقد احتفال هنا لتكريم الفنان المسرحي «محسن ارطفرل».

أجابني وهو يحرك يده اليمنى:

ـ أووه... لقد انفض المحتفلون منذ وقت طويل، لأن الاحتفال عقد في الرابعة والنصف.

الله... الله... هل قرأت توقيت الاحتفال خطأ في بطاقة الدعوة، أخرجتها من جيبي وقرأت: الثامنة عشرة والنصف، وقدمتها للمدير.

ـ نعم كان الوقت المقرر كما في بطاقة الدعوة، لكن الوزير قدّم موعد الاحتفال إلى الرابعة والنصف ونحن لا علاقة لنا بتنظيم هذا الاحتفال.

عدت أدراجي وخرجت من الباب الحديدي المجنح الضخم، وبما أني صرفت سيارة الأجرة فعليّ تحمل تبعية عملي وأرغم نفسي بالعودة سيراً على الأقدام، لم يكن ذلك بشيء؟ الظلمة القوية، وهطول الأمطار بغزارة هما المشكلة الكبيرة التي واجهتني. بينما كنت أسير على مهل تحت تلك الأشجار العالية، وإذا بشيء يهبط ويغطي رأسي. لو قلت أن هذا الشيء من مخلفات الطيور فهذا لا يعقل، لأن ذلك الشيء عندما يسقط على جسم يحدث صوتاً (بيت ـ Pit)، أما هذه فقد سقطت على رأسي محدثة صوت (لاب ـ Lyp) وهي ساخنة. وإن كان صادراً عن الطيور لكان إما «النعامة» أو نوعاً من طيور «الماندا»، وهناك أغنية شعبية يرددها العامية حول هذا الطير «بنى الماندا عشاً على غصن شجرة صفصاف، هل رأيت ذلك أيها الخال الأسود... واي».

مسحت وجهي ورأسي بالمنديل، ولمن أشكو حالي، وما دخلكم بالموضوع؟ هل عرفتم ما هو الشيء؟ نقطة... نقطة... نقطة... وإذا أردتم الإكثار من هذه النقط فأنتم أحرار، وإذا أردتم أن تضعوا بدل النقاط كلمات مناسبة فأنتم أحرار أيضاً.

بدأت أفهم لماذا تكثر الكلمات النابية والقاسية في التركية مقارنة مع غيرها من لغات العالم.

إضافة

هذه الحادثة التي رويتها لكم، جرت معي قبل شهر تقريباً. وبينما كنت منهمكاً في الكتابة، قرأت مقالاً في إحدى الصحف سأنقل لكم مقطعاً منه.

كانت مسارح الدولة في استنبول قد وجهت دعوات إلى الأطفال لحضور مسرحية «الطير الأزرق» والتي سيتم عرضها في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١. وعندما حضر المدعوون مع أطفالهم إلى المسرح، وجدوه مقفلاً وأنواره مطفأة، واعتقدوا لأول وهلة أنهم حضروا باكراً قبل الموعد المقرر لعرض المسرحية، لكن أحد الموظفين هناك، أوضح لهم أنه جرى عرض المسرحية بتمام الساعة الثالثة عشرة بدلاً من الثامنة عشرة وكما أفاد الموظف، فإن وزير الثقافة أمر بتقديم عرض المسرحية إلى الساعة الثالثة عشر بعد الغذاء مباشرة، لأنه لن يتمكن من الحضور الساعة الثامنة عشرة.

هل حصل هذا الشيء مع أحد منكم؟ أنا شخصياً حصل معي. وأمام هذه المواقف غير الجدية، لا نستطيع التعبير عن الموضوع لأننا لن نجد الكلمات المناسبة المعبرة عن الحقيقة.

سيقول الكاتب: «لم أجد كلمة أعبر فيها عما حدث» وإذا لم يجد الكلمة المناسبة عندها يبدأ الإنسان بوضع نقاط متسلسلة حسب شدة الموقف.

٥

الكلب «ترونج»

اقتضت طبيعة مهمتي الإقامة أسبوعين كاملين في إحدى عواصم الشرق الأوسط.

كان الأسبوع مليئاً بالمقابلات والزيارات... أما الأسبوع الثاني فقد كنت فيه ضيفاً على أحد أصدقائي من السفراء. في اليوم الأول حضرت مؤتمراً دولياً استمر لساعة متأخرة، لذلك لم استطع زيارة صديقي السفير. وعند منتصف الليل اتصل بي السفير وزوجته في الفندق الذي كنت أقيم فيه فاعتذرت عن الحضور في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكنهما حضرا في اليوم التالي واصطحباني معهما. السفير وزوجته من أعز أصدقائي القدامى، فقد لاحظت جواً من البرود مخيماً على علاقتهما، وتأكدت وجود توتر في علاقتهما مهما حاول الزوجان إخفاءه عني.

من غير المستحسن سؤالهما عن سبب توتر العلاقات بينهما في هذا الموقف الصعب، وبما أنه تربطني بالسفير قرابة وصداقة فقد تركت له حرية الإفصاح عما في صدره. والواقع أنه لم تمض بضع دقائق حتى بدأ يشكو لي همومه والمصاعب التي يعيشها.

كانت زوجته تهوى جميع أنواع الحيوانات، وصديقي يفهم نوعية هذا الهوى ويقدّره، وبما أنهما كانا عاقرين، فمن الطبيعي جداً في هذه الحالة أن تتعلق الزوجة بحب الحيوان لذا فقد امتلأ بناء السفارة بالقطط والكلاب والطيور، كانت تصطحبها معها من استنبول. ومع ذلك فإن

صديقي لم يعارض هذه التصرفات.

ولكن في أحد الأيام شاهدت زوجة السفير كلباً ضعيفاً، مريضاً، تملأ القروح جسده النحيل، جاثياً أمام حديقة السفارة، فبدأت زوجة السفير العالي المقام تنزل إلى باب الحديقة وتطعم ذلك الكلب بيديها، ولم يكن هذا التصرف مناسباً لمقام السفير ومكانته. وكان ذلك الكلب كلما أحس بالجوع في أي وقت من النهار والليل، يقف أمام باب السفارة ويبدأ بالعواء الشبيه بالأنين، ومرات كثيرة كانت الزوجة تنهض من نومها وتطعم الكلب حتى يشبع، ولم تترك هذا الأمر لخادم السفارة.

هل هذا التصرف ينم عن حب الحيوان يا روحي؟ أقسم لك أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك، فكانت تلبس القفازات البلاستيكية بيديها وتداوي قروح الحيوان وتغسله بأفخر أنواع الصابون. حتى أصبح الكلب سليماً وقوياً، وتمرس على الغنج والدلال.

وتبين فيما بعد أن الكلب أنثى بسبب نمو البطن والأثداء، وصارت الكلبة تتثاقل في مشيتها، وما كان صديقي يخشاه ويخاف منه هو أن تنجب الكلبة خمسة أو ستة جراء صغيرة، فتجتمع أمام باب السفارة وتبدأ بالنباح والأنين وخاصة خلال حضور بعض الوفود الرسمية وتقع أنظارهم على هذا القطيع من الكلاب، فكيف سيكون موقفه؟

كان صديقي يحمل الهموم والأحزان والشكاوي. فكلما اقترب موعد ولادة الكلبة، صارت لا تغادر باب السفارة مطلقاً. كان باستطاعته طردها وقتلها، ولكن كيف سيتخلص من غضب وتوبيخ زوجته التي يعيش معها منذ فترة طويلة؟... ماذا سيفعل؟ وكلما اقترب موعد ولادة الكلبة كانت المسكينة (الكلبة) تختبئ في زاوية ميتة من السفارة لا يراها فيها أحد وتبدأ بالأنين، وتحاول دخول الحديقة، عندها تحركت زوجته متوسلة وطلبت منه المساعدة بالسماح لها بإيواء الكلبة الحامل إلى داخل السفارة (أي إلى

الحديقة). والأمرّ من ذلك أن الكلاب في الداخل كانت تغار من القادم الجديد... تنهد السفير بعمق وكأنه يحمل الجبال عن كاهله وقال:

طبعا يا صديقي! لقد وافقت على طلبها، ماذا باستطاعتي أن أفعل، فوجود الكلبة في الحديقة أفضل

من على باب السفارة، فالقادم إلينا لن يراها مع جرائها من النظرة الأولى.

ولدت الكلبة، ولكن هل تعلم كم كان عدد الجراء؟ إنهم عشرة، كانت أثداء الأم تلامس الأرض عند سيرها. وبعد شهر أو أكثر كبرت الجراء وبدأت تلعب مع بعضها في باحة الحديقة كل واحد يطارد الأخر، وأضحت الحديقة قاب قوسين أو أدنى من الخراب. عشرة جراء وأمهم، يلعبون ويمرحون في الحديقة،

ماذا سيحل بالأزهار والحديقة؟ كدت أصاب بالجنون يا صديقي. مرت أيام وحصل ما هو أسوأ لقد بدأ بطن الكلبة بالنمو للمرة الثانية وأنجبت عشرة جراء أخرى دفعة واحدة.

ـ وجه السفير كلامه لي قائلا: لقد جئت في الوقت المناسب.

ـ سألته: ماذا تعني؟

ـ لا يستطيع أحد حل هذا الوضع إلا أنت... لقد طارت بهجة منزلنا وتبدَّلت أجواؤه الحلوة... ولا أدري ماذا سأفعل.... في الحديقة عشرون كلبا شارداً، أتلفت الأزهار و الأعشاب. ماذا يكون الموقف

فلو أنجبت تلك الكلاب؟ أنا شخصيا سأصاب بالجنون.

وزوجة السفير أيضاً حدثتني حول هذا الموضوع عندما قابلتها بمفردها. كانت تعطي الحق لزوجها في تصرفاته، لا يستطيع أحد تحمل هذا الوضع، ولكن، ماذا بوسع الزوجة المسكينة المغلوبة أن تفعل؟ لقد بدت شديدة الندم لأنها أشفقت على الكلبة وأوتها إلى السفارة.

لكن الأمور وصلت إلى طريق مسدود، فزوجها لا يعلم أنها حاولت التخلص من قطيع الكلاب عدة مرات، وأنها وضعتهم ذات يوم في سيارة وأبعدتهم عن السفارة، ولكنها ندمت أشد الندم وبكت كثيراً لفعلها هذا، وبدأت ترى الكلاب في الحلم، ووصلت إلى حالة نفسية سيئة للغاية. وعندما نهضت من نومها صباح اليوم التالي وجدت الكلبة الأم في الحديقة وكانت أول من يعود وتلاها رعيل الجراء اثنان اثنان، وثلاثة ثلاثة، ماذا تستطيع أن تفعل غير ذلك؟ طبعاً لا تستطيع رؤية هذه الكلاب تموت أمامها.

بعد أن أفرغت كل ما في صدرها قالت:

ـ لي رجاء كبير عندك.

ـ استغفر الله... يا سيدتي...

ـ أنت الوحيد الذي سيجد حلاً لهذه المشكلة.

ـ وكيف تعلمين أنني سأجد حلاً؟ فأنا لم أصادف في حياتي موقفاً كلابياً معقداً بهذا الشكل.

ومع هذا وضعت أمامها الحل الذي توصلت إليه آنذاك:

ـ لديك بيئة اجتماعية واسعة، وأصدقاء كثيرون، منهم السياسيون الذين يترددون على السفارة، وأصدقاؤك. وزعي الكلاب عليهم، كل واحد يأخذ كلباً.

ـ هل تعتقد أنني لم أفكر بهذا الأمر، توسلت ورجوت جميع الأصدقاء والمعارف والأصحاب لكنهم رفضوا قبول طلبي.

بدأت أفكر بمخرج آخر وحل مقبول وعملي للأزمة، لعلي أستطيع به إعادة الطمأنينة والسعادة إلى الزوجين السفير وزوجته اللذين أحفظ لهما كل مودة وإخلاص.

في الليلة التالية كانت السفارة ستقيم مأدبة عشاء فخمة لكبار رجال

الأعمال والسياسة والطبقة الأرستقراطية في الدولة، وكنت بين المدعوين للحفل. توزع المدعوون إلى جماعات صغيرة من اثنين إلى ثلاثة يتبادلون الأحاديث. تعرفت خلال محادثاتي على تاجر كبير، أظهر لي تعاطفاً وتقارباً غير عاديين. قادنا الحديث إلى موضوع الكلاب وأنواعها، ذكرت له أن أفضلها هو «الترونج»، والحقيقة لم أكن أملك معلومات كافية عن الكلاب، والتاجر أشد جهلاً مني أيضاً.

ـ طبعاً تعرفون أن أفضل أنواع الكلاب هي «الترونج»، قال نعم ولكن هذا النوع لا يوجد عندنا.

ـ الكلاب بطبيعة الحال تتوالد كثيراً لكن هذا النوع من الكلاب «الترونج» لا يتوالد إلا قليلاً، والحصول على جراء منها صعب للغاية.

بدا التاجر شديد الاهتمام بكلاب «الترونج»، وكنت أصب النار على الزيت بالذهاب بعيداً في وصف هذه الكلاب وفوائدها إلى ما هنالك من معلومات قريبة وبعيدة. وقلت في النهاية: إذا أراد الإنسان اقتناء كلب فيجب أن يكون من نوع الترونج.

ـ قلت له: إن السفير يملك كلبين من هذا النوع، وهو يحبك كثيراً فلو طلبت منه ربما يعطيك أحدهما، وأنا واثق أنه لن يعطي أحداً غيرك، ولن يخجلك.

استأذنت التاجر بحجة أمر هام وتوجهت إلى زوجة السفير وقلت لها:

ـ سنضع جرواً من أصل العشرين في سلة هدية لأحدهم.

قالت زوجة السفير: أرجوك إذا كان الخبر صحيحاً لنتخلص من الكلبة الأم أولاً فالأغلب أنها حامل للمرة الثالثة. وأخشى أن تلد هذه المرة خمسة عشر جرواً.

تقدم التاجر إلى السفير وطلب أن يهديه أحد كلابه «الترونج»، نظر إليه السفير بحيرة قائلاً:

ـ ماذا؟ هل قلت «تروبخ».

ـ تدخلت في الحديث بين الرجلين وقلت للسفير:

لا تنكر ذلك، السيد يعلم أنك تملك هذا النوع من الكلاب، وسيكون مسروراً جداً لو أهديته كلباً واحداً.

كنا قد وضعنا الكلبة الأم في سيارة التاجر وهو يغادر السفارة.

وبعد يومين اجتمعنا في دعوة أخرى، راقبت قنصلاً عن بعد، وقررت أن ألعب معه اللعبة ذاتها فسألته:

ـ هل أقمت طويلاً في إسبانيا.

ـ أجاب: لا.

ـ قلت في نفسي «الصيد ثمين» أنا شخصياً لم أذهب إلى إسبانيا أبداً، ولكن بدأت أصف له معالمها وآثارها وشعبها، وأكثر ما يعجبني فيها تلك الكلاب المسماة «تروبخ» طبعاً إنكم تعرفون هذه الأنواع.

ـ أجاب القنصل: لم أرها... ولكن ربما سمعت عنها.

ـ طبعاً يجب أن تسمع بها وتتعرف عليها. إنها جنس مشهور من الكلاب، وعدم معرفتكم بها ناتج عن ندرتها، وهذا النوع يدر على الخزينة الإسبانية أموالاً طائلة نتيجة المتاجرة بها.

ـ هل تصدر إسبانيا هذا النوع من الكلاب للخارج.

ـ كلا تبيعها فقط للسياح، فواحد من ثلاثة لا بد أن يشتري كلباً من هذا النوع. والإسبان لا يبيعون كلاب التروبخ الأنثى. سعر كلب التروبخ الذكر لا يقل عن خمسمائة دولار بينما سعر الأنثى يزيد عن ألف دولار، وقد صدر في إسبانيا قانون يحظر بموجبه بيع الكلاب الأنثى.

ـ قال القنصل: وماذا ينفع كلب التروبخ الذكر إذا لم يكن معه أنثى.

ـ يملك سفيرنا زوجاً من الكلاب الإناث، لا أعلم إن كان باستطاعته

الاستغناء عن واحدة منهما. تفضل معي سأطلب منه باسمك واحدة منها.

ذهبنا إلى المكان الذي يقف فيه السفير مع صديقه، ودخلت بينهما وقلت:

ـ من فضلكم سعادة السفير، باسم السيد القنصل سأطلب منكم حاجة، سيادته مغرم بكلاب «التروبخ» هل تأذنون بتقديم كلب واحد مما هو عندكم؟

ـ قال القنصل: أرجو أن تكون أنثى... وحبذا لو كانا زوجاً ذكراً وأنثى.

ـ أجاب السفير: بكل مودة، مع قبول تحياتي العطرة.

ـ تحرك صديقه السفير وقال: وأنا أيضاً أريد زوجاً.

ـ سمعاً وطاعة سعادة السفير، سنعطيك أربعة.

كنت قد وزعت جميع الكلاب الموجودة في السفارة، حيث بدأت تلك الكلاب تعيش برفاهية بينما زملاؤهم ما زالوا يعيشون في الشوارع على القمامة.

وقبل يوم من مغادرتي المدينة حضر صديقي السفير ملهوفاً:

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ ماذا حصل؟

ـ لقد اتصل بي أحد السفراء هذا الصباح، وطلب مني إهداءه كلباً من جنس «تروبخ».

ـ هذا حسن ولم لا تعطيه؟

ـ لم يبق عندنا كلب واحد لنقدمه له. ومما يحز في النفس أن السفير سيغادر المدينة غداً ومعه كلب «التروبخ»، وإذا لم نستطع تأمينه له فتلك مصيبة.

ـ ليست مصيبة أبداً، فأنا أعلم سبب إصرار السفير على إهدائه كلباً من جنس التروبخ لأن جميع من أخذوا كلاباً، بعثوا بالهدايا الثمينة إلى زوجة السفير.

قالت زوجة السفير:

ـ الغريب في الأمر أن زوجة السفير هذا الذي يطلب كلباً هي من أعز صديقاتي، كنت قد توسلت إليها في الماضي لتأخذ كلباً ولكنها كانت ترفض بشدة، وهي الآن تتوسل وتترجى.

ـ كلامك صحيح يا سيدتي إنها تطلب كلب التروبخ لا كلباً من الشوارع.

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ هذا أمر بسيط لا تحزني، سنجد حلاً.

طلبت من أحد العاملين في السفارة أن يقبض على كلب من الشارع، وكان قذراً جداً.

اتصل السفير مع صديقه الذي يطلب كلباً من جنس التوبخ وقال له: لم يبق عندي سوى كلب واحد من نوع التروبخ، كنت أتمنى أن أهديه لك لكنه مع الأسف مريض جداً.

ـ أجاب: لا مانع، ليكن مريضاً، .. سأعالجه حتى يشفى تماماً.

وهكذا توزعت كلاب «التروبخ» في جميع أنحاء العالم.

مرت عدة أشهر على الحادثة. وبالأمس وصلتني رسالة من صديقي السفير يقول فيها: لقد احترقت يا صديقي: إن زوجتي تقول: ما دامت كلاب التروبخ قليلة العدد ونادرة الوجود وذات قيمة عالية، فلماذا وزعناها بهذا الشكل الاعتباطي؟

لقد ملأت السفارة بثمانية كلاب من نوع «التروبخ» والإنجاب على قدم وساق، ولا أستطيع إحصاءها. بعد مدة لن يبقى لنا مكان في السفارة نسكن فيه من كثرة كلاب «التروبخ».

٦

شيء ما يتحرك

ظنَّ أنه فعل خيراً بحضوره إلى هذا المكان. فقد كان يغضب كثيراً من الذين يقولون له: عليك بالإقامة في مكان هادئ ليرتاح رأسك قليلاً وتستعيد عافيتك. لماذا يطلب الجميع منه الذهاب لمكان هادئ لعدة أسابيع للاستجمام والراحة؟

السبب كان واضحاً، فهم لا يريدون إعلامه بأنه عصبي المزاج، ترتفع وتيرة عصبيته كل يوم، يحتد ويغضب دون سابق إنذار. كما لم ترغب عائلته أن تقول له صراحة، اذهب إلى أي مكان ترتاح فيه، بسببك رحلت السعادة من البيت. اذهب حتى يرتاح أهل بيتك بضعة أيام. لم يتجرأوا أن يقولوا له لقد أصبحت مجنوناً، أو أنت نصف مجنون، أو إذا بقيت على هذه الحال ستصبح مجنوناً حقاً. مقابل ذلك كانوا يشفقون عليه ويقولون: أنت تحتاج إلى راحة طويلة، لقد تعبت من العمل المتواصل... اذهب إلى مكان هادئ لتريح أعصابك.

يقولون ذلك، وكأنه لا يوجد حوله ما يسبب له الغضب... في منزله، كثيراً ما يتحول إلى نصف مجنون، عندما يطلبون منه الراحة، أو عندما يقولون له اذهب بعيداً عنا لنرتاح.

لم يكن يرغب بالذهاب إلى أي مكان، لكن خلال الشهرين الأخيرين أصيب بما يشبه الشلل الموضعي، فلم يعد يستطيع تحريك أصابع يده، يمشي متثاقلاً عندما يريد التوجه إلى المرحاض، تضاعفت ساعات نومه،

وارتفعت حرارة جسمه وخاصة أطرافه التي يشعر أنها مغطسة في ماء ساخن... ما سبب ذلك؟.

عاينه أحد أصدقائه الأطباء، وقال له: يجب أن تسافر إلى مكان هادئ لترتاح بعض الوقت... لكنه رفض كلام صديقه... الأفضل أن يذهب إلى طبيب اختصاصي أجنبي ليفحصه جيداً... فقد شعر أن جميع الأطباء متواطئون مع أهل بيته، طلب منه صديقه الطبيب الذهاب إلى ساحل البحر للاستجمام، ومن ثم معالجته بالأدوية.

حمل الرجل حقيبته وقصد هذا المكان الجميل، فندق مطل على البحر، استرخى على كرسي هزاز وبدأ يراقب البحر الهادئ، وزرقته اللازوردية، وحدوده اللامتناهية. كانت أشعة الشمس تنعكس على سطح مياه البحر المائجة، والضباب الخفيف يتصاعد من الأفق البعيد، ونسمات لطيفة ممزوجة برائحة أعشاب البحر تداعب وجنتيه، فيأخذ نفساً عميقاً، ويشعر بعده أن السعادة دخلت أعماقه... أوو ه ه...

كان تصرفه حسناً عندما حضر إلى هذا المكان، سنوات طويلة مضت دون أن يأخذ قسطاً من الراحة والهدوء... فالتعب أخذ منه مأخذه...

ـ تفضلوا سيدي، هذا مفتاح غرفتكم، ضعوا الحقيبة في الداخل.

ـ شكراً جزيلاً.

رفع يديه ووضعهما خلف رأسه، ووقف على رؤوس أصابعه وأخذ نفساً عميقاً.

كان برنامجه الذي وضعه لنفسه في اليوم الأول على النحو التالي: قبل كل شيء سيدخل غرفته ويبدل ملابسه. ثم يختار مكاناً جميلاً في هذا الفندق مطلاً على البحر حيث سيشرب كأساً من العصير البارد... بعدها يتناول طعام الغذاء في فسحة الفندق المطلة على البحر أيضاً... وبعد الغذاء، يلزم غرفته ليأخذ فترة من الراحة والنوم... يستيقظ عصراً وينزل

إلى البحر، وبعد السباحة يأخذ حماماً شمسياً ويغتسل بالماء البارد... وفي المساء يجلس طويلاً على مقعده الهزاز يتأمل الكون والحياة والهدوء المطلق الذي لا يعكره سوى تكسُّر الأمواج على صخور الشاطئ.

كانت غرفته جميلة؟! مكيفة من الداخل، بينما الحرارة ربيعية على الشرفة. ابتسم وهو ينظر إلى السرير النظيف بأغطيته البيضاء كالثلج، والفراش الوثير الناعم، كم أحب أن يأخذ قسطاً من الراحة فوق هذا السرير. تناول الوسادة المحشوة بريش النعام وفركها بين يديه، وتمنى أن يسند رأسه المتعب إلى هذه الوسادة الناعمة الباردة.

خرج إلى الشرفة. كانت أمامه الأزهار الجميلة، والزنابق البيضاء... وخلفها فسحة مغطاة بالأعشاب الخضراء. شعر وهو يطيل النظر إلى هذه الخضرة الرائعة والأزهار البديعة أن أعصابه تعود إلى هدوئها، وبنشوة عارمة من السرور والغبطة تملأ صدره. بعد الفسحة الخضراء ألوان من الورود، وخلفها غرفة صغيرة اختفت نوافذها خلف الأزهار المتسلقة، ويليها البحر الهادئ الذي يبدو كبحيرة صغيرة.

استلقى على الكرسي الموجود في الشرفة، وما لبث أن انتفض واقفاً بسرعة لأن الكرسي غير متوازن الأمر الذي أثار أعصابه. ثمة كرسي آخر على الشرفة ولكنه مثل سابقه غير مريح أيضاً.

نظر إلى البحر وشاطئه الجميل، والأزهار الرائعة من مختلف الألوان التي أمامه. فوجد أن الجمال قد يرحل عن هذه المنطقة... فإذا لم يجد مقعداً متحركاً فالمكان سيتحول إلى جحيم. ضغط على زر الجرس يحضر الخادم على الفور، فصرخ في وجهه قائلاً:

ـ هذا الكرسي غير مريح لأن إحدى قوائمه قصيرة... أحضروا لي كرسياً غير هزاز.

ـ سمعاً وطاعة يا سيدي.

أحضر الخادم مقعداً آخر، عندما جلس عليه قال:

ـ هذا أيضاً مثل سابقه، ألا يوجد لديكم كرسي قوائمه متساوية الطول؟

ـ دقيقة واحدة من فضلك يا سيدي، سأحاول إصلاحه. تناول علبة سجائر فارغة وطواها ووضعها تحت قائمة الكرسي القصير.

جلس من جديد فصارت القائمة الثانية هذه المرة قصيرة. دخل غرفته غاضباً وما أن ألقى بنفسه على المقعد في الداخل، وإذ بالمقعد يدور دون سابق إنذار، فصرخ عالياً هذا الآخر يتحرك.

وضع الخادم قطعة مطوية من أوراق صحيفة، ولكن المقعد ما زال يتحرك.

ـ ما هذا التصرف معي، ألا يوجد لديكم مقعد قوائمه متساوية؟

ـ أجاب الخادم: جميع قوائم الكرسي متساوية الطول يا سيدي... لكن الأرض غير مستوية.

ـ ألا تجدوا سطحاً مستوياً مناسباً لي؟

خرج الرجل من غرفته غاضباً، وتوجه نحو المطعم ليشبع بطنه قبل كل شيء، ومن ثم يفكر بما سيفعله. عندما جلس على الطاولة المطلة على البحر... شعر بأن الكرسي يتحرك تحته. فاضطر للانتقال إلى طاولة ثانية، في هذه الأثناء حضر أحد العاملين في الفندق وقال له:

ـ لقد بدّلنا غرفتك يا سيدي... تفضلوا هذا هو المفتاح.

ـ قال للخادم:

ـ قبل كل شيء عليكم إيجاد كرسي لا يتحرك عندما أجلس فوقه. فأنا لا أستطيع تناول الطعام والكرسي يتحرك من تحتي.

ـ كما تريدون، سنبدلها لكم يا سيدي.

بدّلوا ثلاثة كراسي، ولكن كل واحد منها كان يتحرك.

ـ الأرض غير مستوية يا سيدي. تفضلوا إلى هنا....

بدّل أربعة أماكن، وقوائم الطاولات تتحرك فيها، يحاولون تثبيتها بوضع أي مسند لها، ولكن دون جدوى.

كان الرجل يرتجف غضبا، فتوترت أعصابه، ولكنه استعاد هدوءه قليلا وقال:

ربما أستطيع تناول الغذاء دون أن تتحرك الطاولة. طلب سمكا وسلطة ومشروبا،

وبينما كان ينظف السمك ويخرج منه الحسك، كان صوت قرقعة يخرج من الطاولة.

تناول السكين والشوكة وبدأ بتقطيع السمك بينما الطاولة تهتز باستمرار، فتتحرك باهتزازها الأواني الموضوعة فوقها.

ـ صرخ بأعلى صوته، هذه الطاولة غير صالحة أريد غيرها.

في هذه المرة بدأت الأواني تهتز من جديد وكل شيء يهتز، الكرسي، الطاولة وجميعها تصدر أصواتاً مزعجة. كان جائعاً جداً ولكنه لم يستطيع أن يتناول شيئاً من الطعام وهو في هذه الحالة النفسية. قال: سأذهب إلى غرفتي لأغفو بعض الوقت ويزول هذا التوتر.

دخل غرفته، وخلع سترته ووضعها على الكرسي، فتحركت لعدم توازنها. إنه لن يستطيع الجلوس هنا بعد الآن، لا على الكرسي ولا على المقعد، فاشتد غضبه وتوترت أعصابه، وألقى بنفسه على السرير... فإذا بصوت يصدر: تيك.. تيك.

ما هذا؟ إنه الصوت نفسه، استدار للناحية الأخرى فعاد الصوت ثانية تيك..تيك حتى المقعد الوثير في الغرفة أصدر صوتاً عندما جلس عليه. صرخ بكل قواه:

ـ سأجن، سأصاب بالصرع كل ما هو غير متوازن يرافقني أينما ذهبت؟

لو نام على السرير دون حركة، لما تحرك. ولو جلس على الكرسي دون حركة، لما تحرك الكرسي.

ولكنه لن يظل بدون حركة، لقد تداخل عقله وقلبه مع هذه الحركة، وحتى عندما يقف جامداً دون حراك، فإن جسمه يهتز من العصبية والتوتر.

نهض من السرير وتناول جواربه ووضعهما تحت قائمة السرير القصيرة.. واستلقى عليه. كان السرير يتحرك، فقفز منه وقذف بالفراش والأغطية على الأرض، وأصيب بهيستريا من الغضب.

فكّر بالنوم على الأرض فهي لن تتحرك. تمدد عليها وإذ بها تصدر صوتا تي كيت... تي كيت...مثل نقط الماء المتساقطة بإيقاع. صوت يثقب دماغ الإنسان تي كيت... تي كيت...

نهض وبدأ بالبحث عن مصدر الصوت، فوجد أن سببه هو محاولة أحدهم إصلاح طاولة غير متساوية القوائم. فصرخ بأعلى صوته:

ـ ألا يوجد لي مكان في هذه الدنيا الواسعة لأستريح؟

ارتدى ثيابه وخرج من الغرفة قاصداً مدير الفندق. وصرخ في وجهه:

ـ ألا يوجد شيء هنا لا يتحرك؟

دفع الحساب وحمل حقيبته إلى محطة السيارات. آ.آ.آ. ما هذا الشيء؟

كان يسير كالأعرج، وجانبياً، كأن إحدى ساقيه أصبحت قصيرة. لو لم يكن يعرف أن ساقيه متساويتان في الطول، لظن أنهما السبب في عدم توازنه. لا شك أن السبب هو تآكل كعب الحذاء،

فخلع الحذاء الأيمن ووضع بداخله كمية من الورق.

الأمر على ما يرام الآن، ولكن اليسرى أصبحت قصيرة.

جئت إلى هنا لأرتاح قليلاً، ولكن لا شيء هنا دون حراك. لقد تعطل توازن جميع الأشياء. قال ذلك ثم تحرك، وتحرك...

٧

إلى أي حال وصلنا

كيف تطورنا نحن البشر كيف كانت حالنا، ما هو مصيرنا، وكيف وصلنا إليه. منذ عدة أيام فقط عرفت الحقيقة عندما التقيت مع «بودوس محمد» في منزل أحد زملاء الدراسة في المدرسة. مسكين «بودوس محمد» لم يبق فيه من ملامحه القديمة شيء. كان لقبه في المدرسة «بودوس» ذو الأنف الكبير الذي كان يضفي على شخصيته نوعاً من الجدية، مع أنه عكس ذلك تماما. كان في مقتبل عمره شابا رائعا بكل معنى الكلمة، يحبس ضحكة خلال مزاحه، لذلك لم نكن نعلم بماذا يفكر، لكن صورته تراءت لنا أنه برأس كبير لأنف طويل.

ستة وثلاثون عاماً انقضت على لقائنا الأخير، وعندما التقينا بعدها لم أعرفه، حتى هو لم يعرفني. سألني صديقي الذي التقينا في منزله:

ـ هل تعرف بودوس محمد يا صديقي؟

ـ ماذا؟ هل قلت بودوس محمد، هل هو بودوس الذي أعرفه هنا؟

ـ لولم يذكر اسمه ما عرفته، وتساءلت: هل يتغير الإنسان لهذه الدرجة؟ بقيت مندهشاً وأنا لا أصدق.

كان بودوس ينظر أيضا إلى وجهي وكأنني غريب عنه.هو «بودوس محمد» وأنا من أكون؟

عرّفني عليه صديقي بلقبي عندما كنا على مقاعد الدراسة.

تعانقنا بقوة ونحن نردد: واي... يا الله ما هذه الصدفة، لقد تغير

بودوس محمد كثيرا وترهل جسمه وبدت عليه دلائل الشيخوخة، حتى أنفه الذي كان يطبع الجدية على وجهه قد ضمر إلى حدّ ما،

وبدا من الضعف والهزال بحيث يغطي القسم الأكبر من وجهه. كنا نفهم كلامه جيداً، وكانت نظراتنا إليه تحمل الشفقة والحزن. فإذا تحدث يخنق السعال صوته. كنت تواقاً لسماعه وفهمه لأن ذلك يعيدني إلى مراحل الطفولة والمدرسة.

كان «بودوس محمد» طالباً ذكياً وحشرياً، لكنه أصبح طبلاً فارغاً فيما بعد.

بعد تخرجنا من الكلية العسكرية وأصبحنا ضباطاً، تم تعييننا في قطعة واحدة. حضر «بودوس محمد» إلى القطعة حاملاً حقيبتين كبيرتين من الكتب. إنه أمر غريب ويدعو للتساؤل! لأن «بودوس محمد» لم يكن يقرأ الكتب... حياة الطلبة شيء والحياة العامة شيء آخر. والأغرب من ذلك أن الكتب التي حملها معه داخل الحقيبتين كانت إنجليزية، وفرنسية، وألمانية، رتبها على منضدة داخل غرفته الواسعة.

- ولك بودوس محمد ما هذه الكتب؟

- كما ترى إنها كتب أحضرتها لأقرأ بها.

كان بودوس محمد قد اشترى نظارة كبيرة عريضة الإطار، وضعها فوق أنفه الكبير وبدا بها كالفلاسفة القدماء أمثال فيثاغورث.

وفي أحد الأيام سقطت النظارة عن الطاولة وكسرت إحدى عدساتها ولم يتمكن من تركيب بديل لها لعدم توفر أخصائي بالعدسات في تلك المنطقة.

ظلت نظارته بعدسة واحدة حتى كسرت العدسة الثانية، واستمر في وضع النظارة على أنفه دون عدسات. فإذا نظرت إليه من بعيد، لا تستطيع تمييز النظارة بعدسات أو بدونها. وعندما يدخل الغرفة ضابط

كبير، كان يضع نظارته على عينيه ويفتح أحد الكتب الأجنبية متظاهراً بالقراءة فيها.

في أحد الأيام وبينما كان بودوس محمد يقلب صفحات أحد الكتب الأجنبية متذرعاً بالقراءة، دخل عليه قائد وحدته، فوقفنا جميعاً باستعداد، نظر إلى بودوس محمد وقال له:

ـ عفارم عليك... إنك تطالع الكتب دائماً ثم ألقى نظرة على الكتب المرتبة فوق الطاولة وقال:

ـ أووو... كتب أجنبية أيضاً، لنرى ماذا تقرأ؟

أمسك قائد الوحدة بالكتاب الذي كان يقرأ به بودوس محمد، وبدأ يقلب صفحاته وكلما انتقل إلى صفحة جديدة من الكتاب كان وجهه يزداد تجهماً.

ـ هل هاذا الكتاب يليق بك، لماذا لا تقرأ كتباً أكثر جدية... وبما أنك تعرف لغات أجنبية فما عليك سوى قراءة الكتب التاريخية، والعسكرية، والطبية.

كان الكتاب الذي تصفحه قائد الوحدة باللغة الألمانية كتاباً جنسياً ونفسياً.

وبينما كان قائد الوحدة يهم بإعادة الكتاب إلى مكانه، دخلت أصابعه مكان عدسات النظارة، تعجب لهذا الأمر وقال:

ـ أين عدسات نظارتك؟

ـ كسرت يا سيدي.

ـ لماذا تضعها على عينيك وهي مكسورة.

ـ لأني اعتدت يا سيدي، فإذا لم أضعها لن أستطيع القراءة.

ـ ولكن الإطار فارغ.

ـ أعلم يا سيدي ولكني اعتدت على ذلك.

تناول قائد الوحدة كتاباً آخر وقلب صفحاته، فازداد تعجبه، فالكتاب باللغة الفرنسية وهو كتاب طبي، عرفه من خلال الرسوم التي بداخله. ثم تأمل كتاباً ثالثاً فكان كتاباً في الفيزياء باللغة الإنجليزية... والكتاب الأخير عبارة عن ألبوم للطوابع القديمة.

خرج قائد الوحدة من الغرفة وهو يهز رأسه تعبيراً عن أساه وتعجبه بعقلية القارئ، أسرعت إلى بودوس محمد وقلت: ولك بودوس من أين حصلت على هذه الكتب؟

ـ اشتريتها من بائع على الرصيف بأسعار زهيدة، فأخذت منه ملء حقيبتين دون أن أعلم محتوياتها.

كان بودوس محمد شخصاً من هذا الطراز... فبينما كان غارقاً في شرح محتويات الكتب، كنت بدوري أعيد ذكرياتي كاملة. من كان يصدق أن هذا الإنسان ليس سوى «بودوس محمد».

كنا في مرحلة الدراسة الثانوية، وكان بودوس محمد يطاردني في ممشى المدرسة، ومن إحدى زواياه ظهر السيد كاظم أمامنا فجأة، مررت بجانبه بخفة ورشاقة دون أن يلاحظني، أما بودوس محمد فقد هجم على السيد كاظم وسقط الاثنان معاً على الأرض. واستمرت صداقتهما فترة من الوقت، كنت أحسب أن السيد كاظم سيحمل بودوس محمد ويضعه تحت قدميه ويرفسه... ولكن بودوس قال له: سمعتهم يقولون أنك صديق والدي يا سيدي.

الله... الله... أين عثر على هذا الخبر؟ ونحن نعرف أن والد بودوس كان حلاقاً في إحدى القرى البعيدة.

ربما نسي كاظم هذا الاصطدام فأجابه: ومن أين هذه الصداقة؟

ـ خلال حرب جنق قلعة يا سيدي.

ـ ما اسم أبيك؟

ـ علي.

ـ علي.. علي.. علي.. عجباً وأي علي؟ ربما علي بايكوز؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ إذاً أنت ابن علي بايكوز.

ـ نعم يا سيدي، فقد حملني والدي إليكم أحمالاً من السلام. إلا أنني لم أجد المناسبة للقائكم.

ـ ماذا؟ هل تقول أنه أرسل سلاماً؟ متى؟ ألم يمت علي بايكوز ولك بني؟

ـ بما أنك ابن علي بايكوز لماذا لم تقل ذلك يا بني... تعال أريد رؤيتك عن قريب.

كان بودوس محمد قد خلّص نفسه بهذه الكذبة، فهل هو الشخص الواقف أمامي الآن؟ أنفه الكبير الذي يوشك أن يغلق فمه، حديثه الذي لا أكاد أفهم منه بضعة حروف. كيف يتغير الإنسان بهذه السهولة. إنه يقف أمامي يتحدث كثيراً، أما أنا فأعيش الذكريات لحظة بلحظة.

وكما ذكرت سابقاً، كان بودوس محمد طبلاً فارغا أيام دراسته، كان كسولاً لا يحفظ دروسه ولا يكتب وظائفه، ولكنه ينجح بأعجوبة.

عندما تقدمنا لامتحان الثانوية الشفهي. كنا ندخل امتحان المقابلة كل شخصين مع بعضهما.

وشاءت الصدف أن أكون مع بودوس محمد، كان الامتحان في مادة التاريخ، والقاعة تغص بالمدرسين المميزين القادمين من مدارس مرموقة. وكان مدرس مادة التاريخ ضابطاً متقاعداً بالجيش، خاض الحرب العالمية

الأولى، وحرب الاستقلال. وخلال دروس التاريخ يقص علينا ذكرياته وأعماله في هاتين الحربين.

سأله مدرس التاريخ: اشرح لنا يا بودوس مراحل حرب الاستقلال!

توقف بودوس برهة من الزمن، ورفع بصره نحو السقف، وكأنه يحاول جمع معلوماته التي سيقولها للمدرس ومن ثم بدأ بالحديث التالي:

ـ أنتم من صنع حرب الاستقلال يا سيدي.. فالنصر الكبير الذي تحقق هو نصركم وهو أمانة في أعناقنا. أنتم من أبطالنا الميامين الذين سيخلدكم التاريخ، قهرتم الأعداء، لو لم تكونوا في الحرب لا قدّر الله، لكان بلدنا الآن يرزح تحت وطأة الاحتلال.

كان يتكلم دون توقف، ودون وضع الفواصل والنقط، ولم يعط فرصة للمدرس بالكلام.

لقد أعجبت كلمات بودوس المدرس، وهذا واضح من انفراج أسارير وجهه. لكن إطالة الحديث مثل «أنتم أبطال، أنتم...» تبدلت أسارير المدرس وتجهم وجهه وصرخ فيه:

ـ كفى، توقف ولك، اترك الأبطال والأمطال. واشرح حرب الاستقلال.

تحدث بودوس محمد بتلك الجدية التي أعطاها له أنفه الضخم

ـ أمان يا سيدي... استغفر الله، كيف أشرح حرب الاستقلال أمام من خاضوا تلك الحرب، أمام أبطالها. لا يحق لي يا سيدي.. وإن فعلت هذا.. أبدو وكأنني أعطيكم درساً في حرب الاستقلال، هذا لن يحصل وخاصة أمامكم.

صرخ مدرس التاريخ في وجهه

ـ اخرج من هنا، اغرب عن وجهي.

خرج بودوس محمد من القاعة، وكان المدرسون قد نسوا وجودي بينهم، فبدأوا يضحكون بأعلى أصواتهم بعد خروج بودوس من القاعة.

هكذا كان بودوس في طفولته وشبابه، من كان يحسب أنه بعد أكثر من ثلاثين عاما سيصبح على هذه الحال؟

بالأمس رأيت صديقي الذي قابلني مع بودوس محمد في منزله، فقال إن بودوس محمد امتلكته الحيرة عندما شاهدني وتحدث عني بعد أن غادرت منزل صديقي.

ـ ما هذه الحالة التي وصلنا إليها... واه... واه... لو لم تقل لي أنه فلان ما عرفته مطلقا. إن البشر يمرون في حالات كثيرة يتبدلون معها، من كان يقول أن غلاما جنياً سيتحول إلى عجوز خنزير مثلي.

٨

ماذا حصل لبردعة الحمار

مدخل إلى المسرحية

خرج الحاكم من قصره مع كبير الخدم للبحث عن خادم ماهر في جميع الأعمال. قصدا جميع الأماكن في البحث والتفتيش حتى ساقتهم أقدامهم إلى قرية نائية. شاهدا في مدخل القرية ثلاثة حمير مربوطة إلى عمود. وإلى جانبها رجل يغط في نوم عميق. وقد وضع على ظهر كل من الحمارين بردعة أما الحمار الثالث فكان عارياً، لأن الرجل النائم فوق القش وبقايا التبن، قد غطى جسده المرتجف من البرد ببردعة الحمار الثالث.

قال كبير الخدم للحاكم وهو يشير إلى الرجل:

ـ هل رأيت هذا الرجل القليل الناموس وعديم الرحمة والشفقة يا أفندينا. لقد أخذبردعة الحمار المسكين وغطى نفسه بها.

أجاب الحاكم الذي كان يحب المزاح والمرح، وقال بصوت قوي ليسمع الرجل النائم:

ـ آمان أيها الخادم... لا أستطيع أن أميز جيداً، هل هناك ثلاثة حمير أم أربعة؟

ـ ثلاثة حمير يا أفندينا.

ـ حسن، والنائم على الأرض؟ أليس الحمار الرابع ألا ترى البردعة على ظهره.

ـ يبدو أنه رجل يا أفندينا.

ـ إذن هو رجل؟ وتقول عنه رجل، وما صلة قرابته بالحمير؟ وما قرابة الحمير به؟

قبل أن يجيب الخادم الكبير على تساؤل الحاكم، بدأ أحد الحمير بالنهيق بصوت عال جداً، عندها أجاب الرجل النائم وهو في نصف غيبوبة:

ـ جووش... جووش... هيش... هيش...

لكن الصوت الصادر عن الرجل لم يعرف لمن كان موجهاً. هل للحمار الذي نهق، أم للحاكم الذي لم يميزه عن الحمير؟

قال الحاكم:

ـ أيها الخادم: من الواضح أن هذا الرجل يحب المزاح كثيراً، ماذا لو أخذناه خادماً لقصرنا؟

في هذه الأثناء كان الآغا الذي يقطن القرية خارجاً من منزله متوجهاً نحو مكان وجود الحمير، وهو يكيّل السباب والشتائم إلى شخص يدعى ايش.

ـ ايش... ولك ايش... إلى أي جهنم ذهبت. ايش أيها السافل... أين تنام الآن...؟ آه لو أقبض عليك؟

قال الحاكم لخادمه:

ـ يبدو أن ثمة أشياء مسلية ستحدث هنا... هيا لنختبئ خلف هذه الأشجار ونراقب ماذا سيحصل؟

كمن الحاكم وكبير خدمه خلف الأشجار.

لم يسمع ايش صراخ الآغا بسبب ثقل نومه، بينما سمعت الحمير الصوت وكانت لا تحب الآغا. ومن عادتها أنها عندما تسمع الآغا ينادي على ايش بالسباب والشتائم، تبدأ بالنهيق، وتوجه الركلات بقوائمها الخلفية إلى ايش لتوقظه. لأن الآغا إذا قبض عليه وهو نائم فإنه ينهال عليه بالضرب.

أما الحمير فتحزن كثيراً عندما يتعرض ايش للضرب المبرح من الآغا، لأن ايش كان يعاملهم بلطف، وقد أحسَّ بذلك الحب وشعر به. فإذا كانت الحمير لا تحب ايش ولا تحزن عليه عندما يضربه الآغا، فلماذا تبدأ بالنهيق دفعة واحدة عندما تسمع صراخ الآغا، وتركل ايش بقوائمها الخلفية؟

كان ايش يحدث الحمير وهو يغط في نومه:

ـ شوفو ولك... قلت هيش، لماذا تركلني ولك عندما لا يكون الآغا قادماً؟ لا تمزحوا معي... هس. هل تقول الآغا؟ ابدأ الآن من آغاك ها...

بينما كان ايش يتحدث مع الحمير بما يشبه الهذيان، وإذ به يسمع صوت الآغا، فينهض سريعاً من مكانه... ولم يكن لديه الوقت ليعيد البردعة التي استعارها إلى ظهر الحمار، لأنه فوجئ بالآغا واقفاً أمامه.

ـ ولك ايش... ايش... الله يخفي اسمك

ـ تفضل يا آغا

كان ايش يرتجف من الخوف... فلو عرف بأنه استعار بردعة الحمار لقتله. احتار فيما سيفعل، وعلى الفور وضع البردعة بين ساقيه.

رأى الآغا أحد الحمير بدون بردعة

ـ ولك ايش ماذا فعلت ببردعة ذلك الحمار الأسود؟

تظاهر ايش بأنه لم يفهم شيئاً. وفي الوقت نفسه كان يرتجف من الخوف.

ـ هيه

ـ أقول بردعة ذلك الحمار أين هي؟

ـ هل قلت الحمار الأسود؟

كان ايش في عالم آخر

ـ ماذا حصل للحمار الأسود؟

ـ جدتك صارت عمياء ولك حمار

ـ تفضل يا آغا

ـ ولك قلت حمار

ـ وأنا قلت تفضل يا آغا

ـ ولك ابني... أقول لك ماذا فعلت ببردعة ذلك الحمار الأسود؟

كان ايش يلف ويدور بالكلام ليجد الكذبة المناسبة.

ـ ها: إذن بردعة ذلك الحمار الأسود

ـ ها... نعم

ـ بردعة ذلك الحمار الأسود... بردعة ذلك الحمار الأسود يا الله... بردعة ذلك الحمار الأسود أين؟

كرر ذلك عدة مرات

ـ هاه... لقد وجدتها، فأنا وضعتها على الحمار الرمادي، انظر أين هي

ـ وأين بردعة الحمار الرمادي يا حمار؟

ـ سأل ايش الآغا بانزعاج لأنه لا يستطيع خداعه: أي واحد منهم؟

ـ ولك... أنا قلت الحمار الرمادي يا جحش.

ـ تفضل يا آغا

ـ جازاك الله... ولك جحش... أنا أسألك عن الحمار الرمادي

ـ هذا هو الحمار الرمادي موجود... ماذا حصل له لا سمح الله؟

ـ قلت أنك وضعت بردعة الحمار الأسود على ظهر الحمار الرمادي... هذا حسن، ولكن ماذا حصل لبردعة الحمار الرمادي، أين هي؟

ـ نعم ما الذي حصل؟ هاي والله، ماذا حصل ولك أخي؟

هاه... عرفت... بردعة الحمار الرمادي وضعتها على ظهر الحمار

الأبرش وها هي على ظهره.

ـ حسن وماذا فعلت ببردعة الحمار الأبرش، ربما أضعتها.

كان ايش خائفاً من سقوط البردعة من بين ساقيه... ولهذا السبب تظاهر وكأنه يريد الذهاب للمرحاض وقال:

ـ التوبة... والله لم أفقدها، وضعت بردعة الحمار الأبرش على الرمادي.

قال ذلك ليخلق البلبلة في فكر الآغا، ولم يكن أمامه سوى هذه الطريقة.

قال الآغا:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، وهزّ رأسه يميناً وشمالاً وسأل ايش ثانية:

ـ ولك ابني، لا تخرجني عن الدين والإيمان، ألم تقل أنك وضعت بردعة الحمار الأسود على ظهر الحمار الرمادي

ـ نعم قلت ذلك...

ـ ووضعت بردعة الحمار الرمادي على ظهر الحمار الأبرش، أنت قلت هذا.

ـ هل أنا قلت هذا؟

ـ لم تقل إذن؟

ـ والله نسيت يا آغا

ـ نعم قلت هذا بالضبط فلا تتهرب.

ـ ليت لساني يبس في فمي ولم أقل هذا.

كانت الطريقة الوحيدة التي تخلص ايش من الآغا هي بلبلة أفكاره بالكلام الفارغ، لعل أحدهم ينادي على الآغا فيتخلص ايش من القصاص.

ـ ولك ابني... فهمني الموضوع من البداية خطوة خطوة... ماذا حصل لبردعة الحمار الأسود

- وضعتها على ظهر الحمار الرمادي

- عفارم... وأين بردعة الحمار الرمادي

- بردعة الحمار الرمادي، تقول بردعة الحمار الرمادي

- وضعت بردعة الحمار الرمادي الذي هو بدون بردعة للحمار الأبرش... تمام... هكذا

- ولك لا تصرعني... عندنا ثلاثة حمير وبردعتان... أين البردعة الثالثة؟

- أي حمار بدون بردعة؟

- الحمار الأبرش

بردعة الحمار الأبرش على ظهره، ألا تراها؟

- أين بردعة الحمار الأسود؟

- أين؟

- انظر إلى هذا... يسألني أيضاً... ولك ابني اشرح بالتفصيل من الأول، ولنبدأ بالحمار الأسود.

- بردعة الحمار الأسود وضعتها على ظهر الحمار الرمادي. ووضعت بردعة الحمار الرمادي على ظهر الحمار الأبرش هذا ما حصل، انتهى... وماذا في الأمر يا آغا، ألا تفهم.

- ولك ابني! لم تقل هذا سابقاً

- آ آ آ ألم أقل لك هذا؟ أقسم بأني قلته وهؤلاء يشهدون على كلامي وأشار بيده للحمير.

- قفز الدم إلى رأس الآغا وثار كالمجنون عندما أشار ايش بيده للحمير المربوطة على أنها شاهدة على أقواله، وصرخ في وجه ايش:

ـ وكمان قالوا: شهد شاهد من أهله.

بينما كان ايش يرتجف من الخوف، كان الآغا يرتجف من العصبية والغضب. ومن أجل إنهاء الجدل صرخ الآغا في وجه ايش وقال:

ـ ولك ابني: بردعة الحمار الأسود، وضعتها على ظهر الحمار الرمادي. وبردعة الحمار الرمادي على ظهر الحمار الأبرش، وعندما وضعت الحمار الأسود لبردعة الرمادي ماذا حصل لحمار البردعة الأبرش؟ وبدأ الآغا يتخبط في كلامه: هيا قل ولك ابني.

خلصنا، هل وضعت حمار بردعة الرمادي، للبردعة الأسود... ماذا فعلت؟ توه... لقد حيّرتني... وتلعثم لساني... جازاك الله... اغرب عن وجهي.

أدار ايش رأسه نحو الآغا وسأله:

ـ ماذا تريد أن تفعل بي، وهل تتعرض حقوقي للأذى؟

ـ تقول حقوقك؟ وما هي الحقوق التي تطلبها، أنت تعلم أن ثمن البردعة يساوي عشرة ايش من أمثالك... أنا لا أريد تكملة ثمن البردعة... اغرب عن وجهي.

وعندما انصرف الآغا غاضباً... خرج الحاكم وخادمه من خلف الأشجار

قال الحاكم لخادمه:

ـ لقد أعجبني ايش هذا... هل رأيت ماذا فعل؟ لقد حوّل القضية إلى مشادة كلامية وبذلك خدع الآغا وتخلص من العقاب. هذا هو الإنسان الذي أبحث عنه، إنه يحب المزاح ويخترع الكلام ويسبكه. لنأخذه خادماً لقصرنا.

وهكذا صار ايش من بطانة قصر الحاكم.

٩

ايبش الحاكم

مسرحية مكررة

كان الحاكم قد أخذ رجلاً يدعى ايبش إلى قصره وعيّنه رئيساً (للسبعة وذمتها) وبدأ عمله في وظيفته فور تعيينه.

وكان للحاكم ولد وبنتان.. كانوا أشقياء منذ طفولتهم، وكان الأب والأم يزجران الأولاد ويصرخان في وجوههم لالتزام الهدوء منذ الصباح حتى المساء... لا تفعل!... لا تلمس...! لا تكسر...!

وذات يوم حلّت عائلة أمريكية ضيوفاً على القصر، وبما أن الحاكم وزوجته يصرخان دائماً في وجه

أولادهم، لا تفعل.. لا تلمس.. لا تكسر..، فقد ظنت العائلة الأمريكية أن هذه الكلمات هي أسماء أولاد الحاكم... كانوا ينادون الأولاد: تعال إلى هنا يا لا تفعل... وللبنات تعالي إلى هنا يا لا تلمسي،

وخذي هذا يا لا تكسري، ومنذ ذلك الوقت ظلت أسماء الأولاد هكذا.

أراد الحاكم تزويج ابنه الوحيد ليحافظ على ذريته، ولكن ولده السيد لا تفعل ولأنه منذ صغره وهم ينادونه لا تفعل، اغتاظ ولم يوافق على الزواج بأي شكل من الأشكال، و عندها ضغط عليه والده ليتزوج فقال:

يا أبتاه.. لو أن أحدهم ظل يردد اسمك طول عمرك بلا تفعل... فهل كنت ستتزوج؟

وفي أحد الأيام شاهد «لا تفعل» صورة لفتاة في إحدى الصحف، فاحترق قلبه في حبها، وأصبح طريح الفراش.. لا يأكل، ولا يشرب من أجلها. وبعد طول عناء وبحث طويل عثروا على تلك الفتاة

وكانت ابنة مزارع كبير. وقد أوكل الحاكم رئيس السبعة وذمتها بالبحث عن أصلها وفصلها وحسبها ونسبها، ومركز عائلتها الاجتماعي والاقتصادي.

سار ايش في الطريق الذي خطه لنفسه ليجلب كل ما طلب منه، ومرّت أيام وشهور وانقطعت أخباره تماما. بينما الحاكم وزوجته ينتظران عودته بفارغ الصبر وعلى أحر من الجمر.

قال الحاكم: إلى أي أسفل السافلين وصل هذا الوغد؟ أين اختفى هذا الرجل؟ وفيما الحاكم يتحدث لنفسه سمع ضجيجا وأصواتا تشبه أصوات صفيحة فارغة ضربها الهواء وتدحرجت على الأرض.

ـ قالت زوجة الحاكم: لقد جاء أخيرا...

ـ سألها الحاكم: كيف عرفت ذلك؟

ـ هذا الشخص الذي عينته رئيسا للسبعة وذمتها في قصرك... عندما يصل إلى مكان ما، يسبقه ضجيجه.. إنه رجل أحمق... ربما ارتطم بشيء وكسره.

ناداه الحاكم: ايش...

ـ تفضلوا. جاء صوته من الخارج

كان الحاكم شديد التوتر والغضب فقال الايش مازحاً:

ـ أرجوك يا سيدي.. تفضلوا أنتم أولا... العمى يقول تفضلوا

ـ ايش

ـ أفندم...

قالت السيدة زوجة الحاكم:

ليأخذ روحك الأفندية إنشاء الله.

نادى الحاكم مرة أخرى

- ايش

- أفندم

- تعالى ولك

- أنا قادم

- العمى! من أين أنت قادم

- إنني قادم من درابزون (مدينة وسط البحر الأسود)

- أية درابزون هذه ولك؟

في هذه الأثناء ألقى ايش رزمة كبيرة وسط الصالون.

- ما هذا؟ ماذا فعلت في درابزون، هل أنت مجنون ولك.

أجاب ايش بعد أن لملم نفسه وبسرعة أمام الحاكم.

- يا ولي نعمتي، ألم تقل لي اذهب بسرعة وكي أعود مسرعاً هبطت من الطابق الثاني وتزحلقت على الدرابزون وحضرت إلى هنا.

- ليمنحك الله ما تستحق حسن، هيا أعلمني... ماذا حصل؟

- لقد حصلت أشياء كثيرة يا ولي نعمتي.

- هيا فهمني ولك روحي... ماذا حصل؟..

- وما الذي لم يحصل؟

- آ. آ فهمني ولك ابني... ماذا حصل؟

- حصلت أشياء كثيرة جداً

- هذا الرجل غريب، أكاد أجن... فهمني ولك ابني؟

- وأي واحدة أفهمك إياها سيدي؟

- ابدأ من الأولى

- سأبدأ الآن يا ولي نعمتي..ألم ترسلني إلى تلك المزرعة لأفهم وضع صاحبها وحالته الاجتماعية والاقتصادية.. ومن ثم أسأل عن الفتاة، حسبها نسبها، أصلها فصلها وكل ما يتعلق بها. الطريق طويل جداً. قلت لأشبع بطني قبل الانطلاق، فدخلت المطبخ، وكان رئيس الطهاة قد أعد طعاماً شهياً يليق بفمك. أكلت... وأكلت... وأكلت. وبعد الأكل شربت ثلاث كاسات من النجومية (لبن مع خيار).

- فاجأك النعاس فنمت؟

- نعم وأي نعاس... كانت مزرعة والد الفتاة بعيدة جداً... أمشي... وأمشي والطريق لا تنتهي وعندما حل المساء.. حللت ضيفاً على قرية ولم أنزل ضيفاً على قرية ثانية. انقضى أسبوع وما زلت أسير في الطريق... وآه من هذه الطريق... الخانات الوسخة، والفرش القذرة، لقد امتلأ جسمي بالقمل، وكان من الكثرة حيث بدأت حك جلدي بقوة. المهم يا سيدي، لا أريد إطالة حديثي عليكم... في إحدى الليالي وصلت إلى قرية نائية. قرعت باب أول بيت مررت به وقلت: ضيف من ضيوف الله... فاتضح لي أن صاحب البيت قروي بسيط طيب القلب. أدخلني إلى منزله، وقدّم لي الطعام، وقالت زوجته: تفضلوا إن غرفة نومكم جاهزة. نظرت إلى الفراش كان نظيفاً للغاية وأنا إنسان مليء بالقمل. فكرت أن أخلع ثيابي وأنام عارياً. كي لا أنقل القمل إلى هذا الفراش النظيف. خلعت ثيابي وعلقت قميصي الداخلي الأبيض على حافة الكرسي. ماذا رأيت بعد ذلك؟

- القميص المعلق على الكرسي بدأ يمشي...

- وماذا أيضاً؟

ـ والله يا سيدي، كانت أسراب القمل تسحب القميص. وخلال لحظة قصيرة وقبل أن أهم بإعادته وصل القميص إلى الباب وكاد يخرج منه. كان قميصي الأبيض يسير بقفزات سريعة في ظلام الليل. وكادت القملات أن تحمل قميصي مع الغطاء.. أسرعت.. قميصي يمشي وأنا أمشي ولم يبق عندي فرصة لأرتدي لباسي الداخلي.. أصبحت عارياً يا سيدي، والقميص يمشي وإذا بي أقع في طوب..

ـ أين وقعت؟

ـ وقعت في بئر من القمح. ومن حسن الحظ لم أصب بأذى والبئر عميق. لم أستطع الخروج منه. انتظرت حتى الصباح، غفوت في البئر.. ثم بدأ صياح الديكة. ناديت القروي... ونظرت إلى الأعلى فماذا شاهدت؟

ـ ماذا شاهدت؟

ـ وإذا بزوجة القروي الشابة تنظر إليّ من الأعلى. سترت جسدي بيدي وقلت لها بالله عليك يا أختي، لقد خرجت ليلاً إلى المرحاض وسقطت هنا، أرجوك نادي زوجك ليخرجني من هنا. ولسوء الحظ كان زوجها قد ذهب إلى الغابة ليجلب الحطب.

قالت المرأة سأدلي بنطاقي إلى الأسفل تعلق به واخرج من هناك. وعندما ألقت بنطاقها وأمسكت طرفه وحاولت التسلق بقوة... لو تعلم يا سيدي ماذا حدث؟

ـ أمان ماذا حدث؟

ـ لقد سقطت المرأة أيضاً في البئر.

ـ جزاك الله يا ايبش.

ـ ليجازيني الله شر جزاء يا ولي نعمتي، عندما سقطت المرأة في البئر

إلى جانبي امتلكتنا الحيرة. وعبثاً حاولنا الخروج من البئر. في هذه الأثناء حضر زوجها، صرخ بأعلى صوته منادياً زوجته عائشة وما هي إلا لحظات حتى شاهدنا القروي يقف فوق حافة البئر.. ويشاهدنا معاً. صرخ القروي من الأعلى: واي. ولك... أويتك إلى بيتي على أنك ضيف الله، وأنت تفعل بي هذا وتعتدي على عرضي.. تناول سلاحه وصوّبه نحوي.

- أي واه...

- أي واه... وأية أي واه... أمان يا صديقي توقف لأشرح لك ما جرى، فالأمر ليس كما تتصور.. ولكن مهما حاولت تبرئة موقفي وموقف زوجته، فقد احمرت عينا الرجل وثار بعنف واشتد غضبه.. وضغط على الزناد فخرجت الطلقات دان... دان... دان...

- أمان ولك ايش وبعدين.

- وبعدين.. ماذا وبعدين؟ إذا أصيب رجل ما بأربع طلقات فماذا سيكون مصيره؟

- يموت.

- أنا الآخر مت.

- ولك... ما دمت ميتاً فماذا تفعل هنا؟

- ولكثرة ما أفرغ القروي من الطلقات... استيقظت مذعوراً من النوم.

- هل استيقظت؟

- نعم وتناولت طعام الفطور في المطبخ... وكما قلت لك آنفاً، شربت ثلاث كاسات من النجومية، وقبل أن أخرج من القصر هجم عليّ النعاس، قلت لأنم قليلاً وإذا بي أغرق في النوم العميق.

- كل ما تكلمت به كان حلماً يا ايش.

- نعم حلم يا ولي نعمتي.

ـ لقد بقيت نائماً يا ولي نعمتي.

ـ توه.. ايش الرذيل المنافق... وظفتك رئيس سبعة وذمتها... اغرب عن وجهي.

ـ والله كانت مزحة يا سيدي... لقد ذهبت ووجدت والد الفتاة ورأيتها شخصياً.

ـ كيف هي؟

ـ إنها فتاة تليق بابنك لا تفعل. إنها عصفور في قفص، ولكن أي عصفور، إنها أشبه بطائر البوم، لم يبق أسنان في فمها. إنها مناسبة جداً بلا تفعل. وحسب اعتقادي فقد ظلت من أجله.

١٠

لن أذكر اسمه

كثيراً ما يكون الإنسان مضطرباً عندما يجلس مع غرباء لا يعرفهم على مائدة واحدة. فقد تعرضت لمثل هذا الموقف الصعب عندما دعاني أحد الأصدقاء لتناول طعام العشاء في منزله. اجتمعنا في إحدى الليالي أكثر من عشرة أشخاص من ثلاث عائلات على مائدة العشاء، ولم يكن أحدنا يعرف الآخر مع أننا نسكن حياً واحداً وأبنية قريبة من بعضها. ولكننا جميعاً نعرف صاحب البيت، أما هو فلم يقم بواجب التعريف.

كان الشخص الجالس إلى يساري دائم الثرثرة، لم يهدأ لسانه طوال الوقت، فقلت في نفسي لعله ثرثار من الدرجة الأولى أو أن قلبه طيب ونواياه صافية، كي يفتح مجالاً للحديث والنقاش فيشترك الجميع ويتم التعارف... وعندما يشعر أن حديثه لا يجلب انتباه الآخرين كان يبدل الحديث فوراً وينتقل إلى موضوع آخر، إنه كالعصفور ينتقل من غصن إلى غصن وهو يغني.

تحدث في بادئ الأمر عن امرأة لا نعرفها خدعت زوجها بطريقة غير مباشرة، طبعاً إن موضوع خداع الزوجة للزوج موضوع غريب وجذاب، ولأني لا أعرف المرأة لم أشارك في الحديث. وعندما وجدَنا صاحبُنا غير آبهين بقصته، انتقل الثرثار من هذا الموضوع إلى موضوع المضيق. بدأ يتحدث عن كميات السمك الهائلة التي تعبره، وارتفاع أسعار السمك، ومن هي العصابات (المافيا) التي تقف وراء ارتفاع سعره. انتقل بعدها إلى موضوع

الشعراء القدامى، ومواضيع أخرى لا تغني ولا تسمن من جوع وصرخ فجأة:

- إنها الرّذالة بعينها!!!!

- سأله صاحب المنزل

- ماذا حصل؟

- آ. آ. آ، ألم تسمعوا بهذا الخبر: يقولون أنه اشترى سيارة لابنه، وهو شخصياً يملك سيارة، وزوجته أيضاً تملك سيارة، فهل من المعقول أن يقوم الإنسان بشراء سيارة خاصة لابنه وهو لا يزال طالباً في الثانوية. عائلة مؤلفة من أربعة أشخاص تملك ثلاث سيارات خاصة.

- سأله صاحب البيت

- من هو هذا الشخص الذي يملك كل هذه السيارات؟

- إنه يسكن قريباً منا، ولا ضرورة لذكر اسمه، أرجوكم لا تلحوا علي فلن أذكر اسمه. همست زوجتي في أذني

- ربما يتحدث عن عائلة السيد حقي.

قلت لزوجتي:

- ولكنهم لا يملكون ثلاث سيارات بل سيارتين.

- ربما اشتروا الثالثة حديثاً...

- قال الرجل الثرثار: لو لم تكن ابنته صغيرة لاشترى لها سيارة، إنها في العاشرة من عمرها.

قالت لي زوجتي:

- إذا لم يكونوا عائلة السيد حقي، فيجب أن تكون السيدة «لمياء».

- قال الرجل الثرثار:

لو اقتصر الأمر على شراء سيارة، لكان الأمر سهلاً. ولكنه اشترى

طابقاً في منطقة الحربية. ويقولون أيضاً، أنه يبني عمارة كبيرة في أنقرة من ستة طوابق، فأي صنف من البشر هؤلاء؟ فالموظفون أمثالهم لا يستطيعون دفع أجور منازلهم.

سأله أحد الضيوف:

ـ حتماً إن هذا الرجل يسكن جوارنا

ـ نعم

ـ آي... كم أحب أن أعرفه... من هو يا ترى؟

ـ لا، لا لن أذكر اسمه... وهكذا تحولت الأحاديث إلى القال والقيل؟

قالت لي زوجتي:

ـ إذا كان موظفاً فليس من عائلة «المياء» وربما من عائلة السيد صبري.

ـ هذا الإنسان لا يرحم أحداً فقيراً أم سواه... يرتشي من جميع الناس... لو أخذ من الأغنياء فقط فأمره مقبول نوعاً ما. أما أن يأخذ من الفقراء فتلك رذالة وحقارة.

قالت السيدة صاحبة البيت:

ـ أود معرفة هذا الرجل... ألن تخبرنا من هو يا روحي؟

ـ لا ضرورة لذكر اسمه... لون سيارته «بيج» ولون سيارة زوجته رمادي.

اقتربت الرؤوس من بعضها على المائدة، وشرعوا يتهامسون لعلهم يهتدون إلى هذا الشخص الذي يأخذ الرشوة.

ـ السيارة الجديدة التي اشتراها لابنه ماركة « شفرولية» لونها أصفر فاقع.

مرة أخرى بدأ الموجودون على المائدة يتهامسون...

ـ ماذا يضر لو ذكرت اسمه أيها السيد؟

ـ أرجو المعذرة، لا أستطيع البوح باسمه... هل تعرفون لماذا يبني عمارة

جديدة في أنقرة؟ أنا أجيبكم كي لا يعلم به أحد، ويظن أن الناس عميان لا يبصرون، وصمّ لا يسمعون، وبكم لا يتكلمون؟... لقد عمل كل هذا خلال ثلاث سنوات. قبل ذلك كان يستدين من جميع الناس، حتى أنه مدين لي... ولم يدفع دينه حتى الآن. إنه سافل واطي لدرجة كبيرة.

لقد سجل الطابق الذي اشتراه في الحربية الجديدة، والبناية الجديدة في أنقرة باسم زوجته حتى لا يشك به... ماذا قال ... إن زوجته ورثت عن أبيها بعض المال والعقارات. ولك عيني: هل من شخص لا يعرف زوجته؟ كانت تعمل في إحدى البارات وقد تزوجها من هناك، لقد كانت مومساً.

مرة ثالثة بدأ الحضور حول المائدة في الهمس بآذان بعضهم. اقتربت زوجتي وهمست في أذني وقالت لي:

ـ ها... لقد فهمت الآن... إنه يتحدث عن جماعة السيد سليم.

همست في أذنها:

ـ سليم هذا رجل وحيد هو وزوجته فقط، وليس لهما أولاد؟

ـ حاول الجميع حل اللغز ومعرفة شخصية ذلك الرجل؟

قالت إحدى السيدات:

ـ أكاد أنفجر أيها السيد... قل ما اسمه وخلصنا. تثرثر طوال الوقت وكأنك سلطان زمانك.

ـ لا... لا.. لن أذكر اسمه. أرجوكم لا تطلبوا مني ذلك... فالأمر لا يخصني... ألم أحدثكم قبل قليل عن الزوجة التي خدعت زوجها... فالرجل يكون زوجها.

بدأت الهمسات من جديد... وظن كل واحد منهم أنه أمسك بطرف خيط اللغز.

ـ من يصدق أن امرأة من هذا النوع ترث من والدتها أموالاً؟ فالكثيرون

يعرفون والدتها جيداً، كانت تعمل خادمة في المنازل، تغسل الملابس وتنظف الأدراج، حتى أنهم لا يذكرون ابنها بالخير... فإذا كانت قد اشترت له سيارة وهو في هذه السن... طبعاً سيكون ولداً لقيطاً... الولد أصفر البشرة وأمه سمراء، ووالده شديد السمرة.

همست زوجتي في أذني قائلة:

ـ هذه المرة عرفتهم إنهما خانداان وزوجها.

قال الرجل الثرثار:

ـ شعره أجعد وقد ناهز الخمسين، أما زوجته فهي في الأربعين من عمرها ولكنها تبدو ابنة ثلاثين قصيرة القامة وبدينة.

لم تتحمل إحداهن غلاظة الرجل أكثر مما تحملت وصرخت بأعلى صوتها:

ـ هاه..تمام إنه آيتان... والله آيتان... قالت ذلك فرحة بحل اللغز.

قال الرجل الثرثار:

ـ وتدهن شعرها باللون الأحمر دائماً:

صمتت المرأة التي تكلمت سابقاً بصوت عال وقالت بهدوء إذن ليست هي وعادت إلى التفكير من جديد.

ـ لوجه الله... قل من هو...

ـ لا ليس من طباعي الحديث عن الناس والتشهير بهم بهذا الشكل... لا يهمنا اسمه... جميعكم تعرفونه، يقولون أنه قريب للوزير السابق فلان... نعم... لقد اجتمعت في هذا الرجل جميع العادات والطباع السيئة... ويعتبر من الطبقات الاجتماعية الراقية. يهتم بلباسه كثيراً. يضع شالاً على رقبته صيفاً شتاء، وحذاؤه نظيف ولامع.

ألم تعرفوه حتى الآن؟

كان الجميع في لهفة لمعرفة الرجل، وفي كل مرة نسأله من هو كان يجيب:

ـ لا تلحوا على ذكر اسمه... أقسم أني لن أقوله لكم... أرجوكم... لا تضغطوا علي كثيراً.

ـ حسن: هل هو طويل القامة؟ أجبنا على ذلك.

ـ لا إنه قصير... جميع ألبسته مخططة ومقلمة.

يصرخ الحاضرون: لقد عرفناه... ولكنهم في النهاية يعلمون أنهم مخطئون، عندما يضع الرجل الثرثار أمامهم معلومات جديدة.

ـ يقولون أنه من أصحاب السوابق، ... ربما من النصب والاحتيال، أو التزوير. وأنه دخل السجن بجريمة خاصة بالأسباب التي ذكرتها... وقد أخلي سبيله بقانون العفو الصادر آنذاك. والخلاصة أنه رجل يحمل في داخله جميع أنواع الرذالة.

بدأ الغضب ينتاب الرجل الثرثار لأننا لم نستطع معرفة شخصية ذلك الرجل

يسكن الطابق الثالث في بناية مؤلفة من أربعة طوابق... تقع البناية في زاوية الشارع مقابل البقال. والبناية مغلفة بالموزاييك، بجانبها حديقة وفي وسطها بركة ماء

صرخ الحاضرون دفعة واحدة...

هاه إنه السيد شاكر وزوجته سلمى... قالوا ذلك... وصفقوا بأيديهم، وتنفسوا الصعداء

رد الرجل الثرثار عليهم قائلاً:

أنا لا دخل لي بالموضوع... فأنا لم أذكر اسمه... ولا ضرورة لذكر اسمه... أرجوكم لا تلحوا علي لذكر اسمه... فأنا لن أذكر اسمه.

١١
بعد أن أصيب بالسكري

التقيت بزميل الدراسة بعد فراق طويل، واتفقنا على الذهاب سوية لزيارة زميل دراسة آخر ينتظرنا في منزله، وكان جنرالاً متقاعداً، أما الأولان فكانا عقيدين متقاعدين.

أغلب ظني أننا سنجد الجنرال المتقاعد كما عرفناه في طفولته، شقياً يحب المزاح. فلم نلتق به منذ سنوات الطفولة، ولا نعرف كيف سيحدثنا، ويشرح لنا بعض المواقف المضحكة.

أصدقاء الطفولة يظلون صغاراً في عيون بعضهم، لا يكبرون، ولا يشيخون... عندما التقينا بالجنرال، حاولنا إضفاء جو من الفرح على لقائنا فبادرته بالتحية والسؤال وقلت:

كم أصبحت كبيراً يا سيدي.. لكنه ظل عابساً، ولم يتقبل المزاح... وهذا ما بدا لي من تقاسيم وجهه.

سلمنا على بعضنا وتعانقنا، لكن عناق الجنرال وأخذي بالأحضان كان عبارة عن حركات جمبازية فقط، ومهما حاول أن يبدو فرحاً، وضاحكاً، كان التكلف واضحاً، والظاهر أنه نسي الضحك منذ زمن طويل جداً. قال:

- أرجو المعذرة... هذا المنزل ليس منزلاً إنه عصفورية.

لم نفهم القصد من كلامه، نظرنا في عيني بعضنا وقد أخذتنا الدهشة.. مع أن غرفة الاستقبال كانت جميلة جداً ومرتبة وأنيقة.

ـ من المؤكد أنكم تسمعون هذه الضجة.

لم نكن نسمع ضجة ولا غيرها. ومع ذلك كان المنزل هادئاً.

ـ قال صديقي ليهدئ من روع الجنرال.

ـ لا أهمية لذلك... إنه منزل في جميع الأحوال والضجيج قائم في جميع المنازل. ما رأيك لو تزورنا وتشاهد منازلنا

أجاب الجنرال:

ـ هذا غير ممكن، لا يوجد منزل شبيه بمنزلي.

ثمة كدمة ظاهرة على عينه اليمنى.

ـ إنهم يتصرفون هكذا بكل عناد... لن أرفع صوتي... ليفعلوا ما يحلو لهم... لنر ماذا سيحصل؟

حاولنا تلطيف الأجواء بالانتقال إلى موضوع جذاب وممتع... ولكن عبثاً... قال الجنرال:

ـ بعد أن أصبت بالسكري، صارت «الحمرنة» حرة في منزلنا

ـ هل معك سكر؟

ـ نعم

ـ قلت: ... طبعاً... فشخص مثلك يكون سكرة.

قلت هذه العبارة مازحاً، لعلي أضفي جواً من المرح وسط هذا الجو البارد.

لكن ضحكتي خرجت يتيمة... لم يشاركني بها أحد... عندها جمدت الابتسامة في وجهي ولزمت الصمت... عندما يضحك الإنسان لشيء ما فعلى الآخرين أن يضحكوا أيضاً... وعندما يرى العكس، فإنه يشعر بخجل شديد.

قال الجنرال:

ـ منذ إصابتي بالسكري رحل الجمال والحسن عن هذا المنزل، وفقد حلاوته. ولم يعد هناك شيء اسمه نظام... منذ عام وأنا على هذه الحال. كانت الأمور طبيعية ونظامية لغاية إصابتي بالسكري.. لم يكن باستطاعة أحد رفع صوته في هذا المنزل. أما الآن فلم يبق عندهم احترام أو تربية..جميعهم ينتظرون تأكيد إصابتي بالسكري

ـ قال أحد زملائه:

ـ وما علاقة هذا الأمر بالسكر؟

ـ ألا تعلمون أن له علاقة؟ طبعاً لأنكم لم تصابوا مثلي، ولم يظهر معكم السكر.

منذ العام الماضي وأحوالي تسوء.. شعرت بضيق شديد وكسل وترهل، وهمدت عزيمتي فلم أعد أستطيع رفع إصبع من أصابعي. وزادت ساعات نومي... ليتني بقيت نائماً أبداً.

ألحت علي الهانم زوجتي بالذهاب إلى الطبيب... هل يذهب الإنسان إلى الطبيب إذا لم يكن يتألم... شهوتي للطعام جيدة... أتناول طعاماً يكفي أربعة أشخاص... وأنام ملء جفوني عشر ساعات... فماذا أبغي غير ذلك. والمرأة تثرثر... تثرثر... الطبيب... الطبيب

ذهبنا إلى الطبيب وأجرينا فحصاً للدم والبول قالوا السكر عندك مرتفع جداً. يقال إن أعصاب مرضى السكر تبقى متوترة دائماً. أخبرتني أن الطبيب نصحها بعدم تعصيبي، لأن خطر المرض كامن في العصبية. فعندما تتوتر أعصاب المريض بالسكر يصبح كالبارود الجاهز للانفجار لمجرد شرارة صغيرة.

عندما سمعت زوجتي كلام الطبيب، هل تبقى ساكنة بعد الآن؟ بدأت تقول لهذا وذاك وكل من تصادفه: آه. آه كنا نظن أن الرجل

مجنون، ولكن المسكين مصاب بمرض السكري... إنهم لا يتحدثون أمامي، بل يتحدثون للآخرين وهؤلاء ينقلون الحديث إلي مباشرة. هل فهمتم أيها الزملاء؟

زوجتي التي أعاشرها منذ سنوات طويلة تنتقم مني... بيتنا فرداً فرداً زوجات أولادي وأزواج بناتي حتى أحفادي، لا أستطيع أن أنطق بكلمة أمامهم. إذا طلبت من أحدهم شيئاً يقفز الثاني ويقول «شيشت».. لماذا تحدثه؟ تعرفه مريض بالسكر لا تجعله يعصب. الله... الله.. الآن أصبحتم تستطيعون الكلام ولك روحي. في السابق كان الجميع يستيقظون من النوم الساعة السابعة صباحاً. أما الآن فيظل الشخير والنخير حتى الحادية عشرة. وعندما أصرخ فيهم وأقول الإنسان لا ينام حتى هذه الساعة. عندها يتبادلون النظرات ويتهامسون: لا تهتموا فالمسكين معه سكر.

لقد رحل النظام عن البيت: مثلاً! إذا زارنا ضيوف وجلسنا معهم حول المائدة وصدر من أحدهم تصرف غير لائق، أو قلة تربية، سرعان ما أقطب حاجبي إشارة لهم بقلة التربية والكف عن هذا التصرف. فما يكون منهم إلا أن يقتربوا من آذان الضيوف ويهمسون لهم: المسكين معه سكر.

حتى الجنون أراه قليلاً أيها الزملاء... اسمعوا الآن هذه الضجة؟ لو صعدت إليهم وقلت «ولك هل أنتم في حمام النساء أو في حظيرة حيوانات؟» لو قلت لهم ذلك فإنهم يتهامسون فيما بينهم «لا تصغوا لكلامه إنه السكر...السكر». حتى الجنون بات قليلاً عليّ. هل تعلمون: أن التربية فقدت عند الناس: المارة، السائقون، المسافرون.. تصوروا إذا قلت للسائق لست بعجلة.. أتريد إيصال القمامة للمزبلة؟ أرجوك أن تتمهل في قيادة السيارة.. عندها تنحني زوجتي نحو السائق وتقول له: لا تؤاخذه يا بني... معه سكر.

قبل أيام جلست مع ولدي في البيت على صوفا لها نوابض، وإذا بأحد

الحيوانات يقذف بنفسه على الصوفا بقوة فقذفنا في الهواء من ردة الفعل، لم أعلق على هذا التصرف، وقلت اصمت يا رجل؟ فالسكوت أفضل بعد قليل حضرت عجوز ورمت بنفسها على الصوفا بقوة فقُذِفنا في الهواء ثانية. لم أستطع تحمل هذه التصرفات فقلت: أيتها السيدة... أيتها السيدة، لا يلقي الإنسان بنفسه على الصوفا كأنه يلقي بنفسه في البحر. هناك أصول وآداب في الجلوس يجب اتباعها. تحرك ولدي مباشرة وقال للسيدة: المعذرة يا سيدتي... عنده سكر... أرجو أن تعذريه!

منعت الهمس في البيت.. هذه المرة صاروا يتكلمون مع بعضهم بصوت خافت وهم يشيرون إلي سكر سكر. عندها أصدرت تعميماً في البيت وفرضت عقوبات على كل من يقول سكر، ومنعت النطق بكلمة سكر، ومع هذا لم أستطع السيطرة على الوضع أيها الزملاء. في هذه المرة بدأوا يسيرون خلفي رافعين أصابعهم وكأنهم يقولون هذا ترلّلي..مجنون.

بعد أن أصبت بالسكر، لم يعد أحد يتكلم معي بالجدية السابقة، في النهاية لم أعد أحتمل العلاج بالريجيم وتخلصت من السكر. ذهبت إلى الطبيب وقمت بتحليل للسكر فكان طبيعياً هذا جيد، ولكن من يستطيع إدخال هذا إلى عقول أهل البيت؟ فما زالوا يشيرون بأصابعهم لبعضهم ويقولون «سكر..سكر»

انتفض الجنرال فجأة ووقف على قدميه وصرخ بصوت عال عدة مرات «ولك أنا لست مريضاً بالسكر..لست مريضاً بالسكر لست مريضاً...ولك»!

قلت له:

ـ إذا كان الأمر هكذا، فعليك مغادرة المنزل، والقيام بنزهات وزيارات.. وشاهدت جفن عينه اليمنى يرتجف.

ـ ولك عيني، هل تظن الخارج أفضل من الداخل، إنهم يصرخون،

وأبواق السيارات لا تنقطع، وأصوات المذياع تملأ الحي، لقد وصل الانحلال الخلقي إلى الهاوية، لن أخرج من المنزل ولكني وجدت من الأسهل علي أن أعلن في المنزل أن «الحمرنة» حرة في هذا المنزل. بما أنهم يقولون عني سكر.. سكر فلن أتدخل بهم ولن أسمع كلامهم، وليفعلوا ما يحلو لهم، لن أرفع صوتي، أعلنت «الحمرنة الحرة» أوه... هم مرتاحون، وأنا مرتاح الآن.

نهض على قدميه مرة أخرى، وزاد ارتجاف أجفانه وصرخ بقوة:

الحمرنة حرة، الحمرنة حرة.

هل يحق لنا الضحك لنخفف ثقل الجو قليلاً، وهل سيغضب إذا ضحكنا؟

قال الجنرال:

ـ انظروا لم يبق لي سلطة في هذا البيت. إنهم يتصارعون في الداخل، ... اسمعوا هذه الضجة، فالمنزل يعج بالبشر لا خادم ولا احد منهم يصمت ويقول: عندنا ضيوف يجب أن نقدم لهم القهوة. لو دخلت عليهم الآن وقلت لهم: هل جئتم من بين الحيوانات؟ ألا تقدمون القهوة للضيوف. حتماً سيشيرون بأصابعهم نحوي على أنني مجنون، ويتهامسون «سكر... سكر» أما أنا فسيقفز الدم إلى رأسي. أليس السكوت أفضل اصمت ولكن لهذه الدرجة؟

قال أحد الزملاء:

ـ لا تغضب نحن لسنا غرباء.

ـ لا سأذهب وأقول لهم شيئاً قبل أن يثار غضبي. خرج إلى باب الصالون وصرخ بأعلى صوته: من هناك عندما لم يجبه أحد، صرخ ثانية وبقوة أكثر:

ـ ليأت أحدكم إلى هنا.

عندما لم يأت أحد ذهب وهو يتمتم... وعندما عاد بعد فترة

ـ لا يوجد أحد في البيت... حتى الخادم غير موجود، والآن أصبحت العادة إذا لم أخرج أنا من البيت فهم يخرجون.

لم يكن للجنرال ميل للهدوء والراحة. تعانقنا وقبلنا بعضنا وغادرنا المنزل. وبينما كنا سائرين سأل أحدنا الآخر

ـ هل معك سكر؟

ـ قلت معي ولكن ليس بمقدار سكر الجنرال

ـ قال سأذهب وأعاين نفسي... وإذا ما ظهر معي سكر... فلن أبوح به لأحد.

١٢
هل تتكلم الفرنسية؟

وضعت الرواية التي ترجمتها عن الفرنسية لدى بائع الكتب وقبضت ثمنها. أسرعت نحو «بيازيد»...

رأيت امرأة تسير أمامي، وهي تتهادى بمشيتها. نساء كثيرات يسرن أمامي دون الاكتراث بهن، لكن هذه المرأة كانت من نوع خاص. من يراهن على قولي، فأنا أدفع كل ما في جيبي إذا لم تكن هذه المرأة فرنسية. تفوح منها رائحة عطر باريس. خصل شعرها الأشقر، عقدها الأبيض الناعم الذي يتدلى على رقبتها، غطاء رأسها السماوي تتطاير أطرافه في الهواء وكأنها تنادي المارة.

ألم أقل أنها فرنسية؟ كيف عرفت يا ترى؟... اتجهتْ نحو شرطي المرور، وسمعتها تسأله:

- المعذرة يا سيدي، هل تتكلم الفرنسية؟

- احتار الشرطي في أمره: نعم يا سيدتي... ماذا تقولين؟

- هل تتكلم الفرنسية؟

أراد الشرطي أن يقول شيئاً... أويفعل شيئاً... وبما أنه لم يفهم كلامها، أراد أن يفهمها بحركات من يده ورأسه وجسمه. حاول المستحيل لمساعدة هذه الشابة الفرنسية.

- توه... انظر إلى هؤلاء الزبائن؟ كنا نقول سُواح... سُواح، وهاهم السواح إلى جانبنا، لا نفهم على ألسنتهم ولا نعرف لغاتهم. لكن

حركات الشرطي وتصرفاته، عرفت أنه شديد الاهتمام بالسياحة.

أصيب الشرطي بالحيرة، نادى المارة بأعلى صوته:

ـ أيها المواطنون: أما من أحد بينكم يتكلم الفرنسية؟

لم يأبه المارة لكلامه وظلوا متابعين سيرهم... لكن أحد الشيوخ قال:

ـ والله لو أعرف.. لساعدتها، ماذا يحصل يعني.. ولكن للأسف لا أعرف الفرنسية، وأضاف:

عندما كنا أطفالاً تعلمنا بعض المفردات: أعطني قبلة Donne moi une beseé

كان شرطي المرور مصراً على مساعدة المرأة الفرنسية، فأشار إليها بيده... تعالي... وذهبا معاً إلى رصيف المشاة. في هذا الوقت مرَّ من أمامهما ثلاثة طلاب تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة عشرة... أخذ الشرطي أحدهم من ساعده وسأله:

ـ ولك ابني (Parlez vous Francais) هل تتكلم الفرنسية؟

أجاب الولد:

ـ (No): لا يا عماه.

أما الثالث فأجاب: (Oui) نعم، لكن لا أستطيع التحدث بها.

وبما أن المرأة الفرنسية بدأت تتحدث إليهم، لكن جهودها ذهبت سدى. عندها تحلقت جموع كثيرة من الناس حول الشرطي والمرأة. وضاع كلامها وسط اللغط والهرج والمرج ومفردات اللغة التركية.

ـ قالت إلى أين أنت ذاهب Ou allez vous.

أجاب أحدهم وسط الزحمة:

ـ لو كانت تعرف الإنكليزية... لكان الأمر سهلاً.. فأنا أتحدث الإنكليزية بطلاقة.

قال أحدهم:

- الجميع هنا يعرفون الإنكليزية.

ارتفع عدد المتحدثين من وسط الزحمة

- ولك عمي... يبدو أن المرأة متضايقة... ربما تسأل عن المرحاض.

- حرام هذه المسكينة... يجب أن نساعدها.

سأل أحد الشباب بلغته التركية بما يشبه الفرنسية، وكأن المرأة ستفهم كلامه.

- مدام... باردون... يعني أنت تبحثين عن مرحاض هنا..؟

أجاب أحدهم:

- لا تقل مرحاض... من العيب أن تقول لامرأة غريبة مرحاض...

- تواليت... مدام... تواليت... أنتِ تريدين تواليت...

التفت الشرطي مرة أخرى إلى الطلاب وقال لهم:

- توه... يا عيب الشوم عليكم... بلد متقدم كثيراً مثل بلدنا... وأنتم طلبة، ولم تقدروا الإجابة ولو بكلمة واحدة Parlez vous.

سأل أحد الطلاب المرأة مندهشاً:

.Parlez vous Francais

تحدثت المرأة مبتسمة:

- أنا أريد منك أن تدلني على المتحف Viy... Naturelman... Ue L .Muze d'arkoloji

فرح الشرطي كثيراً من المحادثة، وبدأ يشجع الطالب بقوة:

- هيا يا بني... أجبها... هيا تكلم بعض الشيء بالفرنسية Parlez .vous

- يا عمي أنا لا أعرف الكلام بالفرنسية، ولكنني أستطيع القراءة فقط.

حمل عليه زميله بقوة قائلاً:

ـ أين مقدرتك، كنت تنال تسعة من عشرة باللغة الفرنسية، هيا تكلم الآن وأرنا شطارتك.

ـ لو تسألني عن القواعد، فأنا أعرف، ولكن انظر إليها تقول: هل تتكلم Parlez vous.

ندمت المرأة كثيراً على سؤالها. لكنها سألت ولم تستطع التخلص من هذه الجموع الكبيرة من البشر الذين تجمعوا لمساعدتها.

توجه الشرطي نحو الجموع المزدحمة ورجاهم:

ـ ولك عيني، ألا يوجد واحد بينكم يعرف بالفرنسية Parlez vous.

ارتفع صوت بين الحضور:

ـ (Oui) نعم، ولكن Komsa ...komsi (مثل هذا ـ مثل هذه).

انتقده أحدهم قائلاً:

ـ يجب أن لا تقول لها Komsa ...komsi (مثل هذا ـ مثل هذه).

ـ واي يا أفندم... ماذا يجب أن نقول لها.

ـ يجب أن تقول لها Po... On.

ـ ها إذا كنت تعرف الفرنسية بهذا الشكل... تعال وتحدث معها.

ـ لا قدرة لديَّ على المحادثة... لكن أعطوني كتاباً لأترجمه لكم.

ـ السيد على حق... أنتم على حق يا سيدي... لأنه الترجمة يا سيدي شيء و«بارلي فو» شيء آخر.

بدأ أحد الطلبة الواقفين يشجع زميله على المحادثة:

ـ والله لو أردت محادثتها لاستطعت بكل سهولة... تكلم ولك أخي.

ـ أرجوك لا تقل ولَك أمام المرأة... لربما فهمت الكلمة فذلك عيب.

ـ وكيف ستفهم المرأة الفرنسية ولَكْ يا ولَكْ.

ـ ولك ابني... إن كلمة ولك في جميع اللغات هي ولك. ولا يوجد كلمة ولك خاصة بالفرنسية.

بدأ الشرطي يتهجم على الطلبة، لأنه يريد مساعدة السائحة:

ـ ألا يوجد بين هذه الجموع الغفيرة طالب واحد يستطيع الإجابة على كلمة «بارلي فو».

أجاب الطالب الذي يأخذ تسعة من عشرة بالفرنسية، وكان شديد الخجل:

ـ لتسألني عن الأفعال المساعدة واسمع كيف أشربها شرباً.

قالت السائحة الفرنسية التي أصيبت بالحرج الشديد، وهي تلفظ الكلمات حرفاً حرفاً:

ـ من فضلك سيدي المواطن... أريد الذهاب إلى المتحف Je mereall o muse.

سأل الشرطي الطالب الشاطر:

ـ ماذا تقول السائحة؟

ـ تقول: توب كابي.

قال رجل عجوز:

ـ هل جاءت المرأة الفرنسية إلى توب كابي؟

ـ أليست سائحة أيها السيد. هل تستطيع الذهاب إلى توب كابي وآهير كابي (حظيرة).

ـ ما تقوله صحيح، لكن ماذا ستفعل هناك. حاولت أن أعرف؟

التفت الشرطي نحو الجمهور قائلاً:

ـ ألا يوجد بينكم من يعرف كلمتين بالفرنسية ياهو؟

أجاب عجوز يستند على عكازه:

ـ بقيت كلمتان أو ثلاث في ذاكرتي، ولكن لا أستطيع قولهما للمرأة.

قال الشرطي:

ـ تكلم ما تعرفه... تكلم فقط يا أخي.

ـ سمعت هذه الكلمات قبل ثلاثين سنة ونيِّف في مسرحية «شاه زاد باشا» وبقيت معلقة في ذاكرتي منذ ذلك الوقت. (جي فو زيم دو تو مون كور) (أحبك من كل قلبي)

قالت السائحة الفرنسية وهي تضحك: جي فو ري ميرسي موسيو. (أشكرك سيدي)

لم يعرف أحد سبب ضحكها، لكن الجميع ضحكوا بقوة.

ولم يبق سوى الطالب كأمل أخير للشرطي.

ـ هيا يا بني: لماذا تخجل، ما من سبب يدعوك لهذا.

أجاب رجل في الخمسين من عمره:

ـ طلبة اليوم لا يعرفون شيئاً... الله... الله عندما كنت في المدرسة المتوسطة، كنت أترجم إلى «بيير لوتي» وليس مثل هذا «بارلي فو»... كنا نتحدث كالبلابل يا سيدي.

ـ والله كلامك صحيح... فأنا أتذكر أنك صححت أخطاء مدرس اللغة الفرنسية، فغضب المدرس ورسبتَ في صفك.

ظهر بين الحاضرين شاب نفخ وجنتيه، ووضع قبضتي يديه أمام فمه ونفخ فيهما وأصدر صوتاً ناعماً. ضحك الجميع من الشاب، لكنه لم يأبه لضحكهم فقال بجدية:

ـ الإنسان في هذا الزمان لا يتذكر الفرنسية ولا غيرها. فأنا لا أعرف ماذا أكلت هذا الصباح.

ـ طبعاً المرأة مذنبة أيضاً.

ـ وما ذنبها؟

ـ ولك مرا (امرأة)، تأتي إلى بلد غريب... ولا تحفظ بعض الكلمات؟

ـ هذا صحيح جداً. لو كنا سواحاً في بلاد أجنبية، لشرحنا ما نريده بإشارات من أيدينا وأعيننا... أما هؤلاء الغرباء فإنهم لا يفهمون مطلقاً.

ـ ولك عمي... والله شيء غريب.

ـ على الأقل يجب أن نحسن ضيافتها، ونقدم لها فنجاناً من القهوة.

ـ القهوة لا تكفي، يجب أن نقدم لها طعاماً. لكن كيف سنطلب منها ذلك؟

قال الطالب:

ـ الطعام يعني Mange بالفرنسية.

انبرت سيدة من بين الحضور وقالت:

ـ الجميع هنا يا بني يعرفون (المانجـ أي الطعام).. والكلمة أتت من «صالون، صالمنجا».

بينما كانت السيدة الفرنسية تحاول فتح طريق لها بين الجماهير. وإذا بالشرطي يبحث عن أحدهم يعرف بالفرنسية.

صرخ طالب من وسط الجموع:

- (Oui) نعم.

قال زميله:

ـ النطق بكلمة (Oui) نعم سهلة جداً، ولكن تفضل وتحدث مع السائحة لنرى ماذا يحل بك.

بدأ الطلاب يتهامسون مع بعضهم

- آفوار، فيمنان، انديكاتيف، بريزانت Avoir, feminin, indicatif, present (فعل، مؤنث، الحاضر) كيف كان ذلك؟

- عندي، عندك، عندكِ، عندنا، عندكم، عندهم (جافي، تي آفي، ايل آفي، نو آفون، فو آفي..) هذه النهاية أليس كذلك.

- ما قلته ليس باشي سمبل (الماضي البسيط Pass Simple)

- أولاً: هل هذا «البارلي فو فيي» (parle vous fille) هو نيكاتيف (سلبي) ريغولييه (مساعد).

كان الشرطي يقبض على يد المرأة، ولا يدعها تتحرك أبداً.

- مدام... باردون.. أون مينوت (دقيقة واحدة)، سيتحدث إليك أطفال المستقبل الآن. والتفت نحو الطلاب قائلاً:

- هيا ولك ابني... اضغطوا عقولكم قليلاً.

قال أحد الطلبة:

- قبل كل شيء ستأتي جوسوي أولاً (أنا أكون Je suis).

- ستأتي جوسوي ولكن ماذا بعدها.

- بعد ذلك سوجي... وبعد ذلك فيرب (الفعل Verbe).

تكلمت السائحة ثانية وقالت شيئاً ما لم يفهمه أحد.

- جي فو رومرسي، مسيو- لي جان، جو فيان دو سان ليد، سي فو فوليه، لوسون ديسكيزيون.

Je vous remerci, monsieurs les gens, je viens sans L'aide, si vous voulez le son discusion

أشكركم يا أعزائي، فقد أتيت بدون مساعدة، لا داعي لجدالكم.

أجابها أحد الطلبة:

- (Oui) مدام. جو سوي بارلي فرانسي oui madame je suis parle´

francais (نعم سيدتي أنا أتكلم الفرنسية).

عندها صدر تصفيق حاد من الحاضرين. فقد ظن الجميع أن الولد والمرأة تحدثا، وهو كل ما يطلبونه. وغادرت المرأة وسط المحتشدين.

أعرف الآن ما يدور في أفكاركم... وماذا تريدون أن تسألوه.

ـ بما أنك تترجم الروايات عن اللغة الفرنسية... لماذا لم تتحدث معها هناك؟

أنا لا أعرف الفرنسية... إذن كيف تترجم رواية عن الفرنسية؟

أقول: هناك روايات فرنسية كثيرة مترجمة إلى اللغة العثمانية، (التركية القديمة). فأنا أعيد كتابة هذه الروايات بالتركية الحديثة، ومن ثم أعطيها لدور النشر على أنها مترجمة عن الفرنسية. ولم يخطر بذهني أن يسألني أحد عن «بارلي فو فرانسي».

١٣
المرأة التي تنظم الشعر

في أحد الأيام ارتفع الضجيج والصراخ من منزل السيد «صابيح»، علماً أن هذا البيت يظل هادئاً أبداً، لا تصدر عنه مثل هذه الأصوات سابقاً. وما نعرفه هو أن الزوجين يعيشان بأمان وسلام... ودون مشاكل عائلية... خرج «صابيح» المسكين من باب منزله، وهو يرفع بنطال بيجامته نحو الأعلى، ومن ورائه حذاء نسائي أزرق اللون التفت صابيح يميناً ويساراً، ثم اتجه نحو باب منزلنا... ويبدو أنه كان مفتوحاً... فدخل منه. رأيت ذلك المشهد من النافذة، لكن والدي لم يكن يعلم بما حصل. ومع أننا جيران منذ عشر سنوات، لم أر صابيح يدخل منزلنا مرة واحدة، ولا يلقي السلام علينا عند لقائه، والحقيقة أن والدي لم يكن يحب هذا الرجل البارد مطلقاً.

عندما شاهد والدي صابيح بهذا المنظر وهو قابض على بنطال بيجامته، قدمه الأولى حافية، والثانية مكتسية، وقميصه الفانيلا المرقع بعدة ألوان، سأله:

ـ ما سبب زيارتكم يا سيدي؟

من الواضح أن صابيح هرب من زوجته، فدخل منزلنا لينقذ نفسه.

لم يكن سؤال والدي مناسباً، لكن السيد صابيح بدأ يتأتئ:

قلت له: تفضل يا سيد صابيح... ثم قدمت له كأساً من الماء البارد ليهدئ روعه. شرب الماء وشكرني، وتمدد على المقعد الخشبي وقال:

ـ كنت أعرف مسبقاً... أن طرفي ياقتي لن يلتقيا.

أجبته: اليوم موضة الياقة مفتوحة... جميع الناس لا تلتقي ياقاتهم.

- شخص مثلي لا يرجى منه شيء في قريته أو منطقته.

- طبعاً، لأنك معارض، لو انتسبت إلى حزب الاقتدار (الحزب الحاكم)، لأصبحت حاكم منطقة.

- أجاب: مالي والزواج، فأنا لا أملك مالاً ولا أطياناً... انقرض نسلي، وطباعي بقيت كما هي. لديَّ ميزة واحدة فقط، لا أعرف مدى صحتها، ومن السخرية أن أقولها. إنني أقرأ الشعر البديع، أحب الأدب... فما شأني بالأحزاب؟ ثم إنني أملك ثروة فنية من الشعر الشعبي والمعاصر، أقرأها بتأن وصوت موسيقي حالم.

- يجب أن تعطي حق نزار إلى نزار، وحق إسماعيل إلى إسماعيل يجب أن تنظم الشعر.

- أفندم؟

- يعني تنشده.

- المعذرة، الشعر ملكة فكرية... ترتيب كلمات... الحيوان مثلاً، وجد طريقة لجذب وخداع أنثاه. الديك يخدع الدجاجة بريشه اللامع المرتب وعرفه الأحمر الملتهب. والثور يجلب البقرة بقرونه، والإنسان يجذب أنثاه بماله وشهرته وعلمه... يا سيدي.

- يقولون البائع الأعمى زبائنه عميان (والحنطة المسوَّسة لها كيال أعمى)، أما أنا فوجدت امرأة ترتخي أعصابها عندما أقرأ لها الشعر. زوجتي... ما أجمل تلك الأيام... كانت تغفو حالمة عندما أقرأ على مسامعها بيتين من الشعر... يوم رأيتها لأول مرة... كان ذلك في الأول من ديسمبر، أسمعتها هذه القصيدة ونحن وحيدين:

نظرتك بعيني وقلبي

أحببتك يا جميلتي يا وجه القمر

اجعليني قربانك... فأنا عاشق ولهان

اغفري لي ذنبي لأني أحبك.

ما إن قرأت لها تلك الأبيات، حتى ارتمت على صدري وقالت: لا ذنب لك.

ماذا أقول لك يا سيدي... ظلت الفتاة التي هي زوجتي اليوم تعانقني وتقول لي أشياء كثيرة. فكرت وفكرت... امرأة ناعمة لن أجد أجمل منها، حتى إذا وجدت فلن تتزوجني...

لن أطيل الحديث عليك يا سيدي... تزوجنا... أمان كم هي امرأة طيبة... عندما أقرأ لها الشعر تبحر في دنيا الخيال والأحلام. تنسى الجوع والعطش... إنها امرأة رائعة تصلح لذوي الدخل المحدود... أبدأ بقراءة الشعر من المساء حتى الصباح... إنها لا تطلب شيئاً، يكفيها أن أكون إلى جانبها أقرأ لها الشعر... لقد أصابني الملل من قراءة الشعر، ولم يبق عندي ما أنشده لها.

عندما تقول: أشعر بالضجر، ما رأيك لو نستضيف أحد معارفنا، أو نخرج للنزهة، كنت أعطي القوة لنفسي وللشعر الذي سأقرأه أمامها:

يعجز اللسان يا حبيبتي عن وصف سعادتي

فالسعادة المزيفة لا تجلب السرور

منزلنا الضيق لا يتسع لمتاع كثير

تجيبني: كم هو صحيح وواقعي هذا الشعر، نعم إن منزلنا ضيق.. وإذا صادف وطلبت مني مرة واحدة خلال أربعين عاماً الذهاب بنزهة، فأنا لا أستطيع تحمل كلامها، وأصف لها النزهة بعدة أبيات:

أضفينا العشق على هوانا

وقادنا الحب إلى سمانا

ونسيم الصباح رفيقنا، فما أجمل لقانا
نذهب في الربيع بين الأزهار والياسمين
نمرح ونلهو ولا نذكر الأيام والسنين.

كذب لم نذهب إلى أي مكان، نذهب في الربيع بين الأزهار من مكان جلوسنا فقط... إنها امرأة من نوع خاص، إذا طلبت مني مساحيق التجميل، أنشدها بيتين من الشعر فترضى وتكف عن الطلب وفوق ذلك تشكرني.

أربعون عاماً لم تذق اللحم أوالفاكهة. طبعاً النفس تشتهي... وإذا ما طلبت شيئاً أقول لها: أمان يا ضناي... الأسعار مثل النار... أقول ذلك وأقدم لها باقة ورود «الشيخ غالب» وأنشدها:

الوردة نار... الوردة ألف نار... والضحكة نار
الأرض نار... الزمان نار... كل ما حولنا نار

من كثرة ما رددت نار.. نار.. كانت على وشك الصراخ «حريق... حريق...»

الثلج يتساقط خارجاً ونحن داخل المنزل نرتجف من البرد... أدفئ زوجتي بأبيات من الشعر:

الثلج يسقط من السماء حاملاً الدفء
غداً تسطع الشمس فيذوب الثلج من حرارتها.
تنظرين بعيداً، الدخان يتصاعد من المداخن
إنها النار التي تمنحنا الدفء والسعادة.

في إحدى الأمسيات: لم يكن لدينا ما نأكله... حاولت أن أعلمها ذلك... بدأت أنشدها بعض أبيات الشعر:

يقول أولادي نحن اليوم جياع يا أبي

كل يوم نصرخ ونبكي ونقول جياع يا أبي
غداً يا أولادي يأتي الأمل وتشبعون.

في أحد الأيام، باعت ألبستي لتبعد عنها أحد الشحاذين. في ذلك اليوم أيضاً طلبت مني جورباً مهترئاً فأجبتها:

لو كنت أملك مالاً ما بعته
ثيابي داكنة سوداء كقلبي
لبست ذات مرة قميصاً أبيض
لكن سواد الأيام لم يذكرني بالسعادة.

كانت حياتنا الزوجية تمر حلوة كالعسل، لو طلبت مني ثياباً كنت أنشد لها شعراً.

وعندما تقول: جارتنا اشترت فروة، عندها كنت أقطب حاجبي وأقول:

الثياب الجميلة يرتديها أصحاب الوجه الجميل
والحمار يبقى حماراً حتى لو ألبسته أجمل الثياب

وإذا حاولت النظر إلى وجهي نظرة شكوى أقول لها:

إياك أن تقولي شيئاً لا تنظري إلى وجهي إياك
ربما سمعوا صوتك وربما أحد رآك واشتهاك

كانت المسكينة تصمت... وعندما أقرأ لها الشعر تتقلص عيناها ويصفر وجهها، ماذا أقول لك يا سيدي إنها امرأة: مخصصة لذوي الدخل المحدود.. أقول ذلك... لقد أصابوها بالعين.. لم تعد تسأل عن الشعر... بدأت بالثرثرة، والتطاول على كلامي.

أقول لها اصمتي.. لا تصمت.. تذهب إلى النوم فتبدأ بالثرثرة والكلام مع نفسها أبدأ بقراءة الشعر:

ما أروع الناس الذين ينامون ويحلمون
لم تعد تنام أبداً
أيتها الليلة الحلوة المقمرةتأملي حبيبتي وهي نائمة
ومع ذلك لم تنم...

بدأنا بالقتال والسباب والشتائم كل ليلة، وكلما قرأت لها شعراً تضربني بكل ما يقع تحت يدها المكنسة، الحذاء، الطنجرة... أبدأ عندها بالشعر لعلها تهدأ بعض الشيء

سيدتي أنا راضٍ لضربك أرجوك لا تحزني
أنا راضٍ لشتمك وضربك لي فلا تتأوهي
أنا راضٍ عن كل ذلك ولكن ابقي ملكاً لي.

هذا الصباح كأن القيامة الكبرى قامت عندما بدأت بقراءة الشعر. خلصت نفسي بصعوبة، ألقيت بنفسي في الشارع يا سيدي... لا يا سيدي.. لا. وسط هذا الغلاء الفاحش، ما عدت أقرأ الشعر... أليس هذا صحيحاً؟

ـ قلتُ ذلك ولكن الشعر تعبير عما في القلب... لقد ولى عهده منذ زمن بعيد.

لقد حلت محله الخطب السياسية... قلت لألقي على السيدة خطاباً ربما تعود إلى رشدها.

ـ لم أستطع ذلك لأني لا أعرف فن الخطابة.

ـ في الجرائد خطابات كثيرة أقرأها..

شكرني، وغادر المنزل وهو يرفع بنطال بيجامته

واليوم صرنا نسمع خطابات قوية في بيت السيد صابيح، وتصفيقاً مدوياً وأصواتاً تقول: يعيش يعيش صابيح.

١٤
حكاية صينية

اتصل رئيس الشعبة السياسية بالشرطي «سوتيانغ» وطلب منه تنفيذ مهمة بالغة الأهمية، وأعلمه أنها من أشرف المهمات في الأمن السياسي إذا نجح فيها.

سأل سوتيانغ رئيسه وهو يرفع عينيه عن المنضدة خجلاً.

ـ هل ستمنحني مكافأة سيدي الرئيس؟

ـ طبعاً إذا نجحت في مهمتك... سأدفع لك ألفي ين. والآن افتح أذنيك وانتبه جيداً.

بدأ رئيس الشعبة السياسي يشرح للشرطي «سوتيانغ» عن مهمته دون توقف... لكن الشرطي كان شارد الذهن يفكر بمبلغ الألفي ين التي سيأخذها. سيعدها قطعة قطعة... إنه مبلغ كبير... لكن عندما يذهب إلى السوق فإن هذا المبلغ لا يساوي شيئاً.

من المؤكد أن «سوتيانغ» سينجح في مهمته، ولكن المبلغ قليل جداً.

سأله الرئيس:

ـ هل حضرت الدورة التي أقامها البوليس السري الأمريكي «جاك توفيل»؟

أجاب سوتيانغ وفكره مشغول بالمال ماذا تقول سيدي؟..

تحدث الرئيس ثانية وقال:

ـ هل تقول الخبير الأمريكي.

ـ ها.. نعم... نعم... لقد حصلت على أعلى علامة في الدورة.

ـ أنا واثق منك. انتبه جيداً يا سوتيانغ، ستبدل هيئتك لتصبح متسولاً. ومن ثم تقف بجوار زاوية البناية السماوية في حي «بوكونغ» من الصباح حتى المساء، هل فهمت مهمتك؟

ـ فهمتها يا سيدي، ليس من الصعب أن أتحول إلى متسول حقيقي.

ـ عليك التعرف على جميع الداخلين إلى هذه البناية والخارجين منها، وسأنتظر منك تقريراً عند المساء.

ـ حاضر سيدي الرئيس.

جهد سوتيانغ في تغيير شكله كلياً، حتى أن كل من يراه واقفاً على قارعة الطريق يظنه متسولاً. ولو فتشوا الصين كلها فلن يجدوا متسولاً مثله.

في اليوم الذي بدأ فيه سوتيانغ عمله متسولاً، مرَّ رئيسه من أمامه ووضع في يده قطعة معدنية من فئة خمس بارات وقال له هامساً:

ـ أهنئك يا سوتيانغ، لو لم أكلفك بهذه المهمة، لما عرفتك، وكنت سأقول هذا متسول حقيقي.

لم يكن لدى سوتيانغ الوقت الكافي لمراقبة البناية التي كلف بها، لكثرة ما وضعوا في يديه من نقود. ما أكثر فاعلي الخير الذين يفكرون بالفقراء والمساكين، وخاصة في هذا البلد الفقير.

انزوى سوتيانغ في زاوية البناء، ونشر أمامه منديلاً على الأرض، وبعد فترة قصيرة امتلأ المنديل بالدراهم.

احتار سوتيانغ في أمره. فالراتب الذي يأخذه من وظيفته كشرطي يعمل ليلاً نهاراً دون توقف يجمعه في ثلاثة أيام من التسول.

مع بداية الأسبوع الثاني من المراقبة، سمع صوت صافرة قريباً منه.

ـ حتى هذا اليوم لم تقدم تقريراً واحداً يا سوتيانغ.

رفع المتسول ونظر إلى معلمه وهو يرتجف خوفاً:

ـ رضا الله عليك... أرجوك... سأقدم التقرير مساء الغد... أيها السادة الرحماء اعطفوا على هؤلاء المساكين... سأقدم التقرير يا معلمي... صدقة للفقراء والمحتاجين.

أجابه رئيسه على هذه المحادثة المشفرة التي لا يفهمها المحسنون الذين يضعون النقود في المنديل.

ـ إنني بانتظار تقريرك.

ظل سوتيانغ يعمل متسولاً شهراً كاملاً، ولم يخطر بذهنه أنه سيجمع هذا القدر الكبير من المال وهو في الوظيفة، وخاصة أن هذا العمل سهل وحر، يستطيع ممارسته وتركه في أي وقت يريد.

اتخذ سوتيانغ قراره وذهب إلى رئيسه..

سأله الرئيس

ـ رغم كل هذا التأخير أتمنى أن تكون النهاية مفيدة وخيّرة.

أجابه سوتيانغ:

ـ نعم تفضلوا هذا هو تقريري.

عندما قرأ رئيسه الورقة امتقع لون وجهه، لأنه قرأ كتاب استقالة سوتيانغ من عمله الرسمي.

قال الرئيس:

ـ هل جُننت؟ لم يبق لك حتى تحال على المعاش سوى مدة قصيرة، فكيف تلبط كل هذه السنين الطويلة التي قضيتها في الخدمة.

ـ قال سوتيانغ: سألبطها.

ـ أنت إنسان مجرب، وخبير في الحياة.

ـ ليكن، سألبط كل سنوات الخدمة وإلى الجحيم.

ربت الرئيس على كتف سوتيانغ، ونظر إليه نظرة بوليسية حادة وكأنه يقرأ أفكاره وقال:

ـ سوتيانغ لا تستطيع أن تضحك عليَّ... هناك شيء ما!

نظر سوتيانغ بريبة إلى رئيسه، وأخرج ورقة من جيبه، جمع فيها حصيلة أيام التسول وقال:

ـ جمعت كل هذه الأموال بسببك، ولهذا أصرح لك عن دواعي استقالتي، ولم أقلها لغيرك. وأتمنى أن لا تقولها لأحد.

نظر الرئيس إلى سوتيانغ وقال:

ـ آمان يا سوتيانغ، أرجو أن لا تقول لأحد، وليبق سراً بيننا، لأنني سأبدأ العمل في زاوية مناسبة اعتباراً من يوم غد.

١٥

حتى تتخلص البشرية

ـ قال الموظف: لقد انتشلنا هذه المرأة التي حاولت الانتحار من البحر، وأحضرناها إلى هنا.

سألهم المفتش:

ـ هل أُرسلت إلى مديرية الصحة للمعاينة.

ـ نعم... وكتبوا على التقرير... لا ضرورة لمداواتها.

ـ أحضِروا المرأة إلى هنا.

كانت المياه لا تزال تتساقط من ثيابها عندما أحضروها للمفتش... كما أن عشبة بحرية علقت بخصال شعرها.

ـ ما اسمك؟

ـ بديعة.

ـ عمرك؟

أجابت المرأة بعد تفكير:

ـ دخلت التاسعة والعشرين.

ـ هل أنت متزوجة؟

ـ يعني.

ـ أيتها السيدودة... هل أنت عذراء، أم متزوجة، أم أرملة؟

ـ اكتب... متزوجة.

ـ ما سبب انتحارك؟

ـ وهل للانتحار سبب؟... أردت الموت... فألقيت بنفسي إلى البحر... وأظن أن لا أحد مسؤولاً عني.

ـ لماذا أردت الموت؟

ـ آ.آ... ماذا تقول؟ أنا حرَّة التصرف... إن أردت أموت، وإن أردت أعيش.

بدأ المفتش يوجه إليها الأسئلة، فقد عرف من خلال تجاربه وحنكته وخبرته الطويلة في هذه الأمور، أن المرأة تكذب عليه.

ـ ربما طلبت من زوجك شيئاً، ولم ينفذ طلبك... لهذا ألقيتِ بنفسكِ إلى البحر.

ـ وما المناسبة؟

ـ هل من سبب آخر وراء هذا الانتحار؟

ـ آ.آ... وما هو هذا السبب يعني؟

ـ مثلاً... إنسان غريب... أحدهم...

ـ لا. لا...

ـ فهمت... لم يسمح لك زوجك بالذهاب إلى مكان تودين زيارته... قلت في نفسك... هل هذه حياة... وألقيت بنفسك إلى البحر.

ـ قلت لكم... لا

ـ هل دخلت الغيرة إلى قلبك من زوجك فقررت الانتحار؟

ـ والله... أكاد أنفجر..

ـ هل زوجك مسن وأنت ما زلت شابة

ـ زوجي شاب ما شاء الله.

ـ حتماً دخله محدود؟ هل هو موظف أم لا؟

ـ إنه متعهد.

غضب المفتش:

ـ ولك يا سيدة... أنا أعمل مفتشاً منذ أربع وعشرين سنة... صادفت أكثر من ألف واقعة انتحار... المرأة التي تريد قتل نفسها معروفة الأسباب... إما أن زوجها لم يصحبها إلى السينما... أو قال لها: لا تتبرجي لهذه الدرجة... أو لم يشتر لها جورباً... فروة... إلى ما هنالك من طلبات لا تحصى.

قالت المرأة:

ـ أنا لم أرَ مفتشاً مثلك متشوقاً للقيل والقال... سأقول لك السبب لترتاح وتطمئن.

عندما عاد زوجي مساءً من عمله.. طلبت منه «فستاناً» موسمياً... أجاب لك ما تريدين. قلت: أريده الآن هيا لنذهب إلى الخياط... قال كما ترغبين. عندما خرجنا من محل الخياط قلت لزوجي أريد «كندرة» فاشترى لي واحدة. قلت: لنتناول طعام العشاء خارجاً: قال فليكن.. قلت: خذني إلى السينما.. استجاب لرغبتي.. عندما خرجنا من السينما.. قلت: أني متضايقة جداً لنخرج بالسيارة إلى البوغاز... فأذعن لطلبي. وصباح هذا اليوم عندما كان يهم بالخروج من البيت: قلت له: لا تذهب إلى العمل هذا اليوم.

أنا متضايقة جداً أكاد أختنق. قال: أنا بأمركِ يا سكرتي. قلت: هيا اشتر لي قرطاً. اشترينا قرطاً بثلاثة آلاف ليرة. قلت: هذا لا يعجبني، أعطاني ألفي ليرة أخرى. كل ما أطلبه منه كان يحضره لي وهو مسرور جداً. مرة يقول أنا بخدمتك يا سكرتي.. تأمرين يا حلوتي... أنا طوع

إرادتك يا حياتي؟ فهل هذه الحياة التي أعيشها تسميها حياة؟ إنها حياة خالية من كل المعاني، إنها حياة جافة مقيتة.

في هذه الأثناء حضر الزوج بعد أن اتصلوا به هاتفياً

قالت المرأة: أنا لا أركب التاكسي بهذا المنظر.

أجاب الرجل:

ـ لا تحزني يا روحي.. سنجعل طريقنا إلى خياطك.

صرخت المرأة:

ـ هل رأيت يا سيدي المفتش...هل سمعت؟ فهل هذه حياة؟

ـ أنتِ على حق يا سيدتي.

وقعت المرأة على الضبط... وفيما كان الرجل يخرج مع زوجته أَمَرَ المفتش الشرطي بما يلي:

ـ إذا رأيتم هذه المرأة تنتحر ثانية. فاتركوها في حال سبيلها ولا تخلصوها حتى تتخلص منها البشرية.

١٦

لتنقص جرثومة

الحياة العسكرية في أيامنا، حياة طابعها الجدية في كل الأمور... فالعسكري لا يضحك ولا يبكي، وكلاهما عار بالنسبة له. الضحك يكون بتقطيب الحاجبين. عندما كنا في المدرسة الحربية، كان أحد النقباء يقول لنا دائماً «يجب أن يكون العسكري دائماً مقطب الجبين عابساً».

هكذا نشأنا... فالناس لا يشبعون من الضحك والبكاء. فالضحك مقبول إلى حد ما، ولكن البكاء شيء معيب ومذل يدل على انعدام الرجولة.

أكثر ما لفت انتباهي خلال زيارتي الأولى إلى «فيينا» و«برلي» «فرسوفيا» كثرة العجزة والمشوهين. مجموعات كبيرة بُترت أرجلهم، وأيديهم، أو تشوه عمودهم الفقري، يسيرون في الشوارع وهم متكئون على عكاكيزهم. إنهم عجزة ومشوهون ولكنهم أقوياء... يسيرون ورؤوسهم مرفوعة، لأنهم قاتلوا في الحرب. لم أر مثلهم يسير بفخر وثبات.

بعد عودتي من إحدى زياراتي الطويلة لأوروبا... وفي أحد الأيام خرجت من المنزل لأروح عن نفسي وإذا بإنسان أعرج يظهر من بعيد متكئاً على عصاه ويسير جاراً ساقيه. أعاد هذا المنظر إلى ذاكرتي أولئك العجزة الذين شاهدتهم في الشوارع الأوروبية، لقد كان هذا الأعرج يمشي أمامي بخيلاء، رأسه مرفوع، وصدره بارز إلى الأمام. وعندما اقتربنا من بعضنا، تبادلنا النظرات والتصقنا بعناق طويل. إنه أحد زملائي في الخدمة العسكرية. قضينا سنوات في الكلية الحربية وفي القطعة التي خدمنا فيها. شفته العليا

مشقوقة جراء جرح أصيب به. لم نلتق منذ ثلاثين عاماً، لقد أحيل على التقاعد.. ومرضه الشديد بالروماتيزم جعله يمشي وهو يجر ساقيه.

عندما شاهدته على هذه الحال... اعتراني شعور بالخجل من نفسي، حيث يجب أن أكون مثله، لأن أعمارنا متساوية، أما أنا فقد بقيت آفة المرض بعيدة عني. لم يكن حزيناً ولا متألماً.. ولم يشكُ لي مرضه، وقال بتفاؤل العسكري:

ـ أنا بخير... أنا بخير... لقد انتصرت على المرض وقهرته... وسأكون أفضل في المستقبل.

افترقنا... ولكنه تابع سيره بخيلاء... ظلت عيناي تراقبانه... بينما سرت في جسدي قشعريرة الخجل لأنني ما زلت أمشي على قدمين سليمتين.

صار يحضر إلى منزلي بين الحين والآخر.. نتحدث سوية عن ذكريات الطفولة، لم يكن قوي البنية، ومع ذلك يحب الرياضة... يبتعد عن المشاكل... ولكنه لا يخافها.

قبل أيام حضر لزيارتي ثانية... كان يبدو فرحاً... والسعادة تغمره... وعندما رأيته على هذه الحال فرحت أنا أيضاً.

ـ قبل قليل، وأنا في طريقي إليك... حصلت معي حادثة جعلتني أضحك وأضحك.. لم أضحك في حياتي مثلما ضحكت اليوم.

ـ ماذا حصل؟ هيا.. قل ماذا جرى لأضحك أنا أيضاً... وأقسم لك أني لم أضحك منذ مدة طويلة. ونفسي تواقة للضحك.

ـ بينما كنت قادماً إليك... توجَّب عليَّ عبور الشارع إلى الطرف الآخر، وبما أنني لا أستطيع الجري فمن الواجب أن أكون حذراً جداً. فالسيارات تمر الواحدة تلو الأخرى، وصلت إلى المكان المخصص لعبور المشاة ووقفت أنتظر خلو الطريق من السيارات.. ولما سُنحت لي الفرصة بالعبور مشيت خطوة باتجاه الطرف الآخر. وفي لحظة خاطفة وصلت

سيارة تكسي وتوقفت، وطلبت منه متابعة السير، لكنه مدَّ يده من النافذة وأشار إليَّ بمتابعة السير. كان يقود سيارته بسرعة جنونية، وضغط على المكابح وتوقف... وأطل السائق من النافذة وقال:

ـ انتبه لنفسك... «بعدين تموت ولك».

كرر صديقي العبارة عدة مرات «بعدين تموت ولك» وكأنه يقول ما يضحك أما أنا فقلت للسائق وحتى لا أعكر مزاجه، مع هدوء أعصابي.

ـ لا تهتم يا بني... الموت آت قريب... حتى لو أنني متُّ سيان عندي... لا تهتم بالأمر... مع كل كلمة كان يضحك ويقول قلت: لا تهتم... ويضحك.

ـ هل تعلم بماذا أجابني السائق: من الأفضل أن تموت حتى تنقص جرثومة من البلد... قال ذلك تنقص جرثومة ظل يردد تنقص جرثومة ويضحك بصوت عال.

ـ نعم لقد قال تنقص جرثومة.

ظل ممسكاً بعصاه التي لم ينزلها على رأس السائق ضرباً... وبدأ يضحك ويضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتساقطت على وجنتيه.

ماذا باستطاعته أن يفعل أكثر من هذا...لقد علمونا خلال السنوات الطويلة أن البكا عيب للرجال.

ـ لم أضحك في حياتي هكذا... جرثومة تنقص من العالم.

أنا شخصياً لم أضحك.. ولكن تذكرت ما قاله النقيب المدرب قبل خمسة وثلاثون عاماً يجب على العسكري أن يظل مقطب الحاجبين عابس الوجه. لم أستطع لفظ هذه الجملة بل اكتفيت أن أتمتم بها بحركات بطيئة من شفتي.

١٧

هذا ما أستطيع فعله

قضى أربعة وثلاثين عاماً حارساً في السجن، ولم يُرفَّع إلى رتبة رئيس للحرس... ربما يصبح رئيساً... وهذا ما يتمناه. ألم يكن راغباً بأي منصب؟ أمضى نصف حياته في السجن... لم يتزوج أبداً.

هل كان قاسياً مثل بقية الحراس في ريعان شبابه؟ لا أحد يعلم ذلك. لكنه كان رؤوفاً متسامحاً في شيخوخته. باسم الوجه، في المواقف الجدية. عيناه فرحتان... لم يستطع إخفاء الشعلة التي في عينيه. حتى في أوقات غضبه... مع أنه لم يكن قاسياً في طبعه، فهو لم يكن ليّناً في سلوكه. كان فقيراً معدماً. لكنه يملك ثروة في ذكرياته. تعرَّف إلى شخصيات كثيرة: سياسيين أقوياء، ومجرمين قتلة، جواسيس، نصابين، سارقين. شخصيات خيِّرة وشريرة.

يلقى السعادة بالحديث مع المثقفين السجناء. يحضر إلى مهجعنا في السجن.. ويجلس... ثم يتحدث عن ذكرياته وهو يحتسي الشاي.

ثمة سجين غريب في مهجعنا كان ضابطاً دخل خلسةً حدودنا أثناء الحرب العالمية الثانية. ألقي القبض عليه. واقتيد إلى المحكمة العسكرية، صدر الحكم عليه، وزُج في السجن. وضعوه هناك في غرفة مظلمة لمدة عامين، ثم نقلوه إلى مهجعنا. تعلم اللغة التركية، رغم أنه كان رجلاً صامتاً.

عندما يأتي الحارس إلى مهجعنا، كان أثناء حديثه يشير بين الحين والآخر إلى الرجل الغريب ويقول: انظروا إلى هذا الرجل، لي عليه من الفضائل ما يفوق

الوصف. كان الحارس يردد هذه المقولة يومياً كلَّما حضر إلى المهجع.

ـ قدمت مساعدات كبيرة لهذا الرجل.

وكل مرة يؤيد الغريب كلام الحارس هازاً برأسه.

انتابتنا الفضولية، والشوق الشديد لمعرفة تلك الأفعال والفضائل التي قدَّمها للغريب. لكننا لم نستطع سؤاله، لأنه لن يكون مناسباً. ما هذا الفضل الذي قدَّمه للغريب؟ وعلاوة ذلك لم نفهم لماذا يلمح إلى هذا الفضل في وجه الرجل وأمام الجميع.

في إحدى الأمسيات، حضر كعادته إلى مهجعنا، وجلس على الكرسي الصغير المصنوع من القش. بدأ يتحدث عن ذكرياته وهو يحتسي الشاي. نظر لأول وهلة إلى الغريب الجالس في زاوية المهجع وكرَّر الكلمات نفسها:

ـ عملت خيراً كثيراً لهذا الرجل. وفي كل مرة يهزُّ الغريب رأسه مؤيداً كلامه.

هذه المرة تحدث الحارس بغضب وقال:

ـ هيا لماذا لا تقول: ألم أعمل لك خيراً؟

عندما صمت الغريب: قال والبريق في عينيه يشتد أكثر من السابق..

ـ ولك عيني... عندما كنت في الزنزانة بمفردك. كان الحديث معك ممنوع... وعندما كنت أمرُّ من أمامك.. أدخل رأسي من النافذة وأقول.. كيف حالك؟ ألم أفعل ذلك، هيا قل...

أجاب الغريب العجوز:

ـ أدامك الله... كنت تقولها دائماً.

قال العجوز وقد فتح ذراعيه:

ـ أي، ي ي ي ي هذه هي الحسنة التي كان باستطاعتي تقديمها لك.

١٨
يا له من رجل عظيم

ـ مرحباً سيدي الفاضل.

ـ أووو ما شاء الله أفندم، ما شاء الله... مرحباً... كيف حالكم... إن شاء الله بالعافية...

ـ حمداً وشكراً لله... يا سيدي... ندعو لك بالسلامة وطول العمر... أنا أيضاً بخير وكيف حالكم أنتم...

ـ أشكرك كل الشكر يا سيدي... أنا أيضاً بألف خير... واجبي السؤال عنكم..

ـ الشكر لله صحتنا على مايرام.

ـ ليعطنا الله الصحة والعافية.

ـ هل تعرف مع من كنت قبل اللقاء بك؟ لن تعرف أبداً...

ـ نعم شاهدت كل شيء...

ـ ماذا فلت؟ إذاً رأيته.

ـ نعم رأيته وتحدثت معه

ـ يعني هكذا وجهاً لوجه؟

ـ طبعاً أقول لك رأيته... ليس حلماً يا سيدي... رأيته بالعين المجردة، وتحدثت معه.

ـ وتحدثت معه أيضاً؟

ـ نعم.

ـ ما أسعدك.

ـ طبعاً، أنا سعيد جداً.

ـ آغا... عندما كنت طفلاً... أو ربما في السابعة عشرة، ذهبت مع والدي المرحوم إلى منزله. ربما يوم العيد، أو ربما في زيارة عادية... لن أنسى ذلك اليوم... ما زال حديثه في ذاكرتي..

ـ بماذا تحدث يا صديقي! !

ـ عندما كنت في حضرته... تواجد ضيوف آخرون... قال يومها قولاً مأثوراً:

«لما يكون الشتاء شديد البرودة، تكون المحاصيل وفيرة».

ـ ماذا تقولون...؟ إذن تفضل بالكلام هكذا..؟

ـ نعم... نفس الكلام.. ما زال في ذاكرتي.

ـ ما هذه الحكمة الرائعة، لا ينطق بها سوى العظماء

ـ بعد ذلك قال للضيوف: «إذا كنتم تشعرون بالبرد لنضع مزيداً من الحطب في المدفأة».

ـ يايايا... هذه حكمة كبرى وفائدة لا يستهان بها... كلمات بسيطة لكن مضمونها عميق جداً.

ـ يا سيدي... الكلام الذي يخرج من فمك أوفمي عادي جداً. لكن عندما تخرج نفس الكلمات من فم الأستاذ... تأخذ تعابير ومعان عميقة تدل على عظمة صاحبها.

لا أدري كيف أفسر ذلك؟

ـ أفهم... أفهم

ـ لكن أرجوك أن توضح لي مقابلتك معه... ماذا قال؟ لو سجلتم كلماته بمحضر ضبط...

ـ آه يا سيدي. لا يعرف أحدنا هذه الصدفة السعيدة قبل وقوعها. ولو عرفت... لأخذت معي المسجلة مع شريط، وسجلت جميع كلماته.. كلمة... كلمة.

ـ طبعا: كلامه ذو قيمة تاريخية لا تقدر بثمن.

ـ نعم. نعم يا سيدي.. أصغيت كلياً إلى حديثه... وبعد أن فارقته سجلت على دفتري كلماته التي ما زالت عالقة في ذاكرتي.

ـ إنشاء الله تكون قد دونت رقم وتاريخ التسجيل تحت الجمل.

ـ نعم لقد سجلت تاريخه، وساعته، مكانه.

ـ فعلتم خيراً... ما كتبته يعتبر من الوثائق التاريخية القيّمة يا سيدي، ستزداد أهميتها في المستقبل.

ـ ستظل تراثاً حقيقياً لأولادنا من بعدنا.

ـ طيِّب: وماذا قال:

ـ كنت يا سيدي على وشك الركوب في السفينة صباحاً عند «قاضي كوي». فقد جذب انتباهي جمع من الناس ألقيت نظرة على الجموع فرأيته بينهم.

ـ إذن هو...؟

ـ نعم... هو... شخصياً.

ـ طيب... وماذا فعلت؟

ـ ماذا أفعل يا سيدي.. بعد حيرتي ودهشتي.. أسرعت إليه... وقبلت يده... ثم ركبنا السفينة معاً... كان الجميع يحدقون إلى داخل فمه بانتظار خروج الكلمات.

ـ يايايا؟

ـ يايايا؟

ـ ماذا قال؟ أرجوك أعلمني...

ـ عندما دخل صالون الباخرة قال: أووه تعبت كثيراً، سأجلس لبعض الوقت.

ـ الله... الله... يا لها من حكمة هائلة يا سيدي «تعبت كثيراً لأجلس قليلاً» انظروا إلى هذا الكلام...! لقد تعب كثيراً من أجل الوطن والشعب والأمة... آه... إنه تعب كثيراً...

ـ عندما قال «تعبت كثيراً لأجلس بعض الوقت» لم أستطع تحمل هذا الكلام، فبدأت أجهش بالبكاء، وكذلك الآخرون...

ـ طبعاً، ألا يبكي المرء من هذه الكلمات... انظر لقد بدأت الدموع تنهمر من عيني الآن. وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك يا سيدي. بينما النادل يمر من هناك وهو يصرخ شاي... شاي. قهوة... قهوة. سأله أحدهم إذا كان يريد شاياً.

ـ ماذا قال؟

ـ الشاي مفيد جداً... لكنه يسد الشهية قبل الطعام.

ـ ولك أخي... كلام الكبار يكون عظيماً مثلهم.

ـ هذا طبيعي جداً... بعد ذلك سأل أحد الشباب الحاضرين عن عملهم... وعندما أجاب الشاب أنه طالب في كلية الهندسة. قال: تبنى الحضارة على أكتاف المهندسين.

ـ يا لها من حقيقة كبرى.

ـ سجلت جميع أقواله على دفتري... دون أن يلاحظ ذلك، حتى لا أنسى ما قاله على مر الزمان. في هذه الأثناء ازدادت الكلمات وكثرت...

ونتيجة الزحام وكلام الركاب لم أستطع أن أفهم ما قاله أحدهم فأجاب بغضب: الموقف خرى بخرى.

ـ نعم قال «خرى على خرى»

ـ أي موقف يقصده يا ترى؟

ـ والله لم أستطع أن أفهم... لموقفه أم لموقفنا. أم لحالة البلد.

ـ إذا قال «خرى على خرى» معناه أنه يعرف شيئاً ما يا سيدي. فهل سجلت هذه المقولة على دفترك؟

ـ بالتأكيد.

ـ صحيح لكل كلمة من كلماته معانٍ سامية وعميقة... حقيقية سرية... وحقيقة إن الموقف /خرى على خرى/ يا سيدي الكريم... فقد سجلتَ كل ما صدر عن فمه؟

ـ نعم ولكن لم أستطع التسجيل مرة واحدة.

ـ لماذا؟

ـ لأنه تجشأ بصوتٍ عالٍ بصوت عال سمعه الجميع.

ـ الله... الله... تجشأ أليس كذلك؟ كيف فعل...؟

ـ بطريقة طبيعية جداً... ليس التجشؤ سهلاً بعد خدمة هذه السنوات الطويلة.

ـ أفهمك إذاً تعطلت أعضاؤه..

ـ نعم، تعطلت معدته، أمعاؤه... ذاق الأمرين من أجل هذا الشعب... ربما تجشأ عندما ضغطت الغازات على أمعائه؟

ـ نعم.

ـ هل فعل شيئاً آخر؟

ـ عندما كان في الباخرة... لم يفعل شيئاً... لكن بعد ذلك لا أعلم. اقتربت السفينة من الميناء، فقال للموجودين حوله /الوطن أمنا، والدولة والدنا... إنهما ينتظران تضحياتكم/

ـ إنها حكمة أبدية.

ـ أرجوك... لا تطل الكلام... سترغمني على البكاء

ـ من يرافقه دائماً يستفيد منه كثيراً، ففي كل كلمة حكمة، ولكل حرف معنى عميق.

ـ كل كلمة من كلماته تصنع كتاباً... ولكن من سيفسره؟

وستزداد أهميته ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

ـ بدون أدنى شك.

ـ صعدنا إلى الميناء... رفع رأسه ونظر إلى السماء وقال: سيكون الطقس جميلاً غداً.

ـ من سمع هذا الكلام يفهم أنه غير عادي... كبير... مجازي..

ـ في كل كلمة مجاز.. إذا أخذت معناها الظاهري فهي لا شيء. ولكن الكلام المجازي، يكون له معانٍ عميقة جداً «سيكون الطقس جميلاً غداً» ما معنى هذا الكلام؟

ـ هذه جملة كبيرة لمن يفهمون.

ـ والله يا سيدي لا يشبع الإنسان من الجلوس معك... أستأذنك.

ـ استغفر الله... رافقتك السلامة.

ـ أستودعك الله... أنا ذاهب من هذه الجهة.

ـ مع السلامة يا سيدي... مع السلامة... إلى اللقاء.

ـ إن شاء الله يا سيدي الفاضل.

١٩

لعبة الحب

شاب في الثالثة والعشرين من عمره، يتدفق حيوية ونشاطاً، تنضح الفتوة والرجولة في مشيته ووقوفه وحركته. أحب امرأة شقراء... أرملة... تساويه في العمر... أطلق عليها اسم القطة. لم تكن كالقطط العادية الشاردة، بل كالتي نراها مرسومة على البطاقات وأسماها «سارمان».

طاردها لأشهر طويلة... كتب لها آلاف الرسائل... نظم لها القصائد.. توسط عدداً من أصحابه لديها، لكنه لم يفلح في الدخول إلى قلبها. لم تعط هذه الشابة الشقراء أهمية لهذا الشاب وترفض بشدة مقابلته أو النظر إليه.

لم تكن راغبة بوضع يدها في النار ثانيةً بعد فشل زواجها الأول. فهي لم تجد لدى الشاب النوايا الطيبة الصافية رغم تساويهما في العمر. وهذا هو الواقع، فالشاب يرى أنها تفيض أنوثة وحرارة، وتفاحة ناضجة للأكل.

لم يكن الشاب أيضاً من الذين يتراجعون بسهولة في مثل هذه المواقف. كلما أصرَّت المرأة على الرفض والهرب من طريقه... ازداد عناداً وإصراراً وطلباً لها. مرت قرابة ستة أشهر على المطاردة... ومع بداية الصيف، بدأت المرأة تخفف من شدة لهجتها وعنادها. هل كانت ليونتها بتأثير حرارة الصيف؟ أم من مقاومة الشاب لجميع المواقف السلبية؟ ربما تأثير عامين في حياتها كأرملة وحيدة. لم تستطع تحمل الوحدة أكثر من ذلك. ومهما كانت الأسباب فقد أرسلت خبراً إلى الشاب تعلمه بأنها

ستلتقي به يوم الأحد القادم في المقهى على شاطئ البحر.

كان يوم الموعد من أيام الربيع الذي يشتد فيه البرد لكن الهواء كان دافئاً كهواء الصيف. لم ينم الشاب طوال تلك الليلة، كيف ينام وغداً سيقابلها بعد مطاردةٍ طويلةٍ. قطط آذار ساخنة تنام خارج فراشها تتلوى من الوحدة. فكر الشاب مطولاً كيف تتجامع القطط يوماً واحداً في العام. وظن أن عشيقته كذلك جمعت انفعالاتها كلها حتى شهر آذار.

غفا قليلاً... ونهض مع بزوغ الفجر... حلق ذقنه، وارتدى بزَّته، وسرَّح شعره على أكمل وجه... ونظر إلى نفسه وهندامه في المرآة... إنه وسيم للغاية! ! أقفل الباب وخرج للقاء الحبيبة.

كان المقهى الذي سيلتقي فيها مع تلك القطة الشقراء الجميلة، يقع في الطرف الجنوبي من جسر سكة الحديد. ولكي يصله عليه اجتياز الجسر حتماً.

ياله من يوم جميل... من أيام الصيف... البراعم بدأت تتفتح في المروج.. الأعشاب الأزهار، انعكاس الشمس على مياه البحر الهادئة.

وفيما كان يصعد الجسر، التفت إلى جانبه فشاهد قطتين تتسلقان أذني بعضهما.. القطة الأنثى جميلة وحلوة تشبه ما يُرسم على بطاقات العيد. وأمامها القط الذكر الذي وجهه أشبه بوجه الوحش.. عينان تلمعان، وآثار الدماء ملأت وجهه وكأنه دخل في صراع مع أحدهم.

وقف فوق الجسر ونظر إلى القطتين. كانتا فوق جدار سكة الحديد المهدمة. القطة الجميلة الناعمة ترفع صوتها بين حين وآخر وتصرخ في وجه القط الذكر وتضربه بمخالبها.

أطال النظر إليهما.. وضع نفسه مقابل تلك المرأة الشقراء الجميلة.

القطة الأنثى... قطة منزل... جميلة... رائعة... جذابة تماماً مثل الأرملة الجميلة، وفهم أنه يشبه ذلك الذكر المتوحش. قط الشوارع ليس إلا.

وقف الذكر على قدميه وهجم على الأنثى وحاول القبض عليها من رقبتها لكنها انهزمت وهي تموء. لم يكن الذكر من أولئك الذين تهزمهم الأنثى. قفز بقوة على الأنثى فسقط الاثنان معاً على الجدار. وبدأا ثانية بالمواء وإرسال الصيحات المتبادلة. كان قلب الشاب مع القط الذكر المرقط. لكنه لم يستطع مساعدته. لقد وجد نفسه قريباً ومنجذباً ومتآلفاً مع القط المذكر، ليس مثل أخ بل كنفسه.

تصارعت القطتان وتطايرت أوبارهما في الهواء. هربت الأنثى ثانيةً والذكر يجري خلفها. لقد جعلته المرأة الشقراء يطاردها مدة طويلة.

توترت أعصابه وهو ينظر إلى القطتين، وقرر عدم مغادرة مكانه قبل أن يقف على نهاية اللعبة. صعدت الأنثى الشجرة، فقفز الذكر خلفها. ووقفا أمام بعضهما مدة من الزمن وهما يموءان بحدة وغضب.

سمعتُ صافرة القطار قادمة من بعيد. كان القطار الكهربائي يسير بسرعة كبيرة... اقترب من الجسر محدثاً ضجة امتزجت مع مواء القطط. قفزت القطة الأنثى عن الشجرة بسرعة ومرَّت فوق سكة الحديد. قفز الذكر خلفها يريد اللحاق بها إلا أن عجلات القطار كانت أسرع فدهسته وفصل رأسه عن جسده الذي تدحرج على الأرض. تابعت الأنثى سيرها دون النظر إلى ما جرى خلفها. جلست على الأرض وبدأت تلحس وبرها الناعم وتجدد جمالها.

نظر الشاب بأسى إلى جثة الذكر المضرجة بالدماء فوق سكة الحديد واتجه نحو المقهى.

تصافحا... لكن ما هذا؟ لماذا يقف الشاب ببرودة؟ هذا من كان يطاردها خلال أشهر طويلة، ويبكي من أجلها، وكان يقول لها في رسائله «أستطيع أن أقتل نفسي من أجلك». يجلس الآن حزيناً صامتاً وكأنه فقد شيئاً.

عادت المرأة الشقراء، ولفت جسدها الناعم بفروة ناعمة، وأخرجت من محفظتها مرآتها وبدأت تجدد زينتها. ماذا حصل لك؟ أراك حزيناً.

ـ أجاب الشاب: نعم لقد توفي أحد أقربائي.

ـ واه.. واه.. البقية في حياتك... متى حصل ذلك؟

ـ أثناء مجيئي إلى هنا، فقد دهسه القطار.

ـ ما صلة القربى بينكما؟

ـ كان على وشك أن يقول أنا نفسي، لكنه فكر بعض الوقت.

ـ كان أقرب أقربائي.

٢٠

المسافر رقم ١٥

ركبت حافلة «إزميت» عازماً السفر إلى «بيرام أوغلو» التي تبعد ستين كيلومتراً عن «قاضي كوي». حان وقت الانطلاق... لكن الحافلة لم تتحرك. عندها بدأ الركاب بالتذمر والوشوشة...

قال أحد ركاب الحافلة:

ـ هناك مسافران لم يحضرا بعد، لننتظر قليلاً. ثم مدَّ رأسه من باب الحافلة وبدأ ينادي وبأعلى صوته على المسافرين المتأخرين أصحاب الأرقام ١٥ و٢١.

ـ المسافران رقم ١٥و٢١... المسافران رقم ١٥و٢١ الإسراع إلى الحافلة.

بما أنه مهتم جداً بالمسافرين المتأخرين... لا بدَّ أن يكون أحد موظفي الشركة. السائق أو معاونه، أو قاطع التذاكر.

ـ المسافر رقم ١٥و٢١ إلى الحافلة...

وصل رجل إلى الحافلة وهو يتنفس الصعداء... وقد حمل في إحدى يديه سلة كبيرة من القصب. كانت رقبته حمراء كالبندورة، ووجنتاه منتفختين مثل قالب «الكاتو» وجلس على المقعد رقم ٢١.

انتهره الرجل الذي كان ينادي الركاب قائلاً:

ـ لو جئت في الوقت المناسب لما رجونا الركاب الانتظار هذه المدة.

ـ التفت إليه المسافر رقم ٢١، وصرخ في وجهه قائلاً:

ـ ولك، شو دخلك أنت. اخرس ولا تسمعني كلاماً.

صمت الآخر، واحمر خجلاً من هذا الهجوم غير المتوقع. ولإزالة خجله وإعادة اعتباره، وجّه رأسه نحو الساحة وبدأ ينادي بصوت قوي... المسافر رقم ١٥... المسافر رقم ١٥.

قال أحد المسافرين:

ـ هيا: لتتحرك الحافلة.

ـ أجاب الرجل: لم تنته الثلاث دقائق بعد... ماذا يحصل لو انتظرت بعض الوقت...

ثم أعاد النداء على المسافر رقم ١٥.

جلس السائق خلف مقوده... وأدار المحرك... فالرجل الذي ينادي لم يكن السائق. كانت الحافلة تهدر وهي واقفة... والرجل ينادي بملء حنجرته...

ـ المسافر ١٥... المسافر ١٥...

أغلق الباب الأمامي، وبدأت الحافلة بالحركة... وبينما هي على وشك الانطلاق، إذا برجل يجري مسرعاً ويتعلق بباب الحافلة ويلقي بنفسه داخلها... وبما أن الحافلة تتحرك، فقد جلس الرجل بصعوبة في مقعده الفارغ، وبدأ يتخبط يميناً ويساراً حتى استقر توازنه. كان صدره يخفق بقوة وهو يلهث من التعب والعرق يتصبب من جبينه.

قال له الرجل الذي ينادي على المسافرين:

ـ لو حضرت مثل جميع الركاب في الوقت المحدد.. لما أتعبتنا وأتعبت نفسك.

أجاب الرجل المتأخر:

ـ المعذرة يا أخي، أنت على حق... والعفو من شيم الكرام.

صرخ الرجل بوجهه مرة أخرى بعد أن لمس منه اللين والأدب.

ـ ما معنى أن تعتذر... جعلت كل هؤلاء الركاب ينتظرون فخامتك وتقول المعذرة. عذرٌ أقبح من ذنب.

ـ يا الله... لا أدري ماذا أقول... أعتذر منكم ثانية. أرجو قبول اعتذاري.

ـ هل من حقك أن تجعلنا ننتظر كل هذه المدة.

أجابه المسافر رقم ١٥ وقد انطوى على نفسه ذليلاً، خجولاً، وبصوت مشوب بالحزن والبكاء.

ـ طبعاً ليس لديَّ عذر بالتأخير... حصل عيب ما...

نعم عيب كبير... إذا أخذ المسافر بطاقته عليه البقاء إلى جانب الحافلة.

ـ والله لم يحدث أن تأخرت قبل اليوم... أنا إنسان متدبر، أحتاط لكل شيء منذ ولادتي. أركب الحافلة قبل تحركها بمدة طويلة.

ـ انتظرناك خمس دقائق ولك.

ـ أرجو أن تصدِّقني... فهذا التأخير يحصل معي لأول مرة في حياتي.

ـ الذنب ذنبنا لأننا انتظرناك كل هذه المدة.

ـ لا أدري ماذا أقول... أنتم على حق في كل ما تقولون.

ـ لو تحركت الحافلة... وانطلقت: ماذا سيحل بك، حتماً ستفقد عقلك.

جميع المسافرون صامتون. يستمعون إلى المناقشة بين الرجلين. كان المسافر المتأخر في الخمسين من عمره. ضعيف البنية، يضع نظارة على عينيه. كان كلما تراخى في موقفه وقدَّم الاعتذار تلو الآخر عن تأخره. يبدأ الرجل الآخر بالصراخ وإعطاء المواعظ كأنه ديك صياح.

ـ أمثال هؤلاء يجب أن لا يركبوا الحافلات. بعد الآن لن ننتظر أمثالهم ولو ثانية واحدة.

ـ كلامك صحيح. لكن ماذا أفعل؟ لقد حصل ما حصل. وكما قلت إنها تحصل معي لأول مرة. قل ما طاب لك.

لكثرة ما صرخ المسافر ١٥ تعطلت أوتار صوته.

ـ آه لا أدري كيف تأخرت.

ـ ألا تعلم أني أصرخ وأصرخ وأنت غير موجود.

ـ يا الله أنت محق في كل ما تقوله.

بدأ قاطع التذاكر بالتفتيش على التذاكر. إذن الرجل المنادي لم يكن قاطع تذاكر. ربما كان معاوناً للسائق. لكن المعاون يوزع الماء ويحفظ الأمتعة في أمكنتها. ربما صاحب الحافلة.

قطعنا مسافة نصف الطريق ووصلنا «توزلا» وما زال الرجل يواصل هجومه على المسافر ١٥. ويحاول الأخير الدفاع عن نفسه وهو مكسور الخاطر إلى حد بعيد.

ـ توه عليك يا رجل، يا قليل الإيمان... جميع هؤلاء الناس لديهم أشغال وأعمال، هل يحق لك تأخيرهم عن عملهم.

ـ ليت ساقي تحطمت ولم أغادر الحافلة.

ـ ولك يا سيدي... قطعت بطاقتك، فاجلس في مكانك.

ـ لم أتأخر سوى خمس دقائق فقط.

ـ واده يا سيدودي... واااه وهل الخمس دقائق قليلة. لا أيها السيد يجب أن ننتظرك مدة أسبوع.

ـ حصل ما حصل، ما باليد حيلة!...

ـ يقول حصل ما حصل... عيب عليك ولك... على الأقل الإنسان

المذنب يخجل ولا يرفع صوته.

انطوى المسافر على نفسه في مقعده وظلَّ صامتاً. لكن الأخير ظل يرفع صوته ويثرثر..

انتظر جواب الرجل لبعض الوقت... وعندما لم يأته الجواب:

ـ لا يخجل من نفسه أيضاً ويخرس. الإنسان المهذب يعتذر من الآخرين ولك. أكون قليل الناموس إذا كان أمثال هؤلاء لا يسببون الجنون لجميع الناس.

عندما وصلت الحافلة إلى مفرق «بيرم أوغلو» صرخ الرجل الجالس في الرقم ٢١ في وجه الرجل الثرثار:

ـ مين أنت ولك. ما وظيفتك في هذه الحافلة... كفى ثرثرة سأقطع لسانك...

ـ أنا...؟ أنا... هيه... أنا مسافر على هذه الحافلة.

ـ طالما أنك مسافر لماذا تتطاول على غيرك يا قليل الناموس.

وقفت الحافلة في مفرق «بيرم أوغلو» ونزلت منها. وأسفت لنزولي. لأني أحببت أن أشاهد ماذا سيحصل في الحافلة لاحقاً. وتمنيت على الرجل الثرثار أن يأكل ضرباً مبرحاً حتى يتقلص لسانه ويحترم الآخرين، ولا يتدخل بما لا يعنيه.

٢١

بعد عشرين عاماً

كنت فتاة صغيرة... أسكن مع والدي قصراً قديماً جميلاً، تحيط به حديقة كبيرة. ما زلت أتذكر شكاوي والدي عن المبالغ الطائلة التي يصرفها في ترميمه وطلائه. ومطالبته بهدمه وإقامة بناء حديث مكانه. كان دائماً يردد أرقام المبالغ الكبيرة التي يقوم بصرفها على هذا القصر أمام جدتي، كذلك أمي بدورها على هذا المنوال: هذا القصر بحاجة إلى ترميم وإعادة ترتيب الغرف. هذا العصر يختلف عن سابقه. كان في القصر خدم وحشم كثيرون يقومون على خدمته. أما الآن فجميع تلك الخدمات تنتظر أمي. إضافةً لذلك لم يعد القصر ملائماً لحياة المدنية المعاصرة كما البنايات الحديثة.

كانت جدتي طاعنة في السن، يصغر حجمها مع مرور الزمن، تتسلى بالمسبحة النفيسة وتنقل حباتها بين أصابعها. تقول دائماً عندما تسمع نغمة الهدم:

ـ لم يبق إلا القليل... افعلوا كل ما ترونه مناسباً بعد موتي. تهدمون القصر، ترفعون مكانه بناية... قصراً آخر فقط اتركوني حتى لا أرى ذلك اليوم الذي يُهدم فيه الماضي والذكريات.

الجميع يقولون: أنني أشبه جدتي كثيراً. ليس بوجهي وجسمي فقط... بل بطباعي أيضاً... بدأت أتصرف مثل جدتي في أقوالها وأفعالها بعد أن عرفت أني أشبهها.

كانت جدتي عندما تسمع عطسة في أرجاء القصر الكبير تقول//عش طويلاً//. إنها تحب ترداد هذه الجملة فهي تترقب دائماً صدور عطسة داخل القصر. حتى لو سمعت ضجة في الخارج تذكرها بالعطاس كانت تصرخ //عش طويلاً//. وبما أنني أقلّد جدتي في تصرفاتها وأفعالها، فقد كنت أصرخ معها //عش طويلاً//. تسليتنا الكبرى أنا وجدتي هي المنافسة في ترديد الجملة الواحدة قبل الأخرى. كأن مسابقة بل مسابقات تجري بيننا... إذا ما صدرت عطسة ما من مكان. كنا نصرخ دفعة واحدة // عش طويلاً//. أما التسلية الكبرى التي تقدمها لي جدتي كانت عندما تعطس: حيث أني أصرخ فوراً: //عشت طويلاً يا جدتي//. عندما أقول لها ذلك تضحك بقوة حتى تنهمر الدموع من عينيها وتقول:

ـ عشت أنت أيضاً يا ضناي.

هذه العادة توطدت بيننا بشكل طبيعي... في أحد الأيام طلبت مني إحدى مدرسات الثانوية شرح نظرية في مادة الرياضيات. وفيما كنت أقوم بالكتابة على السبورة... إذا بها تعطس... فكان جوابي المباشر لها بصوت قوي //عيشي طويلاً//.

عندها انفجرت الطالبات بالضحك والقهقهة بصوت عال. لكن مدرسة الرياضيات غضبت مني كثيراً. كيف سأحاول أن أشرح لها بأن هذه ليست سخرية وإنما عادة قديمة مارستها منذ طفولتي.

...

كان والدي يعمل خياطاً متخصصاً في المعاطف المطرية، في حي « سلطان حمام». يأخذني معه يومياً للعمل كنت في ذلك الوقت فتى شقياً في السادسة من عمري. أراد أن يجعل مني خياطاً شهيراً في هذه المهنة. يتحدث أمامي دائماً عن الأرباح الطائلة التي يجنيها من خياطة المعاطف المطرية، والمعاطف الخفيفة. وحسب رأيه، على الإنسان أن يكون بائع

جملة في هذه المهنة. لم يكن والدي بائع جملة، لأن لديه في ذلك المكان غرفتين... الأولى يبيع منها لتجار الجملة، والثانية لزبائنه بالمفرق. كان هدفه أن يجعل مني بائع جملة في هذا المجال. يجب أن أنشئ ورشة كبيرة، يعمل فيها أكثر من عشرين عاملاً. يخيطون مئات المعاطف الواقية. وسأكون مسؤولاً عن الإدارة والبيع، رغم أني لا أحب مهنة والدي أو المستقبل الذي يفكر به.

ما يزعجني في هذه المهنة: هو أن تتناول المعطف بيدك لمن يرغب بالشراء، ثم تردد كالببغاء لكل زبون أن المعطف مناسب جداً، وملائم لجسمه.

ـ آمان أفندم... كم هو مناسب لجسمك، إنه فوق العادة، يكفي هذا الجمال، إنه يليق بك.

بمثل هذه الجمل نمدح فيها المعاطف أمام الزبون. أكان مناسباً له أم لا.

أخذني والدي إلى ورشة الخياطة منذ نعومة أظفاري، لأعتاد على العمل. فإذا ما حضر زبون لشراء معطف. كانت وظيفتي أخذ المعطف من علاقته وإلباسه للزبون... عندها أبدأ بمدح المعطف بالجمل التي حفظتها من والدي.

ـ آمان... يا سيدي... كم يليق بجسمك، ... إنه رائع جداً، القالب غالب. انظر إلى القماش، إنه من أفضل أنواع الأقمشة مستورد من بريطانيا.

إذا لم يعجب المعطف الزبون، ويطلب غيره... كنت أحضر ثانياً وثالثاً ورابعاً... وفي كل مرة أردد نفس الأسطوانة، وأكيل المديح لجميع المعاطف التي لبسها.

كنت أقوم بهذا العمل مكرهاً... والحقيقة أني كرهت هذا الأسلوب الذي يعتمد التملق والمراوغة. عملي في ورشة والدي متواصل دائماً. أيام

المدرسة وخلال العطل... في أيام الدراسة كنت أذهب للورشة مساءً وأبقى مع والدي حتى منتصف الليل، اعتدت على حمل المعاطف للمشترين وغيرهم. فإذا ما شاهدتُ شخصاً حتى لو لم أعرفه، يرغب بارتداء معطفه، كنت أسرع نحوه وآخذ المعطف من يده وألبسه إياه. دون الشعور بما أقوم به. وعندما أعود إلى رشدي، كنت أخجل من نفسي على تصرفي. لكن بعد فوات الأوان. حتى أني لم أستطع الإقلاع عن هذه العادة بأي شكل من الأشكال.

ذات ليلة، ذهبت مع أصدقائي إلى ملهى ليلي، يقدم فيه الشراب، والرقص، والغناء. وبينما نحن في غاية الفرح، لن أنسى ما حدث في تلك اللحظة. رأيت رجلاً يتجه نحو المشجب الذي علق عليه المعاطف. أسرعت وتناولت معطفاً وألبسته للرجل. دهش الحضور ليس من حمل المعطف بل من كلمات المديح التي كنت أقولها للرجل وهو يرتديه.

إنه معطف جميل، يناسب جسمك، أنيق، لطيف.

في تلك الليلة، تركت المكان، لأني لم أستطع تحمل مزاح وسخرية أصدقائي مني.

...

توفي والدي بمرض عضال قبل أن يهدم القصر ويبني مكانه بناية حديثة. أما جدتي التي كانت تقول: اعملوا ما يحلو لكم بعد موتي، فقد خرفت فقدت عقلها بعد وفاة والدي. لكنها بقيت قريبة من القلب محبوبة. لم تتذكر في المنزل غيري. لقد نسيت كل شيء لكنها لم تنس قول //عش طويلاً// إذا ما سمعت أحدهم يعطس. كنا ندخل السباق من سيقول «عش طويلاً» قبل الآخر.

ماتت جدتي... ولم يبق في القصر سوى أنا وأمي. كان المتعهدون يتردَّدون على والدتي عارضين عليها هدم القصر، وإقامة بناء من عدة

طوابق مكانه. كانوا سيقدمون لنا أربع شقق. نسكن واحدة، ونبيع الثانية ونؤجر الباقي لتأمين دخل شهري ثابت يوفر لنا العيش. لكن أمي كانت تخاف المتعهدين، لأنهم سوف يخدعونها. هكذا يتراءى لها.

لم أستطع الذهاب إلى الجامعة بعد موت أبي.

بعد ظهر أحد الأيام، سافرت بالسفينة من «قاضي كوي» إلى استنبول وجلست في الدرجة الأولى. لأول وهلة لم أنظر إلى الجالسين بقربي في السفينة. أخذت كتاباً وبدأت القراءة. سمعت ضجة إلى جانبي.

ـ هاتشووو...

عطس أحدهم عطسة قوية من أعماقه مزّقت صمت المسافرين. أما أنا فلم أفطن إلى مكان وجودي فصرخت بأعلى صوتي وكأني في سباق مع جدتي: //عش طويلاً//.

ارتفعت ضحكات المسافرين وسط القاعة. خجلت إلى درجة كبيرة، واحمر وجهي. واحترت في أمري. ماذا أفعل... كان الشاب الذي عطس جالساً إلى المقعد الموجود على يساري. هو الآخر كان يبتسم. أنا الأخرى بدأت أضحك من الخجل. قلت له:

ـ عفواً... المعذرة... كنت مضطرة لذلك. هذه عادة عندي منذ صغري. كل من يعطس أمامي أقول له «عش طويلاً» وشرحت له كل شيء بالتفصيل.

...

ألح عليّ والدي أن أكون مصنِّعاً وبائعاً للمعاطف. قررت عدم العمل إلا بعد حصولي على الثانوية. تركت الدراسة مدة عامين... ثم انتسبت إلى كلية الحقوق. ثم توفي والدي وأنا في السنة الثالثة مما اضطرني إلى ترك الدراسة والعمل في مصنع والدي.

لم أصبح تاجر جملة، لقد أصبَحت مثله. أبيع المنتوجات لتجار الجملة. مرة أخرى بدأت أحمل المعاطف للزبائن وأردد دائماً: أمان يا سيدي... إنها رائعة... تناسبك جيداً...

في أحد الأيام سافرت من ضفة بوغازكوي إلى قاضي كوي، وعندما عدت في السفينة... لست أدري كيف حصل ذلك. فتاة جالسة بقربي... عطستُ بشكل لا إرادي... وإذا بها تصيح في وجهي «عش طويلاً».

دهشت لهذا التصرف... لقد احمر وجه الفتاة الشابة من الخجل. ثم شرحت لي الأمر، فقالت أنها اعتادت الرد على العطس بشكل لاإرادي. ولا تستطيع التحكم بنفسها فتقول بأعلى صوتها //عش طويلاً//. قالت الفتاة الجميلة ذلك وصمتت، كانت أفكاري مهتمة بها. أتمنى أن لا ينتهي هذا السفر القصير. لكن العشرين دقيقة المخصصة للسفر انتهت فجأة. نظرت حركتها... نهضت ومدت يدها نحو المشجب لتأخذ معطفها. وإذا بي أقفز فجأة من مكاني، وأتناول المعطف من يدها وألبستها على الفور وأنا أقول لها:

- أمان يا سيدتي... إنه جميل على جسمك، ومناسب لكِ تماماً... إنه رائع فوق العادة.

عدتُ إلى رشدي، وحصل ما حصل. الجميع يضحكون حتى الفتاة نفسها ضحكت. لم أخجل في حياتي كما خجلت في تلك اللحظة. التفت نحو الفتاة وقلت:

- المعذرة يا سيدتي... إن تصرفي عادة قديمة عندي. لأنني ألبس كل يوم معاطف أكثر من ثلاثين زبوناً.

...

هكذا تعرفت على زوج المستقبل.حتى أمي فقد أرادت زواجي. بيتنا

خال من الرجال. وكما قلت سابقاً كان المتعهدون يقدمون لنا أربع شقق مقابل هدم القصر. لكن عندما تدخل زوجي بالموضوع أخذنا ست شقق. بعنا منها أربع شقق ثم الخامسة. وهكذا توفر لزوجي رأس المال، باستطاعته أن يعمل له تاجر جملة في بيع المعاطف.

كل مساء، كنا نقوم سوية بتمثيل طريقة تعارفنا ونغرق في الضحك. هذه الصدفة يعرفها جميع الأصدقاء.

عشرون عاماً مرت على زواجنا كأنها ومضة عين. لكن بعد ذلك تبدل كل شيء زوجتي تبدَّلت كلياً. لقد رحلت تلك المرأة منذ عشرين عاماً وجاءت مكانها امرأة أخرى مختلفة.

ما العمل؟ لا أستطيع تبديل أي شيء. عندنا طفلان. حتى زوجتي فقد نسيت طريقة تعارفنا وزواجنا. مع أنه لو تذكرت تلك الحادثة لبدت سعيدة. لكنها لا تتذكر شيئاً من تلك الأيام. في الليلة الماضية شربت كأساً من الخمرة مع العشاء. سررت قليلاً، وتحركت في أعماقي نسمات السنين الماضية. بدأت أعطس كذباً. لم تبال زوجتي بالأمر. مع أنه لو قالت //عش طويلاً// لشعرت بأني ملكت الدنيا.حاولتُ المستحيل... أعطس الواحدة تلو الأخرى، حتى أحرك الحنين في قلب زوجتي إلا أنها قالت:

ـ يبدو أنك مصاب بنزلة صدرية.

عطست مرة أخرى. عندها صرخت في وجهي قائلة:

ـ أمان... بالله عليك لا تعطس هكذا باتجاه وجهي.

لم تبق كلمة إلا وتفوهتُ بها بعد كل عطسة. عندي طفلان، ماذا أستطيع أن أفعل بهما. لولا وجود الولدين لطلقتها مباشرة. عطست أكثر من عشرين ولم تقل مرة //عش طويلاً// يا لها من امرأة قليلة الذوق.

...

عشرون عاماً مضت على زواجنا. أنا أعرف كيف مرت، إنها مائة وعشرون عاماً بالنسبة لي. السنون لا تريد الانتهاء. حتى لو انتهت ماذا سيحصل؟ عندنا طفلان. لا أستطيع أن أبدِّل شيئاً بعد الآن. أكاد أجن من تصرفات زوجي... لم أستطع تحمل هذه التغيرات التي حصلت له.

أين ذلك الرجل الذي كان يحمل معطفي من المشجب ويلبسني إياه؟ فهو الآن لا يهتم أبداً. في إحدى المرَّات، طلبت منه صراحة أن يلبسني معطفي قال: الماضي ذهب بلا رجعة، والزمن الأول تحول... إنه يعمل تاجر جملة... لقد جرحني كلامه... ماذا أقول له؟ وهو ماذا يقول لي؟ إننا لا نتفاهم مطلقاً.

قمت بعدة محاولات أمامه لارتداء معطفي، لكنه لم يأبه لي. قبل أيام كنا في الباخرة، والطقس جميل، لا داعي لحمل المعطف... قلت في نفسي لعله يتذكر أيامنا عندما ركبنا الباخرة معاً. حملت المعطف واقتربت الباخرة من الميناء... وشرع الركاب بالنزول... انتظرته لعله يتحرك ويحمل معطفي... وإذا به يقول:

- هيا ارتدي معطفك... سنتأخر.

وقفت على قدمي، وكدت أسقط على الأرض لو لم أستند إلى المقعد.

قبلت بهذا التصرف... ما العمل... عندنا صبيان... لولاهما لطلقته مباشرة. لو أنه حمل معطفي مرة واحدة لملكت العالم. لكن لو وُجدت هناك امرأة غيري لقفز كالسهم من مكانه وحمل لها المعطف.

٢٢

برقية من بلغاريا

من كان يظن أن برقية واحدة، ستقوم بإزعاج عائلة وتقلق أمنها بهذا الشكل النادر. البرقية عبارة عن كلمتين فقط: الأولى مفهومة... اسم المدينة المرسلة منها وهي «صوفيا» والكلمة الثانية... اسمي فقط. المؤلفة من سبع كلمات لم أفهم منها سوى كلمتين.

وإليكم نص البرقية المرسلة من صوفيا:

ºChe remenci eurne sincommc lınr eatducon cors aseko...ª

لم تكن البرقية مكتوبة باللغة التركية قطعاً... حتى ولا تشبه اللغة الإنكليزية التي أعرفها. أخذتها إلى جاري مدرس اللغة الفرنسية في إحدى الثانويات. وقلت له:

ـ صديقي العزيز: وصلتني هذه البرقية من صوفيا... لو تتكرم بترجمتها لي.

ألقى مدرِّس الفرنسية نظرة على البرقية وتأملها جيداً، ثم التفت لصديقه قائلاً:

ـ هل أنت متأكد أن هذه البرقية باللغة الفرنسية؟

ـ نعم

ـ حسناً... كيف عرفت ذلك؟

ـ ثمة كلمة وردت في مضمونها تشبه كلمة (par)، وحسب معلوماتي أنها فرنسية.

ـ ولَك عيني... في البرقية عدة كَلمات... فهل نعتبرها فرنسية لمجرد وجود كلمة واحدة منها؟

ـ هذا جميل... ولكن برأيك... بأي لغة وردت هذه البرقية؟

ـ بكل تأكيد... باللغة البلغارية.

ـ لكني لا أعرف البلغارية حتى...

ـ معرفتك أو عدمها سيّان... المهم يجب أن نعرف من أرسلها.

ـ إذن لا تعرف البلغارية

ـ آسف يا صديقي: لا أعرفها...

ـ لكن كيف عرفت أن هذه البرقية باللغة البلغارية.

ـ لأنها مُرسلة من صوفيا... وهي عاصمة بلغاريا... والبلغار يتحدثون البلغارية.

ـ والله صحيح يا عمي... لماذا لم أفهم ذلك؟

أخذت البرقية إلى أحد المهاجرين البلغار... لما قرأها قال لي:

ـ هذه البرقية ليست باللغة البلغارية.

ـ الله... الله... ليست بالفرنسية ولا بالإنكليزية... وبما أنها مرسلة من بلغاريا... فبأي لغة يجب أن تكون؟

ـ قد تكون بالألمانية.

ـ ممكن جداً... ولماذا لا تكون بالألمانية؟

أخذت البرقية إلى أحد الشباب الدارسين في المعاهد الألمانية... قال لي:

ـ هذه البرقية لم تكتب بالألمانية، ربما تكون بالإيطالية أو الإسبانية.

ـ أجبته: وكيف عرفت ذلك؟

- لأن في نهاية كل كلمة حرفاً صوتياً.

- أليس من المحتمل أن تكون بالاسبانية؟

- محتمل جداً... وما الداعي حتى لا تكون...

صرخت بقوة:

- هذا غير ممكن... هذه مسخرة... إنسان بلغاري يرسل برقية إلى شخص تركي... فما الداعي لاستعمال اللغة الإسبانية؟

- من الجائز أن يكون هذا البلغاري يمازحك.

أخذت البرقية إلى إحدى مكاتب الترجمة... وبعد تقليبها تبيَّن أنها لم تكتب لا بالإيطالية ولا بالإسبانية... حتى ولا بأي لغة عالمية أو محلية أخرى.

سمع الناس بقصة هذه البرقية المرسلة إلينا... والتي لم يستطع أحد فك رموزها... انبرى الجميع لمساعدتنا أو للسخرية منا.. وبدأ كل واحد يجرب لغته... قال أحدهم:

- هل أستطيع إلقاء نظرة على هذه البرقية، التي لم يستطع أحد قراءتها يا سيدي؟ ربما أستطيع أن أقدم لك معروفاً.

- أشكرك جداً... وما اللغة التي تعرفها؟

- العربية

- ولماذا يرسل البلغاري برقية باللغة العربية يا سيدي؟

- إنها حال الدنيا... لا أحد يعرف لماذا... وما المانع حتى لا يرسلها باللغة العربية؟

توافد الناس إليَّ بالجملة. بعضهم يقول أعرف البنغالية والثاني يعرف الفنلندية... وآخرون كثر... من جهتي، شعرت بالفرح، لأن جميع لغات العالم بدأت تتقلص، بينما سادت اللغة التركية على جميع اللغات.

في أحد الأيام التقيت بشخص ادعى أنه يعرف ست عشرة لغة. هذا الخبير اللغوي لم يحضر كالآخرين من تلقاء نفسه. بل أحضرته شخصياً بعد أن زكّاه لي أحد الأصدقاء. قرأ الخبير اللغوي البرقية وبعد طول إمعان قال: هذه البرقية باللغة الكوبية... ارتجفت من الخوف. لأنه يكفي أن تصل الإنسان برقية أو رسالة باللغة الكوبية البلد الاشتراكي، حتى يصاب بآلام في رأسه، ويتعرض إلى ألف سين وجيم.

ـ حسن... وماذا تقول هذه البرقية التي وردتني باللغة الكوبية؟

ـ أجاب الخبير اللغوي: لا أفهم ذلك... فأنا لا أعرف الكوبية.

ـ حسن... وكيف عرفت أن البرقية مكتوبة باللغة الكوبية؟

ـ لأن البرقية تبدأ بعبارة she وكما تعرف أنها المقطع الأول لاسم تشي غيفارا.

ـ أرجوك يا سيدي... وما هو الداعي ليرسل البلغاري برقية بالكوبية؟

ـ هذا جميل... لكن البلغاري لا يعرف سوى الكوبية... فماذا يفعل يعني؟

في تلك الليلة، لم يغمض لي جفن... ولكن... عندما أعلمني خبير لغوي آخر... أن الكوبية هي الإسبانية... ارتحت قليلاً، وذهب الخوف عني.

ظن أحدهم أن لغة البرقية هذه ليست من لغات العالم... تكتب مشفَّرة... أو أنها لغة عالم آخر، أبتدعوها وأرسلوها لتكون صلة وصل بين الشعوب جمعاء. قد تكون لغة مقترحة لجمع العالم حتى يتحدثوا بلغة واحدة. هكذا دافع تفكيري عن ظنون الرجل أيضاً.

بحثت مطولاً عن أحدهم... يعرف تلك اللغة التي أطلق عليها اسم «سبارانتوجا»

ـ كلا... ليست هي...؟

هناك حلٌّ آخر، هو تمزيق البرقية والتخلص نهائياً من هذه العلة... لكن ربما تكون البرقية هامة جداً؟ اقترح عليَّ بعض الأصحاب والأصدقاء المقربين بأخذ البرقية إلى أحد الأشخاص المسنين الذين يعرفون كثيراً من اللغات المنقرضة، مثل اليونانية القديمة، واللاتينية، والسنسكريتية... ألقى الرجل نظرة طويلة ومتفحصة على البرقية ثم قال:

ـ أحاول عبثاً ترجمة هذه البرقية... لأنها ليست لأي لغة في العالم.

ـ لم أفهم... تريد أن تقول لي، أنهم سخروا مني، وقاموا بمزحة معي.

ـ لا... لا... أردت أن أقول لك إن هذه البرقية ليست إلا شيفرة مرمزة.

صرخت خائفاً:

ـ أمان يا إلهي... هل تقول شفرة؟

ـ نعم... لا أحد يستطيع حل رموز هذه الشيفرة، إذا لم يكن لديه مفتاحها.

برقية مشفَّرة وردت من بلغاريا.

وصلت إلى حالة هستيريا قوية... أدور في زوايا المنزل... الحيرة تتملكني... ماذا أفعل؟ العرق البارد يتصبب مني... وبينما أنا على هذه الحال... وإذا بالباب يُقرع... أي واه! ! لقد جاءوا... أوه... القادم صديق قديم كان يصرخ وهو يهز الورقة التي يحملها بيده.

ـ رذالة... رذالة...

سألته ناسياً مصيبتي:

ـ ماذا هناك؟ ما الذي حصل؟

ـ وماذا سيحصل أكثر من هذا ولك عيني... قبل أسبوع استلمت

برقية من أنقرة... تفضَّل واقرأها..!

حاولت جاهداً قراءة البرقية التي وضعها في يدي... لكنني لم أفهم شيئاً... كانت على الشكل التالي:

ºPar tidenis tiyorlarac cle gel esine oglu nase lamlarª

ـ سألني بالله عليك ماذا فهمت من هذه البرقية؟

آخر كلمة ربما تكون «سلاملر» أي سلامات... لكني لم أستطع فهم كلمة أخرى.

ـ طبعاً لن تستطيع أن تفهم شيئاً... لأنهم دمجوا الحروف مع بعضها. أنا الآخر لم أفهم، ولهذا السبب تراني أحترق...

ـ هل تحترق... من أي شيء؟

ـ لأن أحد الأصدقاء أرسل لي برقية قال فيها: «احضر إلى مركز الحزب حالاً». هل تعرف لماذا؟

لأنهم يريدون ترشيحي لمنصب وزير... فهل فهمت لماذا أحترق.

ـ حسن... ولماذا لا تذهب الآن فوراً؟

ـ إلى أين سأذهب... لم أفهم شيئاً من البرقية... مرَّت الأيام وأنا أحاول ترجمتها... طبعاً لن تظل الحكومة دون وزير خلال هذه الفترة... أتوقع أنهم قالوا فيما بينهم... لو كان يرغب بالوزارة لحضر فوراً. وبما أنه لم يأت... فقد أعطوا المنصب لشخص آخر.

ـ هذا جميل... لكن ثمة كلمات في نهاية البرقية esine oglu.

ـ معنى تلك الكلمات يا سيدي «سلامات إلى زوجتك وابنك».

في البدء... حسبت أن الرجل يشتمني... لقد غضبت كثيراً.

أجلست صديقي الذي أضاع الوزارة من يده... نتيجة برقية كتبت

بالخطأ... قلت له بعد أن هدأت ثورته:

- جاءتني برقية لم يستطع أحد في البلد قراءتها وحل رموزها.

- آمان بالله عليك... كن حذراً... قد يدعونك لتشكيل حكومة ما...

- لا ولك روحي... البرقية وردتني من بلغاريا... وبما أنه أصبح لديك تجربة بالبرقيات... خذ وحاول فهمها.

بعد قراءة متأنية... من الاثنين... استطاع قراءة البرقية المرسلة من صوفيا، وظهر أنها باللغة الفرنسية. وقد تداخلت الحروف ببعضها.

كان بعض أصدقائي من الكتاب البلغار، يطلبون مني مقالة لنشرها في جريدة «نارودونا ملداج» بمناسبة عيدها السنوي. لكن الأيام والأسابيع مضت، وأنا أذهب لهذا وذاك لقراءتها. كتبت برقية اعتذار للصحيفة ربما ينشرونها في عيدها السنوي المقبل. وبينما كنت في طريقي إلى البريد لأرسل البرقية. عاد عقلي إلى رأسي فجأة.. كم ننسى نحن البشر المعاناة التي تلمُّ بنا خلال أيام.. بقدر ما شعرت من ضيق وخوف من تلك البرقية التي وردت من صوفيا.والآن سوف ينتقل هذا الخوف والاضطراب إلى رئيس تحرير الصحيفة. لأنه بكل تأكيد، لم تتسع وتتطور ثقافة العاملين في كل من بريد صوفيا واستنبول خلال هذه المدة القصيرة.

في جميع الأحوال سيقوم عامل بريد صوفيا بتخريب النصف الأول وعامل بريد استنبول بتخريب النصف الآخر. من أجل ذلك عدلت عن إرسال البرقية. وكتبت بدلاً عنها هذه الكلمات: كل عام وأنتم بخير، أيتها الصحيفة الموقرة عاشت صحيفة «نارودنا ملداج».

٢٣

أخذنا بعقل الآخرين

استيقظت المرأة من نومها في الليل وقالت:

ـ لم أعد أستطيع تحمل نهيق هذا الحمار.

وجّه «زلفي» رفسة قوية إلى بطن زوجته صارخاً:

ـ نامي ولك مرا نامي... نهيق الحمار من جهة، ونهيقك من جهة أخرى... ما هذه الحالة يا ناس؟

أجابت زوجته وهي نصف نائمة:

ـ هل يستطيع الإنسان أن ينام يا رجّال. حمارك لا يترك مجالاً للنوم لأحد.

ـ أقول لك... نامي ولك مرا... غداً صباحاً إلى البلدة... ألا تفهمين الكلام... ألم أقل لك، ستنطلق مظاهرة وسأشترك فيها... سيأتي القرويون من جميع المناطق... ولك سنخرج باكراً... ألا تفهمين؟

ـ أنا أفهم الكلام... لكن من لا يفهمه ولا يخاف العصا هو حمارك.

ـ تذكرين الحمار ثانية.

ـ لست الوحيدة من يشتم حمارك. القرويون جميعاً يصرخون... /يا إلهي لقد احترقنا/.

هرب النوم عن عيون «زلفي» لغضبه الشديد من كلام امرأته.

ـ سنون طويلة مرت، ولم تعتادي على نهيق الحمار. ولك مرا... اغربي عن وجهي.

ـ وهل يعتاد الإنسان عادات الحمار. الحمار يجب أن يعرف نفسه أنه حمار /أو حمرنته/.. يجب أن يعرف وقت النهيق، ويختار الوقت المناسب. لأنه ما أن يهبط الظلام حتى يبدأ حمارك الأسود بالنهيق وفي أوقات متقطعة حتى الصباح... هذه العلة لا يستطيع أحد تحملها.

ـ ولك أنت امرأة قروية... لستِ من نساء المدينة... حتى لا تستطيعين النوم على نهيق الحمار.

ـ يعني أنك تستطيع النوم وأنت لست من أهل المدينة.

كان «زلفي» وزوجته يتشاجران كل ليلة بسبب نهيق الحمار الأسود. وفي الظلام دون إشعال النور. لقد ضاق القرويون ذرعاً بحمار زلفي الأسود. لأنه بمجرد حلول الظلام يبدأ بالنهيق. فتردد صدى نهيقه الجبال والوديان. عندها تبدأ السماء والأرض بترديد الصدى عدة مرات.

طلب منه أهل القرية أن يتخلص من هذا الحمار ويعرضه للبيع. حضر المختار والمعلم والبقال كل بدوره وقالوا اعرض هذا الحمار للبيع وخلصنا من بلائه.

تقول «بع» الحمار إنه أمر سهل جداً. لكن من يدفع مبلغاً جيداً لمثل هذا الحمار المريض الجربان. يحمل البلاء على رأسه. لقد عجز وشاخ... عميت عيناه... يعرج... ظهره مليء بالجروح والقروح. إذا وضعت أمامه ماء... يبدأ بالنهيق... وإن قدمت له عشباً ينهق ثانية. يبدو أن علة ما قد أصابته. فعند حلول المساء تبدأ العلة تتحرك في بطنه فيعود للنهيق.

الحقيقة أن هذه الأفكار لم تكن سوى مزاعم يختبئ زلفي خلفها. حتى لو حضر أحدهم بغرض شراء الحمار ودفع له المال، فهو لن يبيعه.

خدمه سنين طويلة... أخذ القمح إلى الطاحون، نقل الأغراض من

السوق إلى القرية والمدينة. حمله إلى الجبل والسهل، حرث به الأرض. إضافة لذلك فهو من آثار والده. لهذه الأسباب كان زلفي الطيب يتمنى أن يموت حماره في منزله. كل ليلة، كان يدعو الله قائلاً: «يا إلهي خذ روحه وخلصني منه». لو مات هذا الحمار الأسود... سيكون حزن زلفي كبيراً جداً عليه. وفي الوقت نفسه سيرقص فرحاً.

في كل ليلة يتشاجر الزوجان مراراً بسبب نهيق الحمار. يناමان ويستيقظان على الجدل والشجار. وكلما تكون الزوجة موشكة أن تغط في نوم عميق يبدأ الحمار بالنهيق. فتستيقظ كالمجنونة، صارخة في وجه زوجها:

ـ خلصنا من هذا الحمار... فتش عن من يشتريه لنرتاح.

ضاق زلفي ذرعاً بما يحدث له ولزوجته.

نهض من النوم مع زوجته قبل شروق الشمس... وطهت له حساء، وبينما كان زلفي يشرب الحساء، كانت أصوات نهيق الحمار تتردد في السهول والوديان... ارتدى ثيابه وخرج من المنزل. وصل المقهى والتقى بجمع يضم حوالي خمسة عشر رجلاً.

عندما لمحه المختار قال له:

ـ ولك زلفي... ماذا تنتظر؟... لماذا لا تبيع هذا الحمار... طفح الكيل... اترك القرويين يهنأون بنومهم بعض الشيء... العمى... إننا نعاني الأمرّين من حمارك هذا...

بينما كان القرويون قد اصطفوا على الطريق... يهمّون بالتوجه إلى البلدة للاشتراك بالمظاهرة والاستماع إلى خطب السياسيين. انبرى أحد الشباب قائلاً...

ـ ليكن... ما يكن. غداً سأقتل حمار عمي زلفي... وليحصل ما يحصل...

وافقه شخص آخر على كلامه وقال:

ـ اقتله ولك عمي... اقتله... والله ستنال ثواباً إذا نفذت قولك.

تدخل قروي مسن، عيناه غائرتان، ولحيته طويلة قائلاً:

ـ لا تعتقدوا أن حمار زلفي... من الحمير العاديين... إن الله الذي أعبده وأطيعه وأقدم نفسي قرباناً له... قد خلق لنا البلاء بهيئة حمار. وسلّطه على رؤوسنا... ليعطينا الدروس والعبر وعندما ينهق الحمار كأنه يقول: يا أهالي قرية «كاراباان». لقد سلّط الله على رؤوسكم هذا الشيطان الأسود، لأنكم لا تقومون بواجب العبادة التي أطلبها منكم، ولأنكم لا تحبون بعضكم.

وصل القرويون البلدة وهم في أحاديث طويلة وقصيرة من المزاح والسخرية على زلفي الطيب البسيط وحماره المزعج القميء. توافدت جموع القرويين من القرى المجاورة وملؤوا المقاهي والخانات. تجمع القرويون من قرية كاراباان في نفس المقهى.. وبدأ أحدهم يقرأ بصوت عالٍ خطاباً كتبه أحد السياسيين الكبار. سأل أحد المستمعين الشخص الذي يقرأ الخطاب:

ـ ولك.. ألا تعلم بأننا نعرفك على حقيقتك؟ وتعلم أنك إنسان حقير ومنحط. إنك نفس الإنسان السافل الذي نعرفه منذ مدة طويلة. لكن ماذا نفعل؟ لقد خدعنا الآخرون. فوضعناك في مصاف السياسيين الكبار، وأعطيناك أصواتنا.

قال زلفي باضطراب وهو يرتجف من الخوف:

ـ أمان.. ما هذا الكلام الذي يوجهه لكبير حزبنا.. ألا يستحي على نفسه وسط هذا الحشد من الناس.

أجابه الرجل:

ـ هل تقول كبير حزبنا... لماذا لا تقول رأسه الكبير.. كنا نعرفه على حقيقته منذ مدة طويلة. لكن ماذا نفعل.. لقد سرنا في تيار الآخرين، ولم نملك حريتنا في اختيارنا.

بعد قليل... أعلن المذيع في الراديو عن بدء نشرة الأخبار... بثت الإذاعة تصريحاً لأحد المسؤولين الكبار. نهض أحد الجالسين حول المذياع موجهاً كلامه للمذيع.. وكأن المسؤول يجلس أمامه وقال:

ـ تكلَّم... تكلَّم... تحدَّث بما يحلو لك... واخدعنا ثانية.. ولك.. نحن نعرف كم أنت إنسان مصلحجي قليل الوجدان والأخلاق.. نعرف لماذا وضعناك في هذا المنصب... لأننا أخذنا بخداع الآخرين.

بدأ الاجتماع في الساحة حيث تتوافد جموع القرويين مع مرور كل دقيقة.. توجَّه زلفي الأعرج إلى الساحة جاراً قدميه.. وسط الزحمة.. ووصل عمود الكهرباء وأسند ظهره إليه.

صعد المنصة الرجل الكبير الذي ينتظره القرويون.. اندفع صوته جهورياً قوياً من خلال مكبرات الصوت المنتشرة في أنحاء الساحة. كان يتحدث بطلاقة مؤثرة للغاية.. والقرويون يصفقون له مطولاً..

قال أحدهم وكان واقفاً إلى جانب زلفي، موجهاً كلامه للرجل الخطيب على المنصة:

ـ ولك... نحن نعرف حقيقتك... لا تعذِّب نفسك بكلام فارغ. لقد اكتشفنا ألاعيبك يا قليل الوجدان. حاول زلفي إسكاته قائلاً:

ـ أمان يا آغا... ما هذا الذي تقوله... هل نسيت أننا أعطينا هذا الرجل أصواتنا..

ـ نعم أعطيناه أصواتنا... لم نكن نملك حريتنا بيدنا.. ولو كانت لنا الحرية لما أعطيناه... لقد خدعنا الآخرون.

انتهى الاجتماع.. وعاد زلفي إلى منزله مساءً متعباً، جائعاً... خلع ثيابه واستلقى على الفراش. الواضح أنه لن يستطيع النوم جراء نهيق حماره.

عندها صرخ زلفي بأعلى صوته:

- عليَّ الطلاق... إذا لم أبع هذا الحمار.

هكذا أقسم زلفي وحلف اليمين الكبير... إما أن يبيع الحمار أو يطلق زوجته.

في صباح ذلك اليوم الذي لم يغمض له جفن فيه. نهض من فراشه مع إشراقة الشمس، وذهب إلى حماره، وجهزَّه وساقه أمامه إلى الطريق.. لم يرغب أن يمتطي ظهره خوفاً عليه من الموت قبل الوصول إلى سوق البيع.

وبينما زلفي يسير جاراً حماره خلفه بجانب المقبرة. التقى بأحد أقربائه البعيدين.

- إلى أين يا زلفي آغا؟ إن شاء الله بالتوفيق.

- أنا ذاهب إلى سوق البيع في المدينة مع هذا الحمار لأبيعه.

- بكم تريد بيعه؟

- ليعطوني ما يطيب لهم. فأنا أريد التخلص منه.

- أمان ولك زلفي.. هل أنت مجنون؟ هل من إنسان يبيع مثل هذا الحمار الأصيل بسعر بخس. انظر إلى حمارك جيداً ولك عيني... لو بعته بأقل من مائتين.. تكون غبياً جداً.

- اذهب يا روحي... ابعد عني... هل أنت تسخر مني؟

- والله لا أسخر منك يا صديقي... نعم مئتين.

- هل يساوي حماري مثل هذا المبلغ؟

ـ يساوي أكثر من هذا... لو أردت شراءه فلن تستطيع ذلك بأقل من خمسمائة.. هيا مع السلامة... وفقك الله..

تابع زلفي سيره في الطريق وهو يفكر في كلام صديقه... هل يسخر منه أم لا.. وهل يساوي حماره مائتي ليرة. وبينما كان سائراً مثقلاً بالهموم والأفكار التي تتنازعه ذات اليمين واليسار.. التقى بأحد القرويين الذي بادره متسائلاً:

ـ إلى أين يا خال زلفي.. في هذا الوقت الباكر؟

ـ إلى سوق البيع في المدينة لأبيع حماري الأسود.

ـ بكم تريد بيعه؟

ـ والله لا أدري... ما رأيك، لو طلبت مائتي ليرة.. فهل يكون ذلك كثيراً؟

ضحك الرجل من تحت شاربيه وبانت أسنانه المتعرجة المكسورة والمخلوعة وقال:

ـ أي مجنون يشتري هذا الحمار الجربان ويستخدمه؟ ربما يشتريه أحدهم لبيع جلده بخمس ليرات.

ـ هل قلت مائتي ليرة؟

ـ نعم.

ـ أنت مجنون يا خال زلفي

ـ ألا يساوي حماري هذا المبلغ؟

ـ وهل من المعقول أن لا يساوي... مثل هذا الحمار لا يباع بثلاثمائة ولا بأربعمائة.

ـ لا تقل ذلك؟

ـ هذا الحمار يباع بخمسمائة ليرة وفوقها يقبلون يديك. إياك، ثم إياك

أن تبيعه بأقل من ذلك.. هيا ليكن السوق مفتوحاً أمامك، مع التوفيق يا خال زلفي.

قال زلفي الأعرج في قرارة نفسه «آه يا حماري يا ذا العيون الكحيلة.. نحن لم نعرف قيمتك.. توه» قال ذلك وهو يدلك ظهر حماره، مقدماً له قبضة من الشعير.. ثم أخذه من رباطه وتابع سيره.

تقابل مع شخص لا يعرفه.. سأله الرجل لماذا تمشي ولديك حمار، أليس من الأفضل لصحتك أن تركب ظهر الحمار وتصل عملك وأنت مرتاح؟

ـ لأنني ذاهب به إلى سوق البيع... ولم أركب ظهره حتى لا يصل هناك متعباً.

ـ بكم تريد بيعه؟

ـ كنت أريد بيعه بمائتي ليرة، لكن القرويين عندنا نصحوني وقالوا: حرام أن يباع هذا الحمار بأقل من خمسمائة ليرة.

لم يفوت الرجل الفرصة ليسخر من زلفي.

ـ أمان يا صديقي... لقد خدعوك.

ـ أنا الآخر فهمت ذلك.. وهل يساوي هذا الحمار الجربان خمسمائة ليرة؟

ـ ماذا تعني؟ يقولون خمسمائة ليرة حتى يخفضوا سعره.. مثل هذا الحمار يساوي أكثر من سبعمائة ليرة. قالوا ذلك حتى يأخذوه منك بسعر رخيص... انتبه لنفسك ولحمارك، إنه حمار مدلل، لا ترخص بسعره.

ـ أوه، وماذا بعد.. يستطيع أي إنسان شراء حصان بسبعمائة ليرة، نعم حصاناً قوياً وفتياً.

ـ هل تقول حصان؟ ولك عيني ماذا يساوي الحصان عند هذا الحمار الأصيل؟ الظاهر أنك لا تفهم بالحمير.

ـ لا أفهم كثيراً.

ـ حرام.. لقد وقع هذا الحمار المسكين ضحية بيد إنسان لا يعرف قدره وقيمته. واه... واه... ولك عيني هذا الحمار لا يبدَّل بزوج من الأحصنة.. مثل هذا الحمار لا يستطيع أحد أن يجد مثله في كل وقت.

أخذ زلفي رباط حماره.. وتابع سيره في الطريق.. بعد فترة قصيرة التقى برجلٍ على حافة بئر. لم ينتظر الرجل الفرصة ليسخر من زلفي فقال له:

ـ هل قررت بيع الحمار بسبعمائة ليرة... وماذا بعد ذلك؟ لو بعته بأقل من ألف ليرة سيعلم الناس أنك مجنون.. يجب أن تضع هذا نصب عينيك.

ـ أنت تنصحني بالخير يا أخي... لكن هذا الحمار مريض، جربان، مسن، أعرج، وفوق ذلك ظهره مليء بالجروح والقروح... ألا تراه، إنه على وشك الموت... لو ركبت ظهره لسقط أرضاً، لا يقوى على السير.

ـ ليكن ذلك. إن ركوب مثل هذا الحمار ذنب كبير... حرام أن تضع على ظهره حملاً.

ـ وماذا سيحصل؟

ـ لو وقع هذا الحمار بيد طبيب بيطري أو ما شابه يفهم بأمور الحمير... سيأخذ منه لقاحاً. نعم هذا الحمار مخصص للقاح فقط.

ـ قلت خيراً، لكن حماري هذا لا يصلح لمثل تلك الأمور.

ـ ليكن، فإن كل عملية لقاح واحدة منه تساوي ألف ليرة.

تابع زلفي الأعرج سيره حتى وصل مشارف البلدة، وآماله تتجدد ببيع الحمار بسعر مرتفع. بينما كان سائراً شاهده رجلٌ جالسٌ في ظل شجرة ناداه:

ـ هل تريد بيع هذا الحصان؟

ـ أجاب زلفي: أنت تقصد الحمار.

ـ كلاًّ: أنا أسأل عن الحصان الذي تجرُّه خلفك.

ـ لا تسخر مني يا أفندم. هذا حمار ورثته عن أبي.

ـ ولك روحي.. بكل تأكيد هو حمار... لكن من الجريمة أن تقول حماراً لمثل هذا الحمار الأصيل.

ـ نعم: إنه أصيل.. الجميع يقولون ذلك.. مثل هذا الحمار لا يباع... ولكني حلفت الطلاق وأنا بحالة غضب ولا مجال عندي سوى بيعه.

ـ واه... واه... بكم تريد بيعه؟

ـ سأبيعه بألف ليرة.

بينما زلفي يتابع سيره وهو يقود حماره... كان الرجل يصرخ من خلفه.

ـ اطلب ألفين.. ألفين وخمسمائة.. هذا المبلغ قليلاً جداً أيضاً.

وصل زلفي الأعرج إلى البازار... لكن الندم أثر في نفسه، وبدأ يوبخه في أعماقه.. وكان يقول في قرارة نفسه:

ـ مثل هذا الحمار لا يباع بألفين ولا بثلاثة آلاف ليرة.

بينما كان الغضب الشديد يسري في أنحاء جسمه. تقدَّم إليه أحد القرويين وسأله:

ـ بكم هذا الحمار؟

أجاب زلفي الأعرج:

ـ هذا الحمار ليس للبيع.

ـ إذا كنت لا ترغب بيعه، لماذا أحضرته إلى السوق؟

ـ ولك عيني.. لا أريد بيعه... فهل يكون البيع قسراً؟ أليس هذا الحمار ملكي، أتصرف به كما أشاء فأنا لا أريد بيعه...

أخذ رباط الحمار وقفل عائداً إلى القرية... كان متعباً جداً، ولكنه بدا سعيداً. عندما شاهدت زوجته الحمار بدأت تصرخ، وتشد شعرها، وتضرب نفسها، وتقول:

ـ جاااال ولك رجّال... ألم يشترهِ أحد منك؟ ألم تستطع بيعه؟ إذا لم تقدر على بيعه، لماذا أعدته معك. ولك يا رجال، يا قليل العقل والفهم.. إذا لم يشتره أحد منك، لماذا لم ترمه في الهاوية وتتخلص منه.

كان زلفي الأعرج منهكاً من التعب والنعاس. ربط الحمار مكانه ودخل المنزل. قال لزوجته التي مازالت تصرخ.

ـ اخرسي ولك مرا... يا قليلة العقل... ليس الأمر كما تعرفين... لا وجود لمثل هذا الحمار الأصيل. فتشي العالم فلن تجدي مثله... كل من شاهدني يقول ذلك... كانوا على وشك أن يخدعونا لنبيعه. لا تلتفتي لكلام الجيران... فلأنهم لا يستطيعون تحمل نهيقه قالوا: بعه... بعه...

تناول عشاءه وذهب إلى فراشه... فتح مذياعه الذي يعمل على البطارية ووضعه قريباً من رأسه. كان أحد المسؤولين الكبار يتحدث في المذياع... أوشك أن يغفو... وإذا بحماره الأسود بدأ بالنهيق الذي يملأ الجبال والوديان.

تقلب زلفي يميناً وشمالاً في فراشه... ولم يستطع النوم لكثرة نهيق

حماره الأسود. نهض فجأة من فراشه واتجه نحو الحظيرة ووقف أمام الحمار وقال:

ـ ولك، أنا الوحيد الذي يعرف أنك حمار، لا أصل لك... ومع هذا أنت الحمار الذي أعرفه منذ وقت طويل. أعرف كل ذلك، ولكني أخذت بعقل الآخرين. سمعت كلامهم، ولم أستطع التخلص من مصيبتك.

عاد إلى فراشه. وأسكت الرجل المتحدث بالمذياع. إذ أقفله.

القسم الثاني
سيرة المشاهير

قد يشبّه القراء الأعزاء، الشخصيات التي في هذا القسم، لبعض مشاهير الشخصيات. وقد يظنون أنني أكتب عن هؤلاء. لكن تخمينهم غير صحيح، وغير خطأ.

إن أبطال هذه الكتابات الضاحكة أو الساخرة، هم من الشخصيات المعروفة والمشهورة. فقد حاولت رسم شخصيات جديدة، بالاستعانة بمقاطع صغيرة من حياة بعض الشخصيات المعروفة. ودمجها في حياة الشخصيات التي أتخيلها، فنتج عن ذلك أنواع من الشخصيات الكاريكاتورية الشاذة الجديدة.

لهذا فإن قرائي الأعزاء يقعون في الخطأ، عندما يعتقدون أنهم يعرفون هذه الشخصيات أو سمعوا عنها. لأن هناك مقاطع، وخطوطاً، وألواناً من حياة بعض الشخصيات الحقيقية التي يعرفونها عن كثب.

في حكايات سيرة المشاهير، لم أتدخل في حياة ومضمون الرجال الحقيقيين أبداً ولو بطريقة ساخرة. ولم آخذ الشخصيات نفسها بل مضمونها.

٢٥

الشاعر المعظم عبد المنظم

ولد الشاعر المعظم عبد المنظم في الأول من جمادى الأولى عام ١٠٨٩ للهجرة. الموافق ١٩ شعبان عام ١١٠٨ للأشهر القمرية، وفي ٣٠ تشرين الأول عام ١٣٠٤ ميلادية، وفي الثاني من كانون الأول عام ١٨٣٣ من التقويم الغربي. وفي الثالث من شوال عام ١٢٠٩ العربي، وفي اليوم الخامس والتسعين من ٢٩٤٥ الفارسي. وفي ٣١ آذار من عام ١٨١٨ الفرنجي. ولد في مشفى الأمراض العالية في الشعبة الثالثة. هذا ما يُفهم من السجلات التاريخية. أما بالنسبة للأدباء المؤرخين... فإن هذه الشخصية تولد في سبعة تواريخ وأماكن مختلفة. وهي الحقيقة ذاتها. فهم سبعة أخوة، لكن عبد المنظم غير معروف بين أخوته السبعة، لأن والده كان في حالة شرود دائم. ولم يثبت هذا إلا عند وفاة الشاعر المعظم عبد المنظم.

لقد خصَّص السيد «زكي أل يناق»، وهو من كبار الأدباء المؤرخين والمشهورين عندنا. ومن المدققين العظماء... وهو منسوب إلى طريقة «مولاوي». وقد خصص كتابه في البحث عن الشاعر المعظم عبد المنظم وخاصة تاريخ ولادته التي حصلت في ٨ ذي الحجة المصادفة ليلة الجمعة المباركة... فهل ولد في الساعة الثالثة إلا خمس دقائق، أم في الساعة الثالثة ودقيقتين. أي أن الكتاب مخصص لبحث هذا التاريخ. ومما يؤسف له، أنه أنهى كتابه دون التوصل إلى نتيجة قاطعة. وظل التاريخ مجهولاً

إلى يومنا هذا. أي هل وُلد في ٨ ذي الحجة في الساعة الثالثة إلا خمس دقائق، أم الساعة الثالثة ودقيقتين. وهذا ما يدعو للأسف الشديد أيضاً، باسم الثقافة والوفاء التركيين. يا إلهي ما أبشع هذا الشيء؟ لكن الأدباء والمؤرخين متفقون على ٨ ذي الحجة.

وبما أن والده شاعر، ووالدته شاعرة. فقد جاء عبد المنظم أديباً وشاعراً، ومفكراً منظماً لأبعد الحدود (رحمه الله). والدته الشاعرة الكبيرة والسيدة العظيمة «جافيدان هانم»، كانت قد نظمت هذين البيتين من الشعر وهو في بطنها.

يا قليل القسمة أحضرت معك زيادة في الأسعار والأسهمِ

ليتني لم ألدك لهذه الدنيا يا قليل الفهم يا عبد المنظمِ

ما أروع هذه الأبيات، إنها ترنيمة رائعة... كل حرف ينم عن الشفقة والحب العظيمان لوالدة كريمة، ينبض قلبها بحب ولدها عبد المنظم. (لقد ماتت المسكينة في مشفى النساء، ولم تكتحل عيناها بقصائد ابنها... رحمها الله).

والده، من أحفاد أصحاب الحواشي، والديوان العالي عبد التين أبو اللحم بالعجين (عبد التين من شعرائنا العظام في القرن الثامن عشر. فإذا مات رحمه الله، وإن لم يمت ليسّهل الله أمره). الشيخ الأستاذ ابن الميمنات جمهوت هملوت «من أموات العصر الأخير» كان قد ذُكر اسمه وألف مقطعاً مطولاً بحق والد الشاعر عبد المنظم، أبو اللحم بالعجين. هذه الكلمات:

شاعر مشربان... ظريف فوق العادة... قصير القامة... رجلٌ عارف... ظريف... شعرُه ملحمة تتناقلها الألسن... «دستان» اسم لقطته التي أحبَّها كثيراً. يردد دائماً ها ها. في الوقت الذي يجب أن يقول أفندم. أهدى قصيدة من شعره للوزير الكبير «بالابيك» الباشا مرتضى

لا تقل في بداية كل كلام ها هالا يوجد في لغتنا سوى توها ها

انظروا إلى البراعة اللغوية في هذا البيت، الظرافة، الفكاهة... الإنسان يعشق هذا اللسان ولكن للأسف أين ترنيمات هذا العصر... قليل جداً من الشعراء الذين يجيدون مثل هذه الديباجية.

لنتقدم بالشكر لوالد الشاعر عبد المنظم صاحب الديوان الكبير، الذي نظمه للوزير «بالايبك». وقد أغدق عليه الوزير من كرمه كيساً من الذهب لمدحه بهذه الأبيات:

لتتحول الحجارة إلى ذهب عندما تمسها يداك يا مرتضى باشا

في مشرق الدنيا ومغربها، شمالها وجنوبها لا يوجد مثلك.. حاشا

إذا ما فاضت روحك وجاءك عزرائيل ذات يوم يا باشا

حوِّله إليَّ ولا تخف، سيحتار العالم بأمره وشواشا

لنمت نحن.. وليفنى العالم، وتعش ألف عام.. رياشا

لقد ورث شاعرنا الكبير المعظم عبد المنظم، هذه القدرات الأدبية، والقلمية، والمعرفية عن والده. كان شاعرنا الكبير قد هجا في المدرسة معلم الهندسة السيد كوستاكي ببيت منالشعر كتبه على جريدة الحائط.

إذا تحوَّلت المراكب آدما تاكي عندها يكون معلمنا أدماً كوستاكي

وقد طُرد الشاعر الكبير عبد المنظم من المدرسة قبل أن ينال الشهادة لهجائه معلم الهندسة بهذا البيت. كذلك هجا قبطان البحرية آنذاك «ثريا باشا» وهو في سن الدراسة جاذباً الأنظار إليه:

املأ طاس والدك بالشرابفهو من جعلك قبطاناً في البحر

ظل الشاعر عبد المنظم عاطلاً عن العمل بعد فصله من المدرسة... لكنه بعد مدة أشاد المدرسة الأدبية المعروفة باسم «خزائن الجنون» مع اثنين من زملائه. وبعد خلافه مع زملائه، انفصل عنهم وغادر المدرسة، وأسس

المدرسة المعروفة باسم «الشفق الآتي».

وعندما أنّبه والده لإضاعة مستقبله. اشترك بالمسابقة التي أعلنتها وزارة الخارجية لاشغال وظيفة. وعندما سأله أحد أعضاء اللجنة الفاحصة الأفندي /عمانويا/ عن ترجمة جملة طويلة بالفرنسية، ومع أنه لم يفهم كلمة واحدة من تلك الجملة. فقد أهاب بحاسته السادسة ومزاجه الشعري الملهم: نعم سيدي Oui Monsieur. وبالصدفة الرائعة أعجبه هذا الجواب الصحيح. عندها تحدث المترجم عمانويل أفندي، وقال جملة طويلة بالفرنسية بمعنى أنه تم تعيين الشاعر عبد المنظم كسفير. وطلب منه استلام مهمته والسفر فوراً، وفي حال تأخره عن الالتحاق بعمله فإن مهمته ستلغى، ولن يستطيع قبض فرنك واحد. وأن حضرة جناب الملك المعظم، وضع تحت تصرفه مبلغاً كبيراً من المال... أما الشاعر عبد المنظم لم يفهم كلمة واحدة من هذا الحديث الذي قاله عمانويل أفندي باللغة الفرنسية. أجاب عبد المنظم شكراً جزيلاً Merci Beaucoup. وبما أن هذا الأثر التاريخي قد جاء في محله، فقد أعجب عمانويل أفندي بالشاعر عبد المنظم وذكائه وإتقانه اللغة الفرنسية وبكى دموع الفرح وقال: «لقد أحلَّ العثمانيون اللغة الفرنسية... وها هو عصر التجدد الآن».

بعد وصوله إلى فرنسا، ترك كتابة شعر الغزل، وبدأ يكتب شعراً جديداً من طراز آخر. بدأ يكتب الشعر مازجاً اللغة التركية بالفرنسية، وأطلق على هذه القصائد اسم «السونيات» ولنقدم للقارئ نموذجاً من هذه السونيات:

عندما كنت أقيم يا عزيزي في باريس
تعلمت الفرنسية بطلاقة من ثمانية دروس
وعندما كانت الفتيات والنساء يسرن هنا وهناك
كنت أنتظرهن صباحاً ومساء وفي كل وقت
تحدثت إحداهن... ما اسمك يا عزيزي؟

وعادت ثانية، بوجه بشوش تكرر سؤالها

آه لو لم تكن خالتي الخائنة عندي في تلك اللحظة

قالت: avec toute mon coeur سأكون معك يا حبيبي

تبعتهن وأنا ألف وأدور كالحلزون

أضعت طريقي... ولك عيني أين Ma maison.

هذه القصيدة التي تضم ثلاثمائة بيت هي الوحيدة التي كتبت في عالم الأدب والشعر باللغة (الفرنتركية).

لم يستطع الشاعر تحمل البعد عن الوطن. فقرر العودة وتزوج من ابنة بكر اسمها «هاجر». وعيّن في مصلحة (). أما المسكينة هاجر فقد صارت شهيدة الشعر لكثرة استماعها إليه. ماتت وهي في ربيع شبابها، ودُفنت في الصحراء الكبرى. أما الشاعر عبد المنظم فقد رثاها بقصيدة اسمها (توربا) وفيمايلي أهم مقاطعها:

ماتت معبودتي... أي وآااه

حرام على هاجر

أصابتها نزلة صدرية من كثرة المعجبين بإلقائها

ماتت والنافذة مفتوحة

يجد الرجل نساء كثيرات ليتزوجهن

ولكن أين لي مثل تلك الشجرة.

سقط غطائي وأصبحت عارياً

تدحرجت الطنجرة

أصبحتُ أعظم شاعر

شهرتي، نجاحي الباهرين

حرام على هاجر، حرام على هاجر

تأثر كثيراً وبكى طويلاً على فراق هاجر، وبما أنه لم يعد يعرف نفسه وتصرفاته، فقد تزوج مباشرة بعد هاجر. ولم يكتف بواحدة، بل تزوج ثمان مرات بعقد نكاح شرعي. وعشرات المرات بزواج غير شرعي. جميع هؤلاء الزوجات بقين أحياء ولم يشربن الأجل باكراً مثل هاجر. لذلك لم يقدِّمن الإلهام له بموتهن. وهكذا عاش الشاعر المعظم عبد المنظم بقية حياته في بؤس وشقاء.

كتب أكثر من ثمانية عشر عملاً درامياً بعنوان «الستارة البشرية». وقد اتضح بعد ذلك أنه تأثر لدرجة كبيرة بشكسبير الذي عاش قبله بمائتي عام.

من أهم قصائده تلك التي أسماها «هيجاني، فردوسي، حكمي». كتبها جميعها بلغة بارعة استعمل فيها العربية والفارسية إلى جانب التركية. ومع هذا لم يستطع أحد فهم القصيدة. لا العرب ولا الفرس، ولا الأتراك. حتى أنه شخصياً لم يفهمها. وقد كتب في تلك القصيدة مايلي:

«إنه شعر كامل لا تشوبه شائبة. صعب الفهم... أنا في حيرة من أمري... كيف وأنا من كتب طيلة ثلاثين عاماً، لا أقدر على الفهم».

وفيما يلي مقطع صغير من تلك القصيدة:

موتي... أمواتي... مماتي سمات

أين أنتِ... احضري يا سماحات

جو آنر... كندرست... دوبور

والذين مستي ي... بست ني. شاهي بابور

كان شاعرنا من أوائل الشعراء الذين ترنموا بالأوزان الحرة. مثل الحياة الزوجية الحرة. كتب الأوزان الحرة للسيدات الأحرار.

- يا روح روحي

- هووووو

- أين أنت يا هو

لقد أدخل كلمة البقرة لأول مرة إلى الشعر التركي... ممهداً الطريق لقول الحقيقة في الشعر دون تكلف:

الراعي يسرق الناي

الكلب يلحس دبره

الإنسان يطيل النظر

يا لهذا المنظر... يا لهذا المنظر

...

تأتي البقرة وهي تخور

ويذهب الثور وهو ينور

ويطيل الشاعر النظر

يا لهذا المنظر... يا لهذا المنظر

رحل الشاعر المعظم عبد المنظم إلى دار البقاء وهو في سن الرابعة والثمانين، أي في وقت عطائه الحقيقي. رحل مخلفاً وراءه فراغاً كبيراً في دنيا أدبنا (ليعفُ الله عن جميع تقصيراته... أمين).

إلى اليوم مازال الأدباء والمؤرخون منكبين على دراسة أعماله، ولم يستطع أحد فهم آثاره وكتبه الكثيرة... إنه شيء مؤسف جداً.

* ملاحظة: كتابات الشعر جاءت بالأسلوب العثماني. وحاول المؤلف وبدرجة عالية من الدقة استعمال اللغة العثمانية في الكتابة. وقد جاءت ترجمة هذه القصة بتصرف... حيث لا يمكن هنا إلا استخدام الأسلوب العثماني. ساخراً منهم لأبعد الحدود.

٢٦
دروس في الأدب

تطرقنا حتى الآن في البحث عن أدب الديوان وقدَّمنا أمثلة على ذلك. أما الآن، سنبدأ من القرن التاسع عشر، حتى إعلان الجمهورية. لنلقي نظرة إلى أدبنا خلال هذه الفترة.

هنالك ثلاث مدارس أدبية تأسست جميعها في هذه الفترة.

١ ـ أدب التأمينات. ٢ ـ أدب التنظيفات. ٣ ـ أدب التنويرات.

أدب التأمينات:

ظهرت هذه المدرسة الأدبية في القرن التاسع عشر، وسميت بهذا الاسم لكثرة الذين ساهموا بتأسيسها، والذين عملوا ضد السلطنة في سنوات شبابهم. ولكن بعد أن طعنوا في السن، وعادت عقولهم إلى رؤوسهم نالوا المراتب العليا بواسطة فرمان صادر عن السلطنة، وحصلوا على التأمينات مقابل خدماتهم لدى السلطنة والوطن.

أدب التنظيفات:

سميت بهذا الاسم، لأن القائمين على تأسيسها، كانوا على درجة كبيرة من الوعي الصحي. محبين للنظافة حتى الإفراط. مثلاً: أحد القائمين على تأسيس هذه المدرسة ويدعى «عبد الهام كامل» كان مفرطاً في النظافة، يغتسل ثلاث مرات يومياً بالماء والصابون.

أما الاسم الثاني لأدب التنظيفات فهو «أدب الخردة الجديد» ينتسب لهذه المدرسة الشعراء والأدباء الذين يعيشون على قاعدة «يوم جديد ورزق

جديد». وطالبوا بالدعوة لإقامة نظام جديد. لهذا كتبوا على مؤلفاتهم وأشعارهم «الأثر الجديد» لأنهم أقاموا عالماً جديداً في أدبنا أطلقوا عليه أدب الخردة (الأنتيكا) الجديد.

أدب التنويرات:

أخذت هذه المدرسة اسمها من أدبنا، لأنها جاءت بالضياء والنور. يعتقد أصحاب هذه المدرسة، أن الإلهام الأدبي والشعري لا يأتي للإنسان إلا في الليل. ولهذا السبب يشعلون المصابيح ليكتبوا على ضوئها. ومع أن كلاً من أدب التأمينات والتنظيفات قد خرج إلى حيز الوجود بتأثير المدارس الأدبية الغربية، إلا أن أدب التنويرات كان تأثير الغرب عليه طاغياً أكثر من المدرستين. لأن المتنورين كانوا من المؤسسين الأوائل في الغرب وما دخول الكلمات Mon cher amie صديقي العزيز، وMerci شكر، إلا بسبب استعمالهم من قبلنا. حتى أن الجيل القديم من الأدباء أطلقوا عليهم اسم «Mon pere» والدي، لهذا السبب صارت مدرسة التنويرات جسراً وممراً لأدب المستقبل.

لكن مع الأسف الشديد، بعد تبديل الحروف العربية باللاتينية أصبحت آثار كتابات «صالح شفقائي» لا تُقرأ أبداً. لنقرأ مقطعاً من رواية كتبها الأستاذ الكبير تحت عنوان «شاه زادة» واسم المقطع الذي سنقرأه // ناجارا... بيجارا... بيرايا...//. راقبت... ساكن... وقت... شامي غربيان... إذا كان محالاً لسان العصفور.

كان الوقت مساء. خرج الصديقان الوفيان، اللذان تآلف قلباهما، ثريا ورضا إلى السوق لشراء بعض الأمتعة. أما السبب الأهم لخروجهما هو التسلية وضياع الوقت.

وصلا «مرج لسان العصفور»، بدأ ثريا يراقب المارة، رآه رضا فقال له:

ـ أي، يا صديقي العزيز... يا رفيق روحي... لقد تملكني اليأس

والاضطراب لأنني لم ألتق مع كريمة «جارفا نازان» منذ مدة طويلة. فما هو الحل برأيك يا ضناي..؟ لقد تلاشى صوتي في الفضاء، هيهات.. ثم هيهات.

تأثر ثريا بصاحبه المدلل رضا، فقرر أن يقوم بمراقبة امرأة يوم الجمعة القادمة منذ الصباح حتى المساء. عندما وصل باب منزلها... كشفت له المرأة حجابها. كان وجه المرأة كالحاً، سوداء زنجية، تبتسم بظرافة، تنظر حولها بكبرياء. نقلت هذا الوضع لصديقي مرتضى.

في تلك اللحظة مرت أمامها عربة بداخلها امرأتان، إحداهما مدَّت يدها، مظهرة ساعدها العاري من كفها الوردي حتى المرفق. فقال رضا:

ـ آ ااااه... أي وااه. لقد أصيب قلبي بسهم في أعماقه. ما هذا الجسد الإلهي؟ قال ذلك وبدأ يطلق الآهات والحسرات.

عندما شاهده صديقه ثريا على هذه الحالة قال له:

ـ اصبر يا أخي العزيز، وتمالك نفسك... فإن لم تصبر تكون نهايتك مؤلمة. فالعشاق يقعون في أزمات نفسية وجسدية حادة... لا تضغط على شبابك، وإلا فالنتيجة تقع على والديك ويتعرضان لليأس والحزن.

كان ثريا محقاً فيما قاله. ولكن بينما كانا يتعقبان العربة. انهالت عليهما مجموعة من النسوة، بالأحذية، والشمسيات والجزادين، فنالا جزاءهما.

كان يجب عليهما أن يأخذا عربة ليتعقباهنَّ. لكن رضا الموظف لدى الباب العالي، والمعاون لوكيل الخارجية، لم يكن يملك مجيدياً واحداً. فقال لثريا:

ـ لوتقرضني يا أخي مجيدياً واحداً. فأجابه ثريا:

ـ لا أملك حتى ربع مجيدية...

وبينما كان يتجادلان عادت العربة ومرت ثانية من أمامهما. وفيما

كان رضا يشير بنزع عدة شعرات من شاربه. ظن سائق العربة أن هذه الإشارة موجهة إليه. فقام بتمسيد شاربه المزيَّت الناعم عدة مرات. وغمز بإحدى عينيه إلى رضا.

عندها قال ثريا:

ـ مالك ولهذا العشق يا صديقي العزيز. قبل عدة أيام تعقب أحد الأصدقاء امرأة... وعندما صار أمام منزلها دعته للدخول، ولما كشفت عن وجهها، ظهر أنه رجل من الأحناش، شاربه عريض وقال له: //بما أنك جئت، فالضيف لا يأكل ما يطلبه، بل من الموجود//. لهذا فأنا شخصياً صرفت النظر عن هذه الملاحقات.

ردَّ رضا بقوله:

ـ أنا مستعد لتحمل الضرب من سائق العربة لأجل هذه الجميلة. يكفي أن أرى وردة جمالها مرة واحدة. وأضع يدي على وجهها، أمسح شعرها. ولتكن روحي فداء لهذا العمل. ولن يستطيع أحد ردعي لا سائق العربة حتى ولا عزرائيل.

وعلى الفور قطف زهرة قرنفل أحمر من ضفاف البوغاز، وشمَّ رائحتها ثلاث مرات. وهذا في عُرف الحب معناه //أيتها الظالمة، لقد جرحت قلبي المجروح بثلاثة جروح، وقطعته إرباً إرباً//.

فهمت الفتاة في داخل العربة هذه اللغة الإيمائية، فأخرجت منديلها الأبيض، ونشرته على شمسيتها الوردية وأومأت له بثلاثة إشارات. إثر ذلك قال ثريا لصديقه:

ـ ولك ابني، يا رضا، أنا لم أرتح شخصياً لإشارة هذه الشمسية. فأجاب رضا:

ـ إن هذه الحركة بلغة الحب تعني //ألا يكفيني ما نلته منك أيها الخائن//.

في هذه الأثناء سقطت وردة من العربة على الأرض. تناولها رضا، وشم رائحتها، ثم وضعها فوق قلبه. ليشعر بالحب الحقيقي. تابعت العربة سيرها، فشرع الصديقان بالجري خلفها، لكن محاولتهما ذهبت أدراج الرياح. فالحماران كانا يجريان بسرعة، وهما يلهثان كالكلاب من التعب. فجلسا على حافة الطريق، وبدأ رضا يئن ويندب حظه كالمجنون ويقول:

ـ سيكون هذا العالم سجناً لي بعد الآن، والحياة أضحت حراماً عليَّ. وحاول الانتحار فوراً. لكن ثريا قال له:

ـ أي يا مون شيري /يا عزيزي/. لا تفعل ذلك بنفسك. لنقم ببعض التحريات، لربما نعثر على أثرها ونتوصل إليها. وبعدها تحصل على مرادك. لا تقسُ على نفسك يا مون شيري /يا عزيزي/.

أثَّرت هذه الكلمات الناعمة والهادئة برضا كثيراً. فأضحى هادئاً، ناعماً، راضياً حملته الآمال على أجنحتها فوق الأفق.

أمضى رضا فصلِ الشتاء بين الآه والأوه. وبصيحات الأمل «آه من الحب». وعندما حلَّ فصل الربيع، وبينما كان الصديقان يسيران إلى جانب جدول ماء يبحثان عن رزقهما... أحس رضا أن مثانته امتلأت بالبول، فابتعد عن رفيقه إلى جذع شجرة لقضاء حاجته... وفجأة مرَّت تلك العربة. لملم بنطاله بسرعة، وركض باتجاه رفيقه واستقلا عربة متعقبين سابقتها التي فيها حبيبته.

عندما اقتربت عربتهم من السابقة، تناول رضا من جيبه ورقة وردية اللون، أحضرها خصيصاً من ميلانو مكتوباً عليها رسالة حب. مدَّ يده وقدَّمها للمرأة التي من المحتمل أن تكون هي وجدتها.

وقفت عربة السيدة أمام قصر مطلي بلون الطحين... كان الليل يرخي سدوله. فتح الخادم باب القصر للفتاة المرحة وجدتها. كانت الجدة ترتدي مشلحاً مخرماً، أما الفتاة فكانت ترتدي معطفاً طويلاً. بعد برهة قصيرة،

اشتعلت الأنوار في الطابق الثاني من القصر. وبدأت الموسيقى الرومانتيكية، تنطلق من آلة البيانو. وتتوزع في أرجاء القصر، فتحيله إلى دنيا ساحرة. كانت موسيقى شوبان، تتسرب هادئة من داخل القصر. وصوت نسائي عذب يملأ العالم الرحب. لم يعد باستطاعة رضا أن يتحمل أكثر، وبدأت الدماء تنفجر من عينيه بدل الدموع: كان حزيناً... مضطرباً بشكل لا يوصف... آه... يا للعذاب... آمان يا ربي.

وبينما كان رضا في حالة حزن شديد، تقدم منه ثريا قائلاً:

ـ ابتعد ولك رضا... لقد فُتح باب الحظيرة، وظهر سائق العربة بشاربيه... فالرجل قادم، هيا لنهرب.

وما كاد ثريا ينهي كلامه. حتى بدأ الحب الأفلاطوني بالاضمحلال. وهنا صبَّ ثريا الزيت على مفاصله وبدأ يسابق الريح. وتبعه رضا.

فهل يعرف الحب مانعاً؟

في نهاية المطاف التقى الحبيبان في فندق «اسبلنديد» في الجزيرة الكبرى. كان فستان الفتاة يتماوج مع نسيم الصباح. وبما أن الحركات بدأت تزداد، قالت وهي لا تستطيع التحمل أكثر:

ـ الهواء بارد... أعماقي ترتجف من البرد.

أما رضا فقال:

ـ آآآه... هذه الكلمات عميقة جداً... ودخل معها إلى الغرفة... واه... واه... يا هيفاء...

عندما صارا داخل الغرفة، قال رضا وهو يحترق بنار العشق والهيام:

ـ آه بيارا... سنوات طويلة وأنا أنتظر هذه الفرصة.

أجابت بيارا:

ـ أنا عذراء أرجوك لا تظلمني. قبَّل رضا خدودها وراح في شرود عميق.

قالت بيارا وهي تنظر من نافذة الفندق إلى طريق العشاق الكائن في الجزيرة:

- انظر إلى هذه الدينة كم هي حزينة؟

أجابها رضا:

- يا معبودتي. لقد جاء وقت الطعام. هيا لنأكل.

قالت معبودته

- إن مربيتي «أنجيل» تمنعني من أكل الخردل.

ضغط زر الجرس ونادى الخادم طالباً منه زوجاً من اللحم بالعجين. إنه قليل الكلفة رخيص الثمن، لكن اللحم بالعجين غير موجود فقال الخادم: يا سيدي ما رأيكم لو أحضرت لكم «شاتو بريان» إنه «تري جولي» جميل جداً ومن ثم كبير.

أجاب رضا الذي يتكلم الفرنسية على أكمل وجه

- «ميرسي مسيو» شكراً يا سيد أحضر منه.

بينما كانت بيارا تراقب زرقة بحر مرمرة من خلال النافذة. أخرج رضا من جيبه حبوباً ووضعها في صحن بيارا. هذه الحبوب منشطة جنسياً للغاية. عندما تناولت المسكينة بيارا أول لقمة غابت عن وعيها. فهجم عليها رضا كالوحش الكاسر. عندها صرخت بيارا وبدأت تبكي وتتألم. كانت الطبيعة تشاركها ألمها، أوراق الأشجار تتساقط على الأرض...

واه... هيفاء... هيهات...

قالت بيارا التي كانت في نصف غيبوبة، وتعاني العذاب:

- لا تفتح دفتر آمالي أيها الخائن، لقد حملت منك أيها الواطي.

في هذه الأثناء تمدد رضا على الأريكة وكأنه قائد انتصر في المعركة، ينفث دخان سيكارته.

قالت بيارا:

ـ قل لي أيها الظالم... لم أكن أنتظر فعلك الشنيع... هيا تكلم... وشرعت بالبكاء.

قال رضا متأثراً من كلامها بعد أن أصابه عذاب الضمير، فركع تحت أقدامها

ـ اعفي عني يا معبودتي، يا حياتي.

لكن بيارا قالت:

ـ لقد لطخت سمعتي، وهتكت عرضي.

ـ أجابها رضا

ـ لا تهتمي بالأمر يمكننا إزالة كل ذلك عند الطبيب

لكن بيارا أجابت

ـ لم أتوقع منك هذا الفعل الدنيء. وبما أنك فعلت بي ما فعلت يجب أن تتزوجني.

قال رضا وقد اهتز وجدانه.

ـ آسف... هذا من رابع المستحيلات، فأنا متزوج وصادق مع زوجتي. لا أستطيع الزواج بك ولا أفترق عن زوجتي، لأن حماي من كبار الضباط، منحط لأبعد الحدود، وأخشاه كثيراً.

عندها دخلت المسكينة إلى المرحاض وبعد أن صرخت الوداع. شنقت نفسها وماتت المسكينة ذليلة...

لنأت إلى جليلة، ستسألون من أين خرجت جليلة هذه؟ لأن أحد أسماء رضا... جليل، يكتب الشعر بهذا الاسم.

بعد هذه الفاجعة، كتب رضا إلى زوجته رسالة ألم وحزن.

«رفيقة حياتي وسبب مماتي... أنهي حياتي تكفيراً عن ذنوبي، والعصا الفضية أتركها لك ذكرى للأبد. والآن الوداع... أنتظرك بسرعة».

أما الزوجة التي قرأت الرسالة، فقد ماتت فوراً، وانتقلت للدار الآخرة... واه يا مسكينة بيارا.

وكما قلنا سابقاً، فإن أدب التنويرات كان بمثابة جسر بين أدب التنظيفات من جهة وأدب ما بعد الجمهورية من جهة ثانية.

وأياً كان الأمر فإن أدب التنظيفات، ظل إلى حدٍّ ما متخلصاً من تأثيرات أدب التأمينات، لكن آثاره ما زالت باقية بشكل ضعيف.

لقد تخلَّص أدب التنويرات في مضمونه من المناظر الطبيعية، ودخل في طريق أحدث. لقد أوضح الأستاذ الدكتور أحمد أصلان أوغلو في كتابه «الأنفية في شعرنا» حقيقة هذا الشعر بشكل بديع للغاية. وأخذت الأنفية مكان الرمزين القدامى «الورد والبلبل». حتى أن أوزان الشعر «أرزو» قد أهملت لدى بعض الشعراء. واستعمل بدلاً عنها تفصيلة الهجاء، ولكنهم لم يتركوا أسلوباً وطرازاً للقصيدة.

لنأخذ مثالاً على ذلك «الأنفية في شعرنا» وهي قصيدة للشاعر فاضل زلفي نشرها في مجلة الشفق الآني، والمجلة تابعة لجماعة الأدب الخردة (الأنتيكا) الجديد. حيث تعرضت هذه القصيدة إلى هجوم عنيف من جماعة شعراء أدب التنظيفات.

وفيما يلي بعض المقاطع من الأنفية الشعرية:

الأنفية تعطي الخشوع لدماغ الشعراء
ثم تسيل القصيدة من أنفه هاتشو.. هاتشو
السعال، البلغم، العطس، البصاق
جميعها مواد الإلهام في قصيدة الأنفية.

تخلص الشاعر من المكنسة بالعطس الأنفية
في دكان احتشد فيه العاطلون، وسوق بازار الحمير
إذا ما سحب الشاعر في كل هزة من قرعته
يفتح طير الإلهام ذهنه على الفور
بعطسة، بهزة. نعود لأنفسنا
وما الأنفية سوى طريق لخلاص هذا البلد الفقير
يجب أن يكون صبي وفتاة... يجب أن يكون جواري وغلمان
يجب أن تصوب أنفك إلى الحبيب عند كل عطسة بواسطة الأنفين.

٢٧

من أساتذة أدب آتيكا
الأديب اللبيب رؤوف صفوت أفندي

يعد الأديب رؤوف صفوت أفندي من أعمدة أدبنا الأساسية، ومن المبشرين بأدب الغرب. ١٨٠٠، ٤٠ ألف وثمانمائة ونصف. وقد شرَّف الدنيا في مشفى «حاسكي نيسا». لكننا مع الأسف الشديد، لا نملك أية معلومات وافية وكافية عن عائلته. ظلت شجرة عائلته مجهولة. ومع هذا فقد استطعنا الحصول على بعض المعلومات من خلال كتاباته وآثاره. إنه سليل حسب ونسب عائلة أصيلة هي عائلة «نجباتي».

ومن المعلومات التي عثرنا عليها أيضاً... أنه تعلم اللغة الفرنسية على يد مربيته الأرمنية، مريم والتي ينادوها «ماري» وتربى في البيت والمدرسة تربية غربية.

أتم تعليمه الابتدائي في مدرسة «تراقي إزان.. صبي صبيان». ودرس لمدة قصيرة في مدرسة «سان راشل» لتعليم اللغة الفرنسية. فأخذ الكفاية منها ونجح في تعلم بعض الكلمات منها مثل «أون، دو، تروا» (١، ٢، ٣) عددياً. و«أوفري لا بورت» (افتح الباب) و«فيرمي لا فونيتر» (أغلق النافذة) و«فوالا مون جاكت» (إنظر إلى جاكيتي) و«وي مسيو» (نعم سيدي). وترك المدرسة وصرف النظر عنها، مكتفياً بما تعلمه. وقبل وصوله إلى سن الرشد، شرع بالعمل في «قيراط خانة» أي «قهوة خانة» التي كان يملكها العجمي سلمان العسكر أفندي. وهناك أكمل تحصيله الأدبي

والفني، على أيدي كبار الأساتذة الذين كانوا ينشرون أحذيتهم هناك.

لم تكن تلك «القيراط خانة» أو «المقهى خانة»، تشبه أبداً المقاهي التي تقدم القهوة والشاي في العصر الحديث. والتي يملكها العجمي سلمان العسكر... ولكنها بالنسبة للشباب تعتبر مدرسة للأدب وتخريج الأدباء. فيها الأدب المؤدب. تقدم فيها القهوة والشاي والسحلب. فهي ملتقى الشباب مع «بير إخوان». وكان الشباب يأخذون الدروس والعبر من كبار الأساتذة والفنانين.

وكانت «قهوة خانة» التابعة للعسكر الأفندي بمثابة أكاديمية لدى الغرب. وتشبه إلى حد ما.. شركة استشارية عامة وملتقى أدبياً وفكرياً لمجموعة كبيرة من الأدباء.

ومن الأدباء الكبار الذين كانوا يحضرون تلك الاجتماعات في تلك «القيراط خانة» والتي كان يملكها «العسكر أفندي». ويداومون فيها. المرحوم «ابن ليمانت» و«محمود جمال» وحضرة الشيخ البصري «أنفيياكش» و«مهوبارستي تراس علي درزي» والسيد «أمين حجي دوبي عساف» وهو رئيس لجمعية «سمك خانة» والسيد «استفانكي» مدير الديوان العمومية.. والسيد محي الدين رفيق صاحب الديوان. وصاحب الذوق السليم السيد منصور. ومؤلف كهكشان غرام السيد خالد نزيهي. ومبدع طبق اللحوم السيد محمد بحري. ومدير بير السلطانية السيد جبروت. ومعلم اللغة العربية نصر الله أفندي. ومن المتصرفية المالطية قدرت باشا. ومن الأدب الملتزم المعلم السيد ديدون... وغيرهم.

وهكذا كان رؤوف صفوت يحضر تلك الاجتماعات ليتعلم ويستفيد من هؤلاء الأساتذة الكبار وهو في سن الشباب المبكر جداً. وبما أن التربية والأخلاق ذلك الزمان، توجبان حب الكبير للصغير واحترام الصغير للكبير. فقد كان الأساتذة الكبار يحبون رؤوف، ويفصحون عن أقصى

المحبة لرؤوف الصغير. وهو بالمقابل كان يحترم الكبار ملتزماً السكوت والصمت دائماً بحضورهم.

وهكذا اجتاز رؤوف صفوت تلك المرحلة في «قيراط خانة» العسكر الأفندي. وتعلم الكثير من أساتذته... لكنه لم يستطع تحمل عنف وضغط الإخوان «كلهانة زادة»... فصار يقابلهم عنفاً بعنف. وفي النهاية كتب الأستاذ الكبير بحقه هذه الأبيات:

«عندما كان طفلاً هرب مني كالغزال

أما الآن فقد ناهز عمره الخامسة والأربعين

وهذا يعني أنه أصبح /عكس الغض/ غليظاً أو..

وصار يسابق الريح بعد أن حصل ما حصل»

وكان الشاعر يونس رضا، متفاهماً مع زميله وقريبه رؤوف صفوت إلى أبعد الحدود... وبينما هما في هذه الحالة من العلاقة الحميمة. إذا بالشاعر يونس رضا يتعرف إلى أميرة مصرية تدعى «نوران». ويكتب لها بعض القصائد، وضمَّها إلى ديوانه المسمى «الإجتمال»... يتساءل في مطلع قصيدته بهذه الكلمات «بكم كيلوغراماً تقدرين غرامك في قلبي». وحصل يونس رضا على حق تأليف تلك القصيدة. وحسب إحدى الروايات فإن الشاعر يونس رضا أقنع الأميرة على بيع محل ضخم كانت تملكه. وأسس بالمال الذي أخذه بالتعاون مع صديقه رؤوف صفوت المجموعة الأدبية تحت اسم «كول جمال». لتنافس المجموعة الأدبية الشهيرة في ذلك العصر والمسماة «نفين حال». وكان الأدباء الشباب المحدثون الذين التفوا حول رؤوف صفوت، يناقشون بعصبية بالغة أدباء مجموعة «نفين حال».

وانبرى الأستاذ العلامة «هرجا إزادة» المكرم... للدفاع عن الشباب بشدة. ووسط هذا الجو العاصف، نشرت مجموعة «كول جمال» مجموعة من القصائد التي بدأت:

«اللام على اللام
والجيم على الجيم
تفضل يا أبي جيم» (يا أخي الكبير)

لقد تسببت هذه البداية بارتفاع حرارة تلك المناقشات. وكان الأديب المشهور آنذاك «سليمان نافذ» الذي كانت النار تخرج من قلمه قد كتب مقالة هاجم فيها وبعنف شديد مجموعة الشباب وديوانهم الشعري «كول جمال»...

«الأدبية معناها الأدب، يعني مكتب الأدب، والمؤسس الأدب. والأدب يعلو بالأحاسيس... ويرفع المعنويات... وعمل هؤلاء الشباب... ليس إلا خرى بخرى» (عفواً). هذه المجموعة خرجت ودون حياء. من صميم الأدب وقائلة «اللام على اللام والجيم على الجيم» يحاولون وبكل حقارة إدخال هذا الكلام التافه إلى ساحة الشعر. هؤلاء الكبار أولاد الكبار يجب توقيفهم وتعريفهم حدودهم الأدبية، ولك هذا أدب يا أولاد الذواتية؟... وبما أنهم مجموعة من الجهلة. فإنهم يحسبون خطابنا نوعاً من الإلتفاتة المحببة. توهٍ على وجوهكم! »

نُشرت مقالة الأديب الكبير سليمان نافذ في مجموعة «كول نيهال» وكانت كل كلمة فيها أشبه بسوط يضرب وجوه الشباب.. وكان تأثيرها كبيراً في عالم الأدب آنذاك.. الأمر الذي دفع رؤوف صفوت ممثل الشباب للقيام بهجوم معاكس في مقالة كتبها ونشرها في مجموعة «كول جمال» أنزل بها الأستاذ الكبير إلى الحضيض. وكأنه أسقطه عن ظهر الحمار وهزأه شر هزء. وأصبح في حالة مزرية جداً. هذه المناقشات والصراعات الكلامية الشديدة. أغنت أدبنا كثيراً... ولكنها آلت إلى نهاية حزينة جداً.

في إحدى الأمسيات، بينما كان سليمان نافذ منحدراً من طريق

«بابلي» ممسداً ذقنه. وفجأة، ظهر أمامه رؤوف صفوت... فما كان من الأديب سليمان نافذ إلا أن مدَّ عكازه إلى الأمام متجهاً نحو رؤوف صفوت يريد مهاجمته... ومن شدة غيظه وقفت شعرات ذقنه وأصبحت كالإبر تريد لسع رؤوف صفوت... إلا أن الأديب اللبيب رؤوف صفوت... هرب أمامه لا يلوي على شيء... وهو يصرخ «يا حبيبي... يا حبيبي» وظل يركض حتى دخل أحد الخانات وسليمان نافذ يجد في أثره... أما ما جرى بعد ذلك داخل الخان، ظل مجهولاً في تاريخ الأدب حتى الآن. ولكن بعد نصف ساعة. خرج الاثنان وهما في حالة وفاق تام، يوزعان الابتسامات على من حولهما.

(تقول الروايات أن سليمان نافذ شدَّد الحصار على رؤوف صفوت في إحدى غرف الخان. وظل يضربه بعكازه حتى انهار رؤوف صفوت.. ولكن هذا الادعاء لم يستند إلى وثائق رسمية. ولهذا لم يؤخذ بعين الاعتبار).

ويعد رؤوف صفوت من أوائل الروائيين الرومانسيين في أدبنا، تأثَّر بفيكتور هيجو. وتعد روايته «هرجائي رجائي» من أولى الروايات في أدبنا، التي كتبت بالأسلوب الغربي. أما روايته «المسكينة نجمية المجنونة» فهي رواية رائعة، والأولى من نوعها في أدبنا. تحكي قصة انتحار نجمية المجنونة ابنة عائشة والتي شربت ماءً مغلياً. في هذه الرواية ينزل السيد رؤوف صفوت من عرشه إلى المستوى الشعبي في أسلوبه، حيث استعمل ولأول مرة كلمة «أباغومجي». وهكذا يكون رؤوف صفوت قد ابتدع نوعاً من الأدب الشعبي والأسلوب الشعبي باستعماله تلك الكلمة.

ومن أهم آثار الأديب اللبيب رؤوف صفوت «هرجائي رجائي»، «المسكينة نجمية المجنونة»، و«أفلاطون وفستقه»، و«معاجلة الأجل»، و«المذهل المؤبد»، و»داوم أيها المجنب».

وبما أن رؤوف صفوت يحرك يديه دائماً عند حديثه، ويهوي

الشراب... فقد دفع الناس إلى عدم احترامه وتقديره. وبهذا بقيت شخصيته غامضة، وغير قابلة للفهم في ذلك الزمان. مثله كغالبية الفنانين، أمضى حياته الأخيرة في الفقر والسفالة والفاقة. حتى أنه لم يكن لديه المال لدفع أجرة الفندق الذي ينام فيه في أكثر الأحيان... يظل قابعاً رهن غرفته حتى يؤمن الإيجار. وقد اغتنم أصحاب دور النشر فرصة إفلاسه فاشتروا منه رواياته بمجيدية واحدة وحتى أقل. والتي يناهز عدد صفحات كل واحدة أكثر من ألف صفحة.

عندما توفي المرحوم لم يكن في جيبه سوى خمس بارات... وزراً قديماً، ومنديلاً مستعملاً منذ مدة طويلة، وقلم رصاص.. ومشطاً قديماً جداً مكسوراً وقذراً، وطاقم أسنانه. هذه الأموال والأوراق المتروكة لم تُبع حتى في سوق البراغيث، ولا سوق الصفحات ولهذا تركوها في متحف «أدب أتيكا».

ومع أن المرحوم بنى مدرسة للجيل القادم، إلا أنه اضطر لفراق الأصدقاء والوطن لمدة طويلة بسبب بعض النسوة ولعب القمار.

ويعد رؤوف صفوت من أهم مؤسسي وبناة مدرسة «أدب أتيكا». كان يعرف الفرنسية على أكمل وجه. إذا صادف فرنسياً فإنه من نظرة واحدة يعرف طلباته ومراميه... وكانت لغته التركية جيدة... سيبقى اسمه ناصعاً في سجل تاريخ أدبنا... ولن يستطيع أحد ملء الفراغ الذي أحدثه برحيله الأبدي. لكن الشيء المحزن. أن أحدا لم يقرأ شيئاً عن هذا التراث والتاريخ الأدبي.

لاحظ هذا النص العثماني. طبعاً على لسان عزيز نيسين:

إشتي رؤوف صفوت بو استادليرن صحبتي أدبيتلرندة إستفادة غايسي إلا. دها دفري شبابتندا و وقتي صبوتندا (صبوة). أو زمانن تريسي إيجابي أولارق بيوكلارا حرمت كوجكلرا محبت أو صولو جاري أولدوغندن أستادلر رؤوف صفوتة فوق العادة محبت إبزال أيلدلر.

٢٨
السيد حاجي فائق

يعد حاجي فائق من الموسيقيين الاستثنائيين في موسيقانا ومن كبار أساتذة الفن. فرض قوته، وقدرته، صوته وألحانه منذ ولادته أولاً على الطبيب الذي أشرف على ولادته. وعلى الحاضرين من أقرباء والده وأمه آنذاك. كان والده موسيقياً رفيعاً... متوتراً.. شقياً. ينهال ضرباً على فائق الصغير وهو في المهد.

تعلم فائق الصغير أصول الموسيقى منذ نعومة أظفاره بالبكاء. في أحد الأيام ضربه والده ضرباً شديداً فأطلق فائق الصغير أصواتاً ملأت الأرجاء، سمعها المارة على بعد شارعين من منزله.

سمع الأستاذ الموسيقار الكبير «سازائي بابا». صوت فائق لأول مرة... وبعد تحرٍ قصير استطاع «سازائي بابا» كشف مصدر الصوت... أي بيت فائق. وعندما ذهب إلى هناك سأل والد فائق الصغير «هل هذا الصوت صادر من مقام جورجونا؟ أم من مقام عجم آشيران. أم كردقاجيران؟»

غضب والد فائق غضباً شديداً (وكان مصاباً بالسكري) عندما سأله (سازائي بابا) هذا السؤال. وحمل عكازه وتوجه نحو «سازائي بابا» بقوة وهو يصرخ في وجهه «ولك.. (المعذرة) بعد قليل تفهم ماهية المقام». عندها قال له «سازائي بابا».. ولك ما من أحد إلا ويعرف مقامي ومسكه من ياقة قميصه. انتزع والد الصبي نفسه.. وولى الأدبار.

ولكن «سازائي بابا» كان شجاعاً جداً. حاول المستحيل كي لا يلحق

الأذى بصوت فائق الصغير. وبعد أن تعرَّف إلى عائلته.. ونال رضا والده.. بدأ يعلم فائق الصغير الموسيقى. حتى أن الموسيقار الكبير «قنديللي قنديل صلاح الدين» اهتم كثيراً بهذا الكشف الموسيقي الباهر. وشغل فائق حياته فائق وشبابه بالموسيقى حتى السادسة عشر من عمره.

وبعد أن درس فائق الموسيقى على يد هذين الأستاذين الكبيرين. انتقل إلى مدرسة الأستاذ الكبير «عودي زكي».. وكان يميل إلى العزف على العود كثيراً. وبعد أن تعلم الدروس الوافية... أقام حفلته الخصوصية الأولى في خان الرصاص... بحضور العديد من كبار الفنانين والموسيقيين. حتى أن «نيزان قابلاق زادة بابا» قد مسَّد ظهر فائق بنايه الشهير (الناي). وارتجل فوراً هذه المقطوعة الأدبية.

«كالفستق المقلي ما ألذَّ طعمه، إنه للعالم نعمة

لا تخرج يا فرخ الطير من عشك وأنت في ثياب رثة.

شعرك المجعد ملحفتي، وساعدي كالوسادة الخالية

يا ترى، هل من أحد مثل فائق في هذه الدنيا الفانية»

في تلك الليلة... صدحت الموسيقى والأغاني في خان الرصاص والذي كان يسمى سابقاً دار الألحان.

بعد وفاة «قابلاق زادة بصري بابا»... تزوج فائق فتاة ناعمة ظريفة جميلة باكراً. في الثانية والعشرين من عمرها اسمها «ديل روبا». ومن تأثير ألحان وصوت فائق... حملت على الفور... وعندما جاء زمن الولادة.. أنجبت ولداً جميلاً.

كانت أكثر عطاءات وإنتاج فائق بين الحادية والعشرين والخامسة والثلاثين من عمره. وفي الحادية والثلاثين... وعندما لم يستطع إتقان مقام «عجم الأكراد»... لحن هذه المقطوعة بمقام آخر.

«جعلتِ مني أربع زوايا يا حبيبتي
يجب أن تكون هناك مشكلة ما
سلمت يداك... هناك فاصولياء يابسة أيضاً
أكلت منها الكثير... يجب أن آخذ مسهلاً!»
أية مقطوعة جميلة، ما أبدعها؟

عمل فائق على تلحين أكثر من مائة أغنية وأغنية، عدا عن الأغاني المحظورة التي منعتها النيابة العامة. قسم منها على مقام الحجاز... يعني أنه لحن تلك الأغاني عندما ذهب إلى الحجاز للحج... وقد أهدى هذه المقطوعة إلى زوجته «ديل روبا» وهي من مقام جزام.

«لا ترميني بكلامك التي تشبه الإبر!
لا تبدئي عند المساء بنشر العبر
لا تسلقيني لست بمحارة ولا طير
يقولون عن هذا رأسٌ وليس كستناء شجر
أمسكي حنكك كفاك ثرثرة
كفاك يا امرأة... يكفيك قرقرة
لا أدري متى يَنتهي كلامك والعرعرة
ليس هذا العش العائلي مشفى ولا نقنقة
...
لا أملك رأسمال سوى لساني
طلبك معروف... ولكني فقير أعاني
ليطمر اسمك يا امرأة افهمي من حالي وعنواني
أنا مرهق يا امرأة ولست بأناني».

هذا اللحن الذي قدمه فائق لشريكة حياته. حقيقة... حزين جداً يشبه خزنة فارغة. لا مثيل له بين الألحان.

أصيب الموسيقار الكبير فائق بفتق دائم... لم تستطع زوجته «ديل روبا» التحمل أكثر من كثرة المشاغل والحيرة وخاصة الراحة التي حرمت منها! ! ! فأقدمت على الانتحار، منتقلة بذلك إلى دار البقاء... لكن المسكين الحج فائق وقع في حيرة من أمره. وأصبح لا يعرف ماذا يفعل... فأخذ قطعة أدبية شعرية تحت عنوان «فرار ستان» للشاعر عبد المنظم... ولحنها بتحفظ. وبعد ذلك أُخذ إلى الطب العدلي... ليبقى تحت المشاهدة. وعندما ظهر أنه في حالة غير طبيعية... أخلي سبيله.

في هذه الأثناء... وبما أن الحج فاتق ضيَّع الحساب والكتاب. لم يعرف أحد، عدد الألحان التي تركها.

في خريف عمره. كان الحج فاتق يعزف بمهارة عالية على معظم الآلات الموسيقية. كورنا، كلاكسون، غرامافون، راديو، صفارة... تصفير على اللسان. وطنجرة بخارية ذات صفارة. وكان يعزف على الأخيرة... عندما يكون وحيداً متأملاً بعمق.

كان الموسيقار الكبير الحج فاتق وطنياً مخلصاً يحب وطنه كثيراً وفوق العادة. فقد لحن هذه الأغنية الوطنية خلال إقامته في مشفى «بافير كوي». ولا يزال هذا اللحن حتى الآن يتردد على ألسنة الشباب. وفيما يلي مقطوعة من هذه الأغنية:

«واحد... اثنان... ثلاثة... أربع.

زوم تك، زوم تك، زوم تك... تاكا تك... تك

أبو دوك... غو بودوك

أستك... كوستك

كوبو فار... لوبو فار
بستون داستك
أوه... أوه... أوه
ما صار من الأول.
هو وووو ب
زوم تك، زوم تك، زوم تاكا... تك تك
أبو دوك... غو بودوك
أستك... كوستك
...... يداوم هكذا»

بدأ بتلحين هذه الأغنية الحماسية وهو تحت المراقبة في الطب العدلي. وأكملها في مشفى الأمراض العقلية دون أي شبهة.

ظل في مشفى الأمراض العقلية مدة من الزمن أبدع خلالها أعظم الألحان... دفن الحج فاتق في مقبرة «فيلدير بابا». ومن الغريب جداً.. أن المسافرين بالسيارات في هذه الأيام والذين يمرون على الطريق المعبد حديثاً إلى جانب مقبرة حاجي فاتق... يرون أنفسهم باللاشعور أنهم مرغمون على نظم الشعر الغزلي... مما فسّره بعضهم بأن روح الفنان الكبير موجودة، ما زالت تحوم فوق المكان.

٢٩

البهلوان ماميت
ذو الأواني النحاسية السبع (الأنكر)

ولد البهلوان ماميت في عهد السلطان «حيدر حيدر».

وتقول بعض الروايات أن والد البهلوان ماميت دخل في رهان مع بعض الأشخاص وأكل أربعين بيضة نيئة، وخروفاً مشوياً كاملاً. وعشرين رغيف خبز من النوع الشرقي. وثلاثين قطعة حلوى... وبعد أن ربح الرهان قال: «هل تريدون إبعادي عن المائدة جائعاً؟ أحضروا خمس أو ست خبزات سميكة، وسبعة أوعية كبيرة من اللبن». قال ذلك... وأكلها جميعاً... بعد ذلك لقبوه بـ «أبي السبع أوعية». وقد لُقِّب ابنه ماميت بهذا اللقب عندما يذكر اسمه.

كان مجيء ماميت البهلوان إلى العالم... مشكلة كبيرة. لأنه لم يولد من أمه في تسعة أشهر وعشرة أيام. لكنه ظل لمدة طويلة مستريحاً في بطن أمه... وجاء إلى الحياة وهو يهز الأرض والسماء، بصوته ولكماته القوية.

ولما بلغ سن الشباب سألوه عن سبب تأخر ولادته من أمه. فكان جوابه: لأنني شحبتُ إلى المعسكر لأخذ حزمة.. هذا الجواب الساخر إن دل على شيء. فإنما يدل على شخصية ساخرة. عندما ولد «ماميت البهلوان ذو السبعة أواني». كان والده قد وضع عليه كومة من الحطب. وأدهش الجميع عندما استطاع أن ينهض باثنتي عشرة حزمة من الحطب في أول يوم من ولادته. وعندما رأى والده أنه ضعيف البنية أيقن أن «هذا

القصير لن يعيش طويلاً».

هكذا تقول بعض الروايات. لأنه إذا ولدت إحدى النساء ولداً ولم يستطع حمل عشرين رزمة... كانوا يأخذونها إلى جمعية رعاية المرأة. وكانت عائلة البهلوان قد طلبت خِصي جميع أولاد العائلة أو عدم زواجهم نهائياً... هذه الواقعة مسجلة على سجلات الباشا «شمتيلي شمس الدين زادة».

كان ماميت الصغير، (أصغر ولد في عائلة مؤلفة من ثمانية أخوة)... في الثالثة عشرة من عمره... وصل وزنه إلى خمس وستين أوقة... وكان يأكل في كل وقعة على المائدة: وعاءين كبيرين من الفاصولياء اليابسة. وطنجرة من الطبيخ ودجاجة... وبعض أرغفة الخبز السميك، وشيئاً من الدبس. ويشرب وعاءين من اللبن أو العيران. ويقول بعد ذلك: «اليوم ليس عندي شهية للطعام».

لم يكن والده يحبه... لأنه أضعف أولاده الثمانية بنية. ينهره دائماً لتدنيسه اسم العائلة بضعف بنيته وجسمه هذا. ولهذا السبب وفي إحدى الليالي... أخذ ماميت كل ما في جيب والده من نقود سراً. وقرر الاغتراب... فذهب إلى استنبول. ليبحث عن قسمته ورزقه. ومع أن عائلته قد عممت صورته وأوصافه الجرائد التي كانت تنشر آنذاك ومنها «جريدة المسواك» و«خزينة الشبشاك» و«نفصالي زيللي»... إلا أن أحداً لم يراجع الصحف على أنه وجد ماميت... قطعت عائلته الأمل بالعثور عليه. وفي إحدى مداهمات الشرطة لدار السينما الموجودة في «سيركجي». قبضوا على ماميت الصغير والذي كان وزنه آنذاك ٨٥ كغ، مع بعض الأطفال الآخرين... فما كان من مديرية الأمن إلا أن وضعتهم في مدرسة الفاتح للعناية بالمشردين.

وهناك وللمرة الأولى، يكتشفه مدرِّسه الحاج نوري أفندي الذي هو

بالأصل بهلوان كبير... يكتشف في ماميت قابلية كبيرة، حيث كتب في سجله العبارة التالية:

(إذا لم يصبح هذا الولد بهلوان العالم... سأنزع هذه الذقن، وهذا الشارب. ومن ثم سأذهب إلى حمام «شنغول»).

وبالأصل كان المدرس الحاج نوري أفندي لا يملك ذقناً ولا شارباً ولا شعرة واحدة في وجهه. ولكنه كان محقاً إلى أبعد الحدود.

خلال الأشهر الستة الأولى في المدرسة. لم يتعلم ماميت حرفاً واحداً... لا الألف ولا الباء. ولكن المدرِّس حاج نوري أفندي عمد إلى تحميل ماميت مقدار عربة نقل من الحطب وتوزيعها على غرف المدرسة... ليجعل منه رجلاً في المستقبل... ولكن كل هذا الحطب لم يتفد ماميت بشيئ.. عندها أدرك أن ماميت لم يكن غبياً أبداً، وإنما يفتعل الغباوة والكسل ليأكل من مدرِّسه الضرب والقتل... كتدريب له. لقد قرر وبحزم أن يتحدى كلام والده الذي قال عنه «هذا الولد الأهبل لن يعيش طويلاً. وهو لا يليق بأصلنا ونسبنا». ولهذا قرَّر أن يكون بهلواناً كبيراً... ويثبت نفسه لوالده وعائلته وللجميع. وأنه لن يستطيع أحد الوقوف حجر عثرة أمام هدف يريده. فكثرة الضرب... جعلت جسمه صلداً كالحجر... حتى أن أطرى مكان من جسده أصبح بقساوة جلود الأحذية. كان ماميت يتدرب نهاراً بضرب المُلا (المدرس) له... وليلاً... يملأ وعاءً كبيراً بالماء ويظل يدور في ساحة جامع الفاتح حتى الصباح.

بعد مدة... ولما أصبح الوعاء المملوء بالماء خفيفاً عليه... صار يخرج إلى الشارع ليلاً، ويشد الحافلات الفارغة والشاحنات إلى ظهره ويجرها إلى مسافات بعيدة. عندما يستيقظ الناس في الصباح. كانوا يجدون حافلة «آق سراي» في «أوق ميداني» وحافلة الفاتح في «كوجوك جكمجة». حتى أنه كان يرفع القطارات ويزيحها عن سككها

الحديدية... ويستخدم أعمدة الكهرباء في الجري، وكان يقذف الصفائح الكبيرة المملوءة كالكرات الحديدية. ليحفظه الله من الإصابة بالعين.

كان ماميت الذي أنشأ نفسه بنفسه قد عاد إلى مسقط رأسه ليثبت لوالده قدراته ومهارته في المصارعة وقوته العظيمة، وشجاعته في ميدان البهلوانية والمصارعة... وبما أنه تغلب على جميع البهلوانيين قبل عودته إلى قريته... فقد انتشر اسمه هناك... وبما أن وطنه يُعد مركز ومنشأ الهلوانية والمصارعة... وقبل أن يصل إلى قريته التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام قال: «أريد مصارعين يقفوا في وجهي». وبدأ يطلق في جميع الاتجاهات صرخات قوية أشبه بالزلازل. حتى أن الحيوانات بدأت تشعر بالزلزال قبل وقوعه. كالحصان... والحمار... والجاموس... والبقرة... وكانت تتصرف بحركات غريبة شاذة... في كل مرة تسمع فيها أصوات ماميت البهلوان.

أسرع أحدهم إلى والد ماميت وأعلمه «بأن بهلواناً كبيراً جاء إلى قريتنا... إنه يتحدى العالم كله». وبما أنه قد مرت سنوات طويلة على فراق الأب عن ابنه... لم يعرفه عندما رآه للمرة الأولى... فقام ماميت بمصارعة أخوته السبعة والذي يُعد كل واحد منهم مصارعاً كبيراً... غلبهم جميعاً ومددهم على ظهورهم... عندها قال والده:

ـ يجب أن يكون هذا البهلوان من عائلتنا حتماً. ولكن من هو يا ترى؟

لم يستطع ماميت أن يتحمل أكثر فقال لوالده:

ـ بابا... بابا... ألم تعرف ابنك الحقيقي؟ ابنك الذي كنت تنهره وتوبخه دائماً وتقول «هذا الولد الأهبل لن يعيش طويلاً». ألستُ أنا ماميت؟ قال ذلك وعانق والده... أما والده الذي يعرف أن البكاء لا يليق بالرجال... فقد عانق ابنه وهو يحبس دموعه بداخله.

ـ واي يا فلذة كبدي... ابني الحقيقي... وضمه إلى صدره بقوة.

في هذا العناق والضم الشديدين... وقع ماميت في حيرة وظن أنه

يصارع أحدهم. فداس على رجل والده بقوة، وسحبه نحوه يريد أن يطرحه أرضاً... صرخ والده في وجهه:

ـ هيش. لقد كسرت عظامي... وصار يتألم بصوت عال.

بعد ذلك ذاع صيت «ماميت سبعة أوعية» البهلوان وشهرته في جميع أرجاء المعمورة... من الدولة العثمانية، حتى الصين والهند والسند. وبحر السافيد. والمحيط الأطلسي.

وعلى أثرها دعاه السلطان حيدر حيدر الثاني والذي يعتبر من كبار المصارعين في ذلك الزمان.. دعا ماميت البهلوان إلى قصره.. وبحضور «البادشاه» الملك. تصارع ماميت مع مصارع القصر الكبير «كيسكانج حسين» في بهو القصر الملكي. كان الصراع بين الاثنين جميلاً ومتكافئاً. ولكن «ماميت البهلوان» أدخل رجله بين ساقي حسين المصارع. وبعد أن طرحه أرضاً وعجنه كعجينة وداسه كما آلة كبس الحشيش... ثم لفه وبرمه وحمله بين ذراعيه وأخذه إلى الملك وقال له:

ـ تفضلوا أيها الملك... هذا هو رئيس المصارعين عندكم! قال ذلك وألقى بالمسكين حسين تحت أقدامه.

سأله الملك الذي سُر كثيراً من قدرته.

ـ اطلب ما تريد؟

فقال ماميت:

ـ لا أريد شيئاً يا مولاي... سوى أن تجعل مني صدراً أعظم فقط. ولا أريد منكم شيئاً آخر. قال ذلك وقبّل طرف ثوب الملك ثلاث مرات.

أجابه السلطان حيدر حيدر الثاني:

ـ أن تكون صدراً أعظم فهذا سهل جداً. أليس عندك طلبات ورغبات أكثر جدية؟

قالماميت:

ـ إذا كان الأمر هكذا... لأشرب شيئاً بارداً على الأقل.

وبالإرادة السلطانية أحضروا ثلاثة وأربعين قدحاً كبيراً فيها شراب بني اللون... وعندما قام بشربها جميعاً. تعجب الملك وصرخ «ما شاء الله ياهو».

في ذلك الوقت كان «بيتر جونس» بطل أو بهلوان العالم. قد دُعي إلى استنبول. يريد مصارعة «ماميت». وعندما خرج ماميت إلى ساحة المصارعة... زأر بقوة هائلة. لم يدر «بيتر جونس» ما أصابه فسقط على الأرض مغمياً عليه أكثر من عشر دقائق... على إثر الزئير الذي أطلقه ماميت البهلوان. كان السلطان حيدر حيدر الثاني يجلس في مكان عال مطل على الساحة... فقد طلب من ماميت، عدم إطلاق أصوات أخرى من زئيره. حتى لا يموت المصارع الكافر من الخوف.

أجاب ماميت السلطان:

ـ هذا خارج عن إرادتي يا مولاي. إذا ما لبست ثياب المصارعة ودرت فوق الحلبة. وخاصة إذا صادفت أمامي خصماً كافراً... لا أستطيع التحمل أبداً... فأبدأ بإطلاق الزئير.

بعد ذلك أمر الملك بوضع غطاء قماش كبير على فم ماميت البهلوان كي لا يطلق أصوات الزئير... وأغلقوا أذني «بيتر جونس» بقطع كبيرة من القطن كي لا يسمع الصوت ويموت من شدته وقوته.

وبمجرد بدء المصارعة انطلقت صرخة قوية «واه... آه». وإذا بالمصارع الكافر يغيب تحت أقدام ماميت... وتحول «بيتر جونس» العملاق إلى كتل مبعثرة مضغوطة كأوراق الهشيم... ولكن والشكر لله... أن خرجت امرأة من بين المشاهدين تسمى «جيفيجي آتيا». جمعت أشلاء «بيتر جونس» وأعادتها إلى مكانها الحقيقي... وبهذا يكون بيتر جونس قد خلص نفسه من موت محقق... يُرسل بعدها بالبريد المضمون إلى بلده.

بعد ذلك سافر ماميت إلى مدينة باريس وتصارع مع البطل العالمي المشهور «توم تونْسْ» في كازينو «دو باري». وإذا قلنا عن «توم تونس» بأنه خبير الرجال... وبري جبلي يأتي الكلام في مكانه المناسب... كان بهلواناً ضخماً إلى أبعد الحدود... ولكن عندما أحس بأنه لن يستطيع التغلب بمفرده على ماميت... طلب المساعدة من عدة مصارعين آخرين للتغلب عليه. وبدأت المصارعة بين ماميت البهلوان مقابل ثلاثة مصارعين... يمثلون أبطال بلادهم.

كان سفيرنا في باريس «قيتان بييك»... والباشا «زاريفي» يحضران المصارعة بأمرٍ من الإرادة السلطانية... حيث كانا يرسلان التقارير عن المصارعة أولاً بأول إلى السلطان.

كانت المصارعة شديدة وحامية الوطيس. ومع أنه سُمعت عدة أصوات انكسارات أثناء المصارعة. فظن الحضور في البداية أن ماميت يكسر عظام خصومه... ولكنه فُهم فيما بعد... أن الأخشاب المرصوفة تحت المصارعين هي التي كانت تتكسر. ومنها تعرفون يا سيدي كيف جرت المصارعة... بقي ماميت سبعة أوعية ساعتين وعشر دقائق في مصارعة الثلاثة... وفي النهاية وضعهم فوق بعضهم حتى الحكم وضعه فوقهم خطأ وضمه إليهم، وربطهم بأرجلهم وأيديهم وشد العقدة عليهم. ثم وقف أمام المشاهدين وسلم عليهم بطريقتنا الخاصة... كانت الصالة على وشك السقوط من شدة التصفيق. وقال جميع الحضور:

«لم نرَ في حياتنا كلها مصارعة بهذا الشكل... مبروك المال الذي دفعناه للدخول إلى هنا»!

لم يحصل هذا في أوروبا فقط. بل في أمريكا أيضاً... حيث قام بإلقاء كل المصارعين على الأرض وأثبت وجوده وقوته وقدرته عليهم.. مصارعنا وبهلواننا الكبير ماميت ليس له مثيل في بلادنا، ولا في أوروبا وأمريكا بل

وفي العالم كله وهو «Mert» البطل الذي أسمع صوتنا للعالم (يفسر الكاتب كلمة «Mert» على الشكل الذي حاول بعض أعداء الوطن... تخريب سمعة ماميت... عندما قام بعض المشاهدين الفرنسيين بتسميته ومناداته بـ «Mert» وحولوا الكلمة إلى «Merde» ومعناها بالفرنسية «الخرى أو البراز» ولكنهم لم ينجحوا في هذا التضليل والتخريب). المترجم.

لم يستطع أحد أن يجعل ظهره يمس الأرض سوى فتاة شقراء أمريكية. عندما ذهب ماميت ذات ليلة إلى أحد البارات. حلال عليها!!!

وحسب بعض الروايات... عندما كان ماميت البهلوان، عائداً إلى وطنه... أوشكت الباخرة التي تقله على الغرق. فالبعض يقول: من ثقل الذهب الذي ربحه ماميت من المصارعات والذي خبأه في زناره... والبعض يدعي أن المصارعين الأمريكيين الذين هُزموا أمامه وضعوا في الباخرة قنبلة موقوتة ليقتلوه... إلا أن ماميت أنقذ نفسه والباخرة، بحركة فريدة من نوعها. فقد صعد إلى عمود الباخرة الرئيسي وصار يسحبه نحو الأعلى.. حيث قطعت السفينة المحيط الأطلسي ووصلت إلى مرسيليا بسلام.

عندما عاد إلى استنبول كان السلطان حيدر حيدر الثاني قد أقام على شرفه وليمة كبيرة. خطب فيها جلالته وقال بالحرف الواحد هذه الكلمات:

ـ لو عندنا خمسة مصارعين مثل هذا لكنا استخدمناهم كسفينة للنجاة... ولم تغرق سفينة واحدة من قواتنا البحرية. ولكن كي نقوم بإطعامهم حتى الشبع... لاحتجنا إلى ميزانية دولة كبيرة... وحتماً هذه الدولة ستغرق بالديون.

تشاجر المصارع ماميت المشهور عالمياً في أحد الأيام مع شخص مجهول لا يعرف هويته... حيث عاجله الشخص المجهول بلكمة قوية على أنفه أرداه قتيلاً... وعندما علم الشخص أن الإنسان الذي قتله بلكمة واحدة ليس إلا ماميت. صُعق من الخوف ومات إلى جانبه.

٣٠

أورد ـ فورد... بروفو ـ غروف دكتور ـ زارر
السيد خراف الدين هُسيل

السيد خراف الدين هُسيل، يشغل مكاناً مرموقاً في دنيا العلم في تركيا (مرقم). عالم بكل العلوم، يتمتع بشخصية عالية متعالية. وفوق منصبه العلمي الذي يشغله... كان مشهوراً في دنيا السياسة والكياسة... وفي دنيا الحباسة والنجاسة والتعاسة، وبالأخص ما يتعلق بـ «دفتر الخاقانية» (السجل العقاري). أي أنه كان يفتش عن الأراضي المسجلة في السجلات العقارية... ويحصل على سندات التمليك. ويفرز العدد الكبير من العَرَصات لصالحه... أي أنه كان من أصحاب الأملاك وأعلام الأملاك وكثير البهرجة والإنعتاق.

قال عنه أحد كبار الصرَّافين في بلدنا. والذي يعرفه جيداً، أنه يعرف ماهية الرجل الذي يقف أمامه، وكم ليرة في جيبه. حتى القروش. كما قال عنه كبير المخمنين في البلد عندما شاهده لأول مرة:

«أنا أشتري هذا الرجل الفذ، الرجل العالم بعشرة ملايين ليرة وأربح خمسمائة بالمائة».

ولكن السيد خراف الدين هُسيل، الذي كان كبيراً في مقامه... لم يقبل بهذا المبلغ... فرفعه الأخير إلى خمس وعشرين مليون ليرة. ولكن خراف الدين ردَّ على ذلك وبقوة. أي أنه كان على صلابته وصلافة.. متقلب المزاج... وحاد الذكاء.. كثير التنقل، رجل آلي (يستهلك ليتراً من

البنزين لكل مائة كيلومتر). يتقلب في الشكل واللون بسرعة متناهية. يأخذ شكل الباب الذي يدخل منه.. إنه كالسائل والمعجون.. ومفرط في الذكاء.. وكما تقول بعض الروايات: أن والدته أنجبته بعد طول عناء في باخرة جوالة وطقس عاصف. وتقول رواية أخرى أنها أنجبته في قطار سريع.

تجمع الروايات كلها أن هذه الأوصاف والتقلبات ناشئة عن تلك الولادة الحركية. وفور ولادته ظهرت عليه سمات السيولة الحركية البحرية والقطارية. والذكاء الخارق.

وبشكل عام وحسب ما جاء في بطاقته الشخصية التي لا يمكن اعتمادها، لعدم الدقة في محتوياتها. كان والده يدعى: أحمد أفندي.. وهذا بالطبع تقدير قد لا يكون صحيحاً.

كان خراف الدين في صغره يسحب الكحل من عين والدته، ويُخرج السمنة من الذبابة... ولكي تكون حسنة... كان يتّول على الفقير الذي يعطيه حبة زيتون. وعندما يشاهده الناس يقولون عنه: «هذا الطفل سيكون في المستقبل بائع زيت مشهور». وطيلة حياته الدراسية وخاصة الامتحانات، لم يستطع أي مراقب مهما كان قديراً من ضبطه بالغش وكان نجاحه في جميع الصفوف بمرتبات عالية جداً.

وبما أنه كان مصاباً بفرار الأفكار... وطلاقة اللسان. والثرثرة. فقد تنبأ له أساتذته بوظيفة وكيل للإدعاء. وكانت فصاحته وسرعة تعابيره، تحرج أعظم المحامين وتوقعهم في شراكه.

إنه في سن طفولته كما لو في كبره، وبالعكس عندما يصبح في سن الكمال، يبدو صغيراً وعندما صار في سن الكمال بدا كأنه لم يكبر... وبما أنه كان مقتصداً في مصاريفه... خسيساً في حركاته... ومتعاملاً مع أوضاعه الخاصة: ليثبت المثل «كل قصير في الأرض فتنة، وكل طويل لا

يخلو من الهبل»... فقد بقي كبير العقل ليؤذي الآخرين... وقصير القامة حتى لا يسرف في الأكل.

عندما بلغ إلى سن الكمال وعرف أنه لن يطوَل أكثر، تأثر كثيراً... ولهذا قرر أن يصبح طوله أكثر من المعتاد. ولذلك... كان قطر جسده من ناحية البطن أكبر من قطر حوضه بثلاثة أصابع (2 PR + DH).

وبعد أن تخرج خراف الدين من مدرسة العثمانية... انتسب إلى كلية الطب. وبعد تخرجه منها... بدأ بمسايرة أساتذته... كان يعفيهم من خدمة منازلهم... يقوم بتأمين جميع طلباتهم. ليكبر في نظر مدرسيه أكثر. ومن ثم يكافئوه. وبما أنه غزير العلم فقد أسندوا إليه وظيفة معاون مدرس في دار الفنون. وعندها عمد إلى تبديل بعض المفردات لبعض الكتب التي ترجمها المدرسون من اللغة الأجنبية بكل إخلاص ودقة... حيث قام بتخريب أصول جميع الكتب... ومقابل هذه الخدمة والعرفان للوطن، فقد عيِّن أستاذاً ذا كرسي في جامعاتنا.

بعدها حاول رجل علمنا هذا. وبعد أن عرف أن ساحة العلم لن تتسع له. نراه قد زج نفسه في الفعاليات الاجتماعية. حيث جهد في تأسيس جمعية ترأسها وأسماها «جمعية الذين يأكلون البيضة دون ثقب قشرتها». ثم أسس وترأس أيضاً، جمعية بعنوان «جمعية مكافحة الذين يبولون في ثيابهم».. وهكذا تكون خدمته قد عمت الوطن والشعب على السواء. وبعد أن أقام جمعية «أربعين بارا» داخل الوطن... انتقل إلى خارجه. وأسس وترأس جمعية «جمعية العلم بين الملل». وجمعيات أخرى كثيرة جداً. بحيث لو سجلت جميعها لبلغ حجمها ثلاثة مجلدات ضخمة. ومن أهم الجمعيات التي أسسها وترأسها خارج البلد هي:

«الجمعية المسيحية لحماية الفقراء بين الملل». و«الهيئة العالمية لتعاون المشلولين». و«جمعية خلاص المرأة من غطاء النوم». و«جمعية بين الملل لمرتجي

الظهور». و«الوحدة العالمية لحماية الأبقار والقضاء على البعوض». وغيرها.

أما إذا تحدثنا عن عدد الأطباء الذين تخرجوا على يد خراف الدين. يقول البعض أن أعدادهم وصلت إلى الآلاف. والبعض يقول لا يمكن إحصاؤهم لكثرتهم. وبما أن فعالياته الاجتماعية غنية جداً... فإنه لا يجلس على مقعده العلمي لعدم توفر الوقت، وأن طلبته سيكونون من أبرز الشخصيات في البلد. أما معارضيه فيقولون «إن الأطباء الذين تخرجوا على يديه فقد بلغ عدد المرضى الذين ماتوا على أيديهم يناهز خمسة أضعاف الذين قُتلوا في الحرب العالمية الأولى والثانية».

أما الأثر الوحيد الذي قدمه: هو إزالة القناعة العامة في بلدنا، (أن أحداً لا يعطي قيمة للعلم). أما هو فقد أثبت عكس هذا الادعاء بحياته الخاصة.

بقية الأساتذة لا يستطيعوا العيش برواتبهم لضعف علمهم وقلة اجتهادهم... أما المحترم خراف الدين هُسيل فقد أصبح من كبار أثرياء البلد... نقداً... وأموالاً منقولة وغير منقولة... مالاً وأملاكاً. وبهذا يكون قد أثبت علو القيمة التي تعطى للعلم في هذا البلد. محرزاً المقام الرفيع في فن تدريس الطب التجاري العالي.

بعد نجاحه في الطب التجاري التفت فجأة إلى حب الوطن والشعب... حيث تملكته رغبة جامحة في دخول معترك الطب السياسي أيضاً. فأصبح رئيساً لفرقة «محافظة المدينة». وعندما شرف بقدومه إليها. قال كلمته المشهورة حين رفع عناقيد الفاصولياء الخضراء:

ـ هذا هو يا سيدي نبات الكوسا المتسلقة.

(هذه الكلمات دخلت تاريخ الكلمات السياسية لأول مرة في تاريخنا). وعندما حصلت الانتخابات... ظهرت الحقيقة واضحة كالشمس... تراجعت شعبيته كثيراً، وانفض عنه الكثيرون ورسب في جميع مراحل الانتخابات، فقرر العودة ثانية إلى مقعده في الطب التجاري

لمدة قصيرة. حيث عُرضت عليه وظيفة قائمقام «يالوفا»... ترك عباءته الخاصة بالطب وسافر إلى هناك واستلم المنصب الجديد. وخلال خدمته... عمل شخصياً على مطاردة بائعي الخيار المتجولين... ومنع ارتفاع أسعاره مما أدّى إلى الكساد وبالتالي انخفاض السعر والاحجام عن زراعته، فاضطر الشعب إلى أكل «العجُّور». كما ألقى القبض على جميع الذين كانوا يبولون في الشوارع العامة، وخلف الأبنية الأثرية. مستخدماً إبراً طبية، لتجفيف الغدد قصد تربيتهم وتأديبهم.

في الوقت نفسه... كتب على الجدران التي كان الناس يبولون عندها هذه العبارة «هذا المكان مخصص للحمير». وبهذا يكون قد رفع من مرتبة هذه الدابة إلى أعلى الدرجات. وبفضل هذه الترتيبات والتخصصات التي تجري يومياً. أصبحت الصحف تتحدث عنه، وهكذا أصبح اسم صاحبنا يحتل صدارة الصحف. وهكذا انتقل عمله إلى مجال خدمة الطباعة والمطبوعات، وخاصة في مقاله الذي كتبه بعنوان:

«لا تنسوا تزرير بناطيلكم عندما تخرجون من المرحاض». هذا موضوع علمي هام ورائع.

ولدى سؤاله من قبل بعض المحررين «ما هي أسرار بقائكم في ريعان الشباب؟»... كان جوابه: «لأنني أقوم دائماً بالتمارين الرياضية، ولا أترك حفلة استقبال أو تشييع إلا وأحضرها. وأحافظ على شبابي بحركات الظهر واليدين».

وبعد الإدلاء بهذا البيان لأحد مراسلي الصحف، نشرت الجريدة بيانه على الشكل التالي:

«أمارس التمارين الرياضية يومياً. لا أترك حفلة استقبال أو تشييع إلا وأحضرها. وأثناء هذه الحفلات... أحافظ على شبابي بتمارين الرقبة والرأس والظهر وكثرة الانحناءات أمام الشخصيات الحكومية الكبيرة». وبعد إعطائه

هذا البيان... بدأ بيعض الحركات الجمبازية التي لا يقدر أن يقوم بها أمهر لاعبي الجمباز في العالم حيث صار ينحني إلى الأمام والخلف ١٨٠ درجة تقريباً جاعلاً من بطنه مركزاً للدائرة... مما زاد في حيرتي وإعجابي. (قول المحرر). (انظر قاموس المدرسة العثماني مقدمة المجلد الرابع).

وبعد ذلك عندما بدأت المقاعد والكراسي تسقط على الأرض، ووسط هذه المعمعة وتصاعد الغبار والدخان. تحرك المحترم الطب التجاري... والطب السياسي... وألقى بنفسه على أحد المقاعد الخالية لبعض الوقت وهو يقول: هذه الفرصة لن تُعوَّض واستولى عليها ـ كان الناظر القديم قد أصيب بالإسهال وهو داخل المرحاض ـ وهكذا جلس على كرسي رئيس البلدية.

كان هذا العالم المحترم يملك مكتبة ضخمة من الكتب التي جاءته إما على شكل هدايا... وإما استولى عليها مجاناً... أو أخذها إعارة ونسي إعادتها. فأراد العالم المحترم بيع هذه المكتبة. لكن المشترين لم يدفعوا له شيئاً بحجة أن الكتب قديمة. والعلم الذي فيها لم يعد له أي قيمة. ومع أنه أراد التخلص من هذه الكتب ببيعها بالكيلو.. فإنه لم يستطع لأن أوراق هذه الكتب لا تصلح لصنع الأكياس، أو الصر في المحلات التجارية.

فكر العالم المحترم... كيف يجب أن يتخلص من مكتبته هذه. وبتدبير محكم وبحب ووطنية حميمين... أهدى المكتبة إلى «البلدية». وبهذا يكون قد خلَّد اسمه ثانية وتخلص من الكتب.

هذا الطمع الذي فيه والحرص الشديد الذي يتملكه. لم يكن لهما حدٌّ ولا حدود... لا ضمن البلد ولا خارجه. فمثلاً لو جاء إلى الدنيا في عهد السلطان «أوزكبالي أربجي أوغلو طيب الله سناه» بالتأكيد لكان استولى على «البلدية» ومن ثم احتل الصدارة. وأعلن عن إمبراطوريته... وتحت قناع عدم القناعة وعدم الاكتفاء مات مُرغماً، ومع الأسف لم يصل إلى المكان الذي يليق به.

٣١

حاج دانغيل آغا

بما أن مال الثري يتعب لسان الفقير المعدم. فإن أكثر من عشرين مليوناً من البشر في بلدنا يتعبون ألسنتهم وهم يتحدثون عن ملايين «حاج دانغيل آغا».

وكما هو معروف، يعد بلدنا من البلدان النامية أو قليلة النمو. وأن الأمهات فيه ينقسمن إلى صنفين: الأمهات اللواتي زارهنَّ الحظ، واللواتي زارهنَّ «كور صالح» أي صالح الأعمى. أما الأمهات اللواتي لم يزرهن الحظ ولا كور صالح فهن خارج موضوعنا.

يعمل كور صالح في بلدنا فوق حدود طاقة البشر وبقدرة عالية... لا يذكر أن زاره حاج دانغيل آغا مرة واحدة، ولم يستطع حتى زيارة أمه. لأنه في كل زيارة لا يكون وحده. بل يكون معه فأله أو قدره الذي لا يغادره. وبهذا لا يجد كور صالح المسكين فرصة واحدة ليظل وحيداً مع حاج دانغيل آغا... ولهذا يذهب لمساعدة الغرباء الآخرين.

وحياة حاج دانغيل آغا مليئة بالدروس والعبر... لأبناء هذا الوطن والذين يجب أن يتعلموا منه بعضها.

بتاريخ ٢٣ شباط من عام ١٨١٩. (التاريخ ليس مهماً... فمثلاً نستطيع أن نقول في آب). في قرية «دارماباز» من ولاية «سايرك». كانت تسمع أصوات آلام من غرفتين صغيرتين متجاورتين مسقوفتين بالطين. الغرفة الأولى عبارة عن حظيرة بداخلها بقرة تئن من المخاض.

وفي الغرفة المجاورة الملاصقة للحظيرة امرأة تتألم من المخاض أيضاً. لقد ولدت البقرة عجلاً. أما الولد فقد ظهرت أرجله للحياة. لكن أقسامه الأخرى بقيت في بطن أمه.

بزغ الفجر وبدأ نوره يتسرب من شقوق الباب. وقدمان متدليتان باتجاه الشمس المشرقة.

العائلة مؤلفة من أب، وأم، وحماة، ثم بقرة وعنزتان وحمار. طبعاً العائلة كلها كانت مشغولة بالبقرة وعجلها. ولم يكن عندهم وقت للالتفات نحو الأم التي بقيت وحيدة، وقد تدلت رجلا وليدها فقط من رحمها.

فرحت العائلة لقدوم العجل كاملاً دون أي نقص... وعندما عادوا إلى الغرفة التي أرضيتها تراب وسقفها من تراب وهم سعداء إلى أبعد الحدود. شاهدوا قدمين مدلاتين.

ظنوا أن الولد جاء معكوساً. ولكنهم عندما فكَّروا بمنطق سليم. وجدوا أن الإنسان العاقل لا يدخل إلى مكان ما برأسه. بل برجليه أولاً. وبناءً عليه فإن الأطفال الذين يأتون إلى الحياة برؤوسهم فقد ولدوا بالعكس. أما الأطفال الذين يأتون بأرجلهم... هم الطبيعيون.

فالطفل الذي جاء إلى الحياة برجليه الاثنتين سيحمل الاسم التجاري الكبير تحت «حاج دانغيل آغا».

لم يكن الطفل على عجلة للخروج من بطن أمه. لأنه كان يتغذى من دمها. ويحسَبُ هذا نوعاً من الربح.

حضر القرويون إلى عائلة «هوموجوك أوغلو» لتهنئتهم بالعجل الذي وُلد سالماً معافى... وعند مشاهدتهم الطفل بهذه الحالة أسرعت النسوة لمساعدته وإخراجه من بطن أمه... لكن الحالة لم تكن تطمئن أبداً... لاحظت النسوة أن إحدى يديه تنزف دماً... وعندما نظرن إلى فمه

اكتشفن أن أسنانه كاملة. لا تشبه أسنان الإنسان، بل أسنان الكلاب. فأخذتهن الحيرة والعجب.

أطلقوا عليه اسم جده «دانغيل». أما والدته فقد توفيت مباشرة بعد ولادته. وتقول بعض الروايات أن أمه اقتنعت بهذه الخدمة للوطن... بإنجابها الطفل ولم تعد لها وظيفة بعد ذلك فالأفضل أن تموت. أما الرواية الأخرى فتقول: عندما وجدت الأم أسنان ابنها خافت على نفسها... من أن يهجم عليها ويعضها عندما يكبر. فغادرت الحياة لتأثرها الشديد بهذه الحالة الشاذة. والحقيقة أن هاتين الروايتين لا أساس لهما من الصحة. لأن وفاة المرأة جاءت من عملية تثبت خاصة في حملها. أي أن دانغيل الصغير هو حصيلة هذا التثبت الخاص. وكان الجميع يعرفون أن المرأة اختطفها دب بينما كانت تعمل في الحقل. ويتحدث أهالي القرية أن دباً قد اعتاد المجيء إلى البيت. وكما تقول رواية أخرى... فإن تسمية الصغير بـ «دانغيل» جاءت مشابهة ومطابقة لأوصاف والده. والحقيقة... أنه كلما كبر الطفل كانت صورته تقترب من الشبه لشكل وصورة والده.

وفي كل الأحوال... ومهما كان الحاصل... فإن أولى إجراءات دانغيل الصغير هو قتل أمه أو التسبب في موتها.

كان مجيء دانغيل والعجل معاً إلى الحياة في وقت واحد، مدعاة فرح وسعادة عائلة «هوموجوك». ووجدت فيها الحظ الوافر لدانغيل الصغير. وكانوا يقولون: «لقد بعث الله رزقه معه».

هكذا بدأت أولى زيارات الحظ لدانغيل الصغير.

كان دانغيل الصغير الذي جاء إلى الدنيا ومعه رزقه أي العجل... يتقاسم معه أثداء البقرة وحليبها مثل أخوين... أما عند العائلات التي لا حظَّ لها... فإن المرأة التي تلد مع بقرة في وقت واحد... تموت البقرة بدلاً عن المرأة... وعندها يشارك العجل في حليب المرأة.

والحقيقة أن دانغيل نشأ وترعرع، وشرب أنقى وأفضل الحليب في بلدنا... وخاصة في المدن. ولم يعرف سوى البقرة الهرمة التي صارت بالنسبة له... أماً بالرضاعة... والعجل الذي سيكون في المستقبل ثوراً كبيراً. أخاً بالرضاعة... وكانت علاقته مع كل من أمه بالرضاعة وأخيه بالرضاعة علاقة حميمة جداً... وقد أثبت ذكاءه الخارق وهو في ذلك العمر الصغير... حيث كان يرضع الحليب كله من البقرة ولا يترك شيئاً لأخيه بالرضاعة. ولهذا السبب بقي العجل ضعيفاً مهزوزاً عكس دانغيل الذي نمي عوده طولاً وعرضاً... ما شاء الله... ما شاء الله...! لقد أصبح شاباً قوياً، طويلاً عريضاً أكثر من أخيه بالرضاعة.

وبينما كان دانغيل يرعى أغنام القرية وهو في العاشرة من عمره. ومن خلال عادته المتمكنة فيه. كان يرضع الأغنام التي وَلَدَت حديثاً. تلك كانت بداية استعماره وهو في ذلك العمر الصغير... فقد نما وترعرع أكثر نتيجة هذا التشبث والفعل الذي كان يقوم به... ولو أن مدة الرعي طالت به.. فإن لازدياد عدد أخوته بالرضاعة أضعافاً وقد يتحول إلى ما يشبه جرة السمن. وأول من اكتشف ذكاءه الخام... «بائع متجول» استخدمه مساعداً له. فقد ورث عن البائع... أساليب التجارة المربحة...

كان يبيع الخرز الأزرق ولوحات ما شاء الله، الصغيرة منها بخمس وعشرين بيضة. ولكن عندما لاحظ البائع المتجول أن دانغيل قد وضع عينيه على حليب الجحشة المرضعة وعلى فخذها... صار يراقبه لما قبض عليه بالجرم المشهود. طرده من عمله.

انتقل دانغيل ليعمل صانعاً عند البقال في القرية. حيث تعلم أموراً هامة جداً... مثل الإقراض بالفائدة للمزارع حتى أوان الحصاد بفائدة قدرها خمسة آلاف بالمائة... وتعلم أيضاً بيع الماء الملون للفلاح على أساس أنه زيت زيتون، مقابل ربع إنتاج محصوله من الحبوب. وهكذا حصل على

تربية اقتصادية غير عادية.

دانغيل الذي جهز نفسه جيداً بتربية مالية واقتصادية كبيرة وهو في سن الرابعة عشرة. وجد أن حدود القرية ضيقة عليه... ولكي يفتح أمامه مجالاً أوسع... هجر قريته مع مجموعة من أبناء بلدته... ليعمل عاملاً أو حرفياً، أو أي شيء آخر... وبما أنه لا يملك إلا الأموال التي سرقها من البائع المتجول والبقال، والتي أخاطها على سرواله الداخلي. ووزعها في طيات ثيابه... وكان لديه القوة والشجاعة الكافيتين للعمل.

بدأ يعمل حمالاً. مع أنه يملك قدرة اقتصادية ومالية كبيرة ويستطيع أخذ أساتذة الاقتصاد والمال إلى النبع يعود بهم ظمأى.

ويعتبر حاج دانغيل آغا مثال الإنسان العصامي، بدأ العمل منذ صغره حتى صار من كبار رجال الأعمال، ومليونيراً على درجة كبيرة من الثراء، ومقدماً خدمات جلى للاقتصاد الحر معبداً طريق مستقبله الرائع.

كان دانغيل الشاب قد دفع رشوة بطريقته الخاصة إلى كاتب في أحد المعامل، ليصبح حمالاً فيه. (ملاحظة من الكاتب: أصبح حاج دانغيل آغا صاحب المعمل فيما بعد. وظن الجميع أنه سينتقم من الكاتب الذي أخذ منه رشوة. إلا أنه ومن جراء الحليب النظيف الذي شربه. والذي عمل منه رجلاً ذا وجدان وضمير حي. عين الكاتب بمرتبة رئيس لدائرة المبيعات. وبهذا يكون قد استعاد الرشوة التي دفعها أضعافاً مضاعفة. وبما أنه لا يستطيع احتمال نظافة اليد والأخلاق الحميدة طويلاً. فقد عمدَ إلى تسليم موظفه في دائرة البيع إلى العدالة عندما أشرف على التقاعد ويستحق التعويض، وذلك بعد أن وضع خطة القبض عليه عند استلامه رشوة من إنسان أرسله خصيصاً إليه).

بدأ دانغيل حمالاً في المعمل... وصار بعد فترة رئيساً للحمالين بعد أن درس صاحب المعمل دراسة معمقة.

ومن خلال أخذه «سمسرة» من بعض العاطلين. مقابل وعود بنيامين العمل المناسب لهم كحمالين. ومنحه قروضاً بفوائد كبيرة للعمال في المعامل الأخرى. بهذه الأعمال كلها... كان دانغيل قد أثبت حبه للخير والمساعدة. كما أهلته أعماله هذه لأن يكون مصرفياً ناجحاً. بعد ذلك وسَّع دانغيل مساعدته للآخرين بشكل أو بآخر... وحافظ على مكانه في المعمل وفي رئاسة الحمالين... بإعطائه القروض للعمال وحتى للمدير شخصياً بفوائد كبيرة تتناسب مع مكانة وقيمة كل واحد منهم.

ومع الأسف فإن الناس والمسؤولين لا يستطيعون تحمل البشر الموفقين في أعمالهم وتجارتهم. ولهذا السبب فقط لا نستطيع الوصول إلى المستوى المعاشي للغرب.

وهناك الكثيرون، الذين لا يستطيعون احتمال إنسان اقتصادي، عصامي... كان يعمل حمالاً قبل سنوات. وكأن هذا العمل الذي قام به في الماضي... ذنب وعيب. وهناك أكثر من خمسة ملايين إنسان يعملون حمالين لدى آباء حاج دانغيل آغا وغيرهم. مع العلم... فالعمل ليس عيباً على الإنسان مادام ضمن النظام والأخلاق! ! وبالتالي ما بالك إذا كان العمل حمالاً.

أظهر دانغيل الشاب أكبر ربحه المادي والتجاري أثناء رئاسته للحمالين.

كان دانغيل يتلاعب بحقوق صاحب المعمل بطرق وأساليب عدَّة. مثلاً: كان يبلل المواد الداخلة إلى المعمل بالماء ست مرات أكثر من وزنها ويأخذ من صاحب المعمل قيمتها بهذا الوزن. بعد ذلك... كان يقوم بتشغيل البضاعة الخارجة من المعمل ثمان مرات. ويعيد لصاحب المعمل حقه بهذا التصرف. وبهذا يكون قد ضمن لنفسه ربحاً من كل بضاعة داخلة أو خارجة من المعمل دون الإضرار بأحد. ويعتبر حاج دانغيل آغا

أول رجل في العالم يبيع الماء بسعر القطن. لأن حاج دانغيل آغا استعمل المزيد من المياه في ترطيب بآلات القطن والخيطان، مما أحدث أزمة خانقة من قلة المياه في تلك الولاية. وبدأ العمل يستهلك الماء بدل القطن بنسبة ثمانين بالمائة. حتى أنه في إحدى المرات قدَّم لمندوب إحدى الشركات الأجنبية نموذجاً من الأقطان للتصدير وهي كأس ماء تسبح فيها بعض الخيطان. وظن ذلك المندوب أنهم قدموا الماء له ليشربه. حيث قال:

- مرسي... شكراً، لست عطشاناً.

لم يكن حاج دانغيل آغا مثل غيره يربح المال من الهواء. لكنه ربح من الماء مالاً كثيراً.

كان يحبُّ الخير لدرجة عالية. فقد خلَّص صاحب المعمل من الإفلاس الحقيقي عدة مرات... في المرة الأولى دخل فيها بنسبة واحد بالمائة شريكاً معه. وفي المرة الثانية عشرة بالمائة. وفي الثالثة خمسين بالمائة. وعندما صار صاحب المعمل يلعب بذيله ناسياً المعروف بالامتناع عن دفع الفوائد للحاج دانغيل آغا... قال في نفسه: «لتبقى الحسنة معي»... فطرده من المعمل بعد أن استولى عليه وخلصه من الهموم والمصائب الكبيرة. منتقلاً بعدها إلى دار الخلود نهائياً.

بعد ذلك أصبح الحاج دانغيل آغا أثرى أثرياء العالم... فهو يملك عدة معامل. وأراض واسعة ومزروعة استولى عليها من أصحابها ومن الدولة، وبمساعدة حكومية، تحت شعار الاقتصاد الحر.

ومقابل تلك الأموال وليحصل على رضا الله وطاعته، ليساعده في أعماله... عمل على أداء فريضة الحج... وليثبت للجميع أن كل تاجر عليه أن يكون حاجاً.

وحاج دانغيل آغا لم ينتسب إلى حزب من الأحزاب أبداً... ولكنه يبرهن دائماً وفي كل تصرفاته أمام جميع الناس أنه من أنصار الحزب

الحاكم. يدفع ويتبرع لذلك الحزب بشكل غريب... ثم بعد ذلك يستعيد ما يدفعه أضعافاً مضاعفة.

وحاج دانغيل آغا الذي مازال يعد طفلاً في العمل الحر. كانت يداه مفتوحتين إلى حدٍ ما. يساعد الحكومات بين حين وآخر. واليد التي يمدها وهي خاوية... يرجعها وهي مملوءة.

كان كبار المسؤولين الحكوميين أصدقاء حاج دانغيل آغا على الدوام.

ولكي يستطيع تسيير أموره الزراعية والاقتصادية والمالية على أكمل وجه. كان لا بد له أن يشتري «بنكاً» من البنوك وبذلك يدخل العالم المصرفي. والغرض الأساسي من وراء ذلك هو جمع «أجزاء العملة» من جميع المصارف... ليخلص المواطنين من تعدادها.

ومهما حصل في البلد من تغيرات اقتصادية وسياسية، فإنها لم تؤثر مطلقاً على الحاج دانغيل آغا. حتى أن منزله أصبح صالوناً يلتقي المسؤولون فيه ويشربون القهوة... ويأخذون الصور التذكارية معه...

وحاج دانغيل آغا الذي يحب ويهوى الفن والفنانين. وضع تمثال الجمل الذي أحضره من الحجاز على إحدى زوايا قصره.

وحاج دانغيل آغا. كان يملك مالاً لا يعد ولا يحصى، بحيث لو صف دراهمه من فئة عشر ليرات في شارع ٢٧ أيار، لوصلت الأوراق حتى نهايته وبقي الكثير للشوارع الأخرى. ولو وضعت فوق بعضها لوصلت طبقة الأوزون. وإن جاء مائة شخص وأحصوا أموال حاج دانغيل آغا من فئة مائة ليرة... لأصيبوا بالجنون. ولو أتيت بأموال حاج دانغيل آغا من فئة خمسمائة ليرة. لتمكنت من وضع كل واحدة منها على البنطلونات المثقوبة لجميع أهالي البلد.

وأموال الحاج دانغيل آغا كثيرة بحيث أنها أتعبت لسان المعدم كاتب هذه السطور... وتركته في حيرة من أمره.

وفي النهاية ماذا سيكون وضع دانغيل آغا الحر هذا... أين سيضع أمواله... وماذا سيفعل بها؟.

ملاحظة الكاتب:

في النهاية... مات حاج دانغيل آغا... وجلس أولاده من بعده على الأموال المتراكمة. وكتبت إحدى الجرائد: أن أحد أبنائه بذَّر مليون ليرة في ليلة واحدة. وهي ليلة زفافه. أما المسكين الذي يخطف فتاة للزواج... فسيدخل السجن... ويفكر حتماً بالجوهرة التي تساوي مليون ليرة.

٣٢

بارسل أيسل

عندما يبدأ الحديث في بلدنا عن الممثلين السينمائيين. فإن أول ما يتبادر إلى ذهننا اسم «أيسل أوبسال». أما أهل الفن وطبقة النخبة فقد أطلقوا عليها اسم «بارسل أيسل» وهم مصيبون بهذه التسمية لشهرتها كونها نجمة الشاشة البيضاء. وتعد من أجمل الممثلات المحليات وبطلة الأفلام المحلية. الفنانون والمخرجون ينادونها «إنجي خان» وأصدقاؤها المقربون «ليلى» وفي حياتها الخاصة تعرف باسم «أيلا». واسمها في المحل الذي كانت تعمل فيه سابقاً... «بتول». وفي المحيط العائلي «نازي» أي أن اسمها الأصلي «نظيرة»... والكنية فاطمة. إن «بارسل أيسل» لا تستعمل الاسم المسجل على الهوية أبداً وهو «نظيرة فاطمة»... ولقد حصلت على أسماء كثيرة نسبة للمحلات الكثيرة التي كانت تعمل بها مثل «نورتان»، «جاويدان»، «بتول»، «سوزان»، «يلديز»، «غوجان»، «سافيم» وغيرها من الأسماء.

أما سبب تسميتها بـ «بارسل أيسل» فهو ناتج عن احتفاظها لمحبيها بقطعة في قلبها (بارسل بالعربية معناه قطعة أرض) أي أن كل حبيب له قطعة خاصة في قلبها. وتكتفي بقولها: «إن كل واحد حرّ في «بارسله» أو قطعته».

كانت بارسل أيسل، تعمل في منزل خاص تديره امرأة تحب الخير وتحمي النساء الجميلات، والفتيات اللواتي بدون عائلة وتعرف باسم

«ناجية السياحية». اشتركت بالمسابقة التي أعلنت عنها مجموعة السينما... بدعم من العميل الفني «بدري». وحصلت على درجة عالية من النجاح، حصدتها شاشتنا الفضية، وحازت على الأوصاف الجمالية والجنسية. جسم مثالي رائع قياساته: (الورك: ١١٥... البطن أثناء الجوع: ٨٥... بعد الأكل: ١٠٥... كوسا: ٧٥... الصدر: ١٣١... الطول بكعب عالي: ١٥٥) وفي الوقت نفسه جذابة إلى أبعد الحدود.

وتعتبر نجمتنا السينمائية الجميلة التي دخلت ربيعها السابع والعشرين منذ ثماني سنوات... نموذجاً للفتيات اللواتي يرغبن الدخول إلى عالم التمثيل السينمائي... قصة حياتها غريبة. تستطيع كل واحدة أن تأخذ منها دروساً وعبراً... وفي إحدى المقابلات التي أجرتها مع بعض المحررين السينمائيين كانت تقول:

ـ حياتي... حياتي رواية. لو أرويها... ويكتبها أديب مختص. فإن كل قارئ سيبكي حتماً.

وكما ذكرت في أحاديثها للجيران، إن بارسل فتحت عينيها الجميلتين في أحد بيوت الأحياء الشعبية خارج استنبول... لكن بارسل ردت على هذه الشائعات، بأنها من إخراج بعض الحاسدين.

ـ بالتأكيد أمي تعرف مكان ولادتي أكثر من الجيران.

قالت ذلك وكذبت تلك الحقيقة بنفسها.

وتعتبر النجمة الجميلة محظوظة جداً... لأنها لا تشبه أمها أبداً. ومن المحتمل أنها تشبه والدها... وكلما ذُكر اسمه أمامها كانت النجمة الجميلة تذهب بعينيها الدامعتين إلى الماضي البعيد وتقول عنه:

ـ لقد شغل والدي وظائف محترمة وكبيرة جداً.

ذهبتُ إلى منزل نجمتنا الرائعة في «نيشان طاشي» لأجري مقابلة معها. قرعتُ الباب، ففتحت والدتها. كانت النجمة... مستلقية على الأريكة،

مرتدية ثوباً طويلاً من الوبر الناعم كأنها تقرأ كتاباً... عندما وقع نظري عليها حسبتها إحدى العارضات الأجنبيات الجميلات... لأني لم أر وجهها... وهي لم تتوقع حضورنا، ولم تشعر بدخولنا البيت... كان ظهرها عارٍ إلى حدٍ ما. ومنظرها رائعاً إلى أبعد الحدود... وصوت أغنية رومانتيكية ينبعث من آلة التسجيل. قلت لها:

ـ صباح الخير يا ست أيسل.

لما سمعت صوتي، أصيبت بارتباك وخوف كأنها غزالة أصابتها رصاصة صياد ظالم وقالت:

ـ آي... كنت سأموت من الخوف... أنتَ يا حياتي. آمان... لقد خفتُ كثيراً.

وبما أن الخوف يليق بالنجمة سألتها:

ـ ولماذا خفت؟

ـ لا أدري... هكذا خفت.

بعد ذلك حملَتْ صورة لها من أحد أفلامها وقالت:

ـ المعذرة. لأنني أجلس معك بهذه الثياب... لم يكن لديَّ الوقت لأرتدي ثيابي.

ـ أرجوكِ... الجميل أنك مازلت بهذه الثياب.

قلت ذلك مازحاً.

أجابت أمها:

ـ آه ولك بنتي وهل هو غريب... إنه من أهل البيت.

عندما شكرتها على هذه الإلتفاتة الجميلة. سألتني والدتها:

ـ ماذا تشرب؟ لي كور، ويسكي... قهوة؟

عندما قالت ذلك أجابتها أيسل:

ـ آمان يا أمي... تسألين مثل الأغنياء والأثرياء. أحضري لي كور أولاً... ثم القهوة... وفي النهاية نشرب الويسكي.

ـ قلت: لا أريد أن أكون عبئاً عليكن.

ـ آآ... معقول ولك حياتي... أي عذاب، وهل ما تطلبه عذاب؟ أراك تحضر قلماً وورقة من محفظتك فوراً، فهل تريدنا أن نبدأ بالحوار؟ إذن هيا اسأل..

ـ هل تروين لنا تفاصيل حياتك يا ست أيسل؟

ـ أنا، حياتي رواية يا حياتي... وأية رواية...

بالتأكيد.

ـ لقد شغل والدي وظائف محترمة وكبيرة جداً.

تدخلت والدتها بالحديث، عندما أحضرت الأقداح.

ـ آ... ولك بنتي... لم يكن والدك موظفاً... بل كان آمراً.

قالت بارسل أيسل بعصبية شديدة:

ـ موظف أو آمر... ليكن ما يكون...

ولكي ألطف الجو قليلاً سألت أمها:

ـ على أي شيء كان آمراً؟

ـ لا أريد أن أكذب عليك. لا أعرف ذلك.

بينما كنا نرتشف اللي كور... كانت أيسل قد بدأت تروي قصة حياتها:

ـ نعم لقد كان والدي آمراً كبيراً. بينما كنت صغيرة جداً... لهذا لا أتذكره أبداً.

قالت أمها:

ـ حتى أنا لم أعد أتذكره. مع مرور الزمن... لا أعلم إذا كان جد زوجي هو من يطلقون عليه آنذاك: سلطان حمدي؟ وكان أحدهم ملكاً قال له: «هناك رجل لا يستطيعه القيام بواجبات الصدر الأعظم... تعالَ لنجعل منك صدراً أعظم بدلاً عنه» ولكن جد زوجي قال: «أنا لا أخون صديقي». وردَّ تكليف الملك.

ـ قالت أيسل: يعني رفض ذلك.

قالت أمها:

ـ كان المرحوم والدك أصيلاً جداً ومن عائلة كبيرة. بعد موته طلبني كثيرون... ولكني رفضتهم جميعاً.

قالت بارسل أيسل:

ـ مرت حياتي الطفولية في سعادة ورفاه... أليس كذلك يا أمي؟

ـ آآ... طبعاً... طبعاً. لقد كبرت وسط الخدم والحشم والدادات يا ضناي.

فجأة أعطت أيسل لنفسها وضعية جديدة وقالت لأمها بغضب شديد:

ـ هيا يا أمي تحركي... أحضري القهوة... ولنتكلم نحن على انفراد بضع كلمات.

قالت أمها: كان في قصرنا جناح للحريم... وآخر للضيوف. يا ابنتي... قصِي عليه هذا الشيء أيضاً.

ـ نعم... كنت على وشك أن أنسى... كان في قصرنا وعمارتنا الحرملك... والسلاملك.

قالت أمها: آه من هؤلاء الشباب... لا يعرفون شيئاً عن الحرملك والسلاملك.

ـ آمان يا أمي... ما الفرق يعني. هيا تحركي ولا تثرثري كثيراً. اذهبي وأحضري لنا القهوة... ها... ماذا كنت أقول... كان أبي وأمي ينامان في جناح الحريم. ووالدي يسلم على الضيوف في المضافة.

كانت النجمة تأخذ نفساً عميقاً من سيجارتها وتنفث دخانها في الهواء على شكل حلقات نحو الأعلى. وكأنها تسافر إلى عالم سري خاص... وكأنها طوت خيال الماضي في أعماقها. ثمة قطرات من الدمع تجمعت في عينيها. وأخذت نفساً عميقاً من السيجارة وقالت:

ـ العمر لكم... لقد توفي والدي... وسأتكلم عن كيفية وصولنا إلى هذه الحالة... تعذبت أمي كثيراً... باعت العمارات، القصور، المجوهرات، حتى ربتني وأصبحت شابة.

ـ كيف مرَّت طفولتك يا ست أيسل؟

ـ اشرب يا حياتي... لماذا لا تشرب. في الداخل كؤوس كثيرة. اشرب. هل قلت طفولتي؟ نعم: كنت شقية في طفولتي.

ـ والآن تعتبرين نفسك هادئة... أنت نصف شقية.

قالت بغنج ودلال:

ـ الله عليك... أنا الآن غير ذلك. ولكن إياك أن تكتب هذا. ليبقى بيننا.

ـ هل من المعقول أن أكتبه.

ـ كما قلت في طفولتي كنت شقية جداً. كنت ألعب على الدوام مع الأولاد... ولم يكن عندي صديقات وما زلت كذلك حتى الآن. ولست أدري لماذا... أشعر بالسعادة عندما أصادق شاباً... كنت شقية. أتسلق الجدران المستوية. بينما يقف الزعران من الأولاد أسفل الجدار ونظراتهم مركزة علي... كنت أحب لعبة «واحد وواحد» «اثنين واثنين» و«الحمار

الطويل» ولكن أحبَّ لعبة عندي كانت «يعطيَ التبن من الأسفل ويخرج دخانه من الأعلى»... كنت شرسة بحيث أن الأولاد كانوا يخافونني كثيراً.

- ما هي أغرب حادثة في حياتك؟

فكرت كثيراً وغاصت في التفكير:

- أغرب حادثة... أغرب حادثة في ذكرياتي... الحوادث الغريبة كثيرة. أية واحدة منها أقصها عليك يا ترى؟ أرجوك يا حياتي... اكتب من عندك شيئاً ما... ولتكن فيها أحداث مفاجئة.

- طبعاً أكتبها... لكن من الذي اكتشف مؤهلاتك الفنية؟

- آآ... لن أنسى أبداً... كان في حينا ولد يدعى «عبدي» هو الذي اكتشف مواهبي الفنية.

- وكيف ظهرت عندك ميول للفن؟

- ظهرت في وقت مبكر جداً... منذ الدراسة الابتدائية. كنت أخرج إلى حفلات السمر... ونجحت كثيراً... ولكن عفواً... حتى لا يُقال أنني أمدح نفسي. ظهر جسمي مبكراً... إذا ما خرجت إلى الشارع... الله... لكن الذي بشرني بالمستقبل وكشف مواهبي كما قلت إنه ذلك الولد المسمى عبدي... لأنه شجعني على دخول مسابقة نظمتها إحدى المجموعات... لماذا لا تشرب يا حياتي... اشرب. انظر ها هو فستق الشام أيضاً هنا.

- مرسي.

- ما هذا الميرسي.. ولك روحي... اشرب بالله عليك. إذا لم تشرب فإنك ستصاب بالأمراض وتموت.

- مرسي... بعدين يا ست أيسل..

ـ بعد ذلك... وعندما ظهرت صورتي في تلك المسابقة... قال مدير المدرسة: «إما المدرسة أو الفن»... آه كم كنت غبية في ذلك الوقت. طبعاً رجحت الفن على المدرسة.

ـ لماذا؟

ـ بالأصل لم أكن أنوي الدراسة يا حياتي.. كنت أريد أن أعيش حياتي... ولم أرغب أن أحيا حياة الآخرين بذهابي إلى المدرسة.

ـ هل نجحت في المسابقة؟

ـ توقف قليلاً... سأفضي إليك بما في صدري... لقد أكلوا حقي.. وذهبت أمي إلى المحكمة الاستشارية... ولكن لا جواب. يعني لم أنجح. بعد ذلك اشتركت في مسابقة الجمال. وبينما كنت على وشك الدخول إلى امتحان المقابلة. وإذا برجل يتقدم مني قائلاً: «أنا اسمي حقي. رئيس هذه اللجنة وأستطيع أن أضع من أرغبه في المرتبة الأولى بهذه المسابقة». وبدون محاكمة، صدقته لأنه سيجعل مني الأولى. ولكن ذلك الرجل هضم حقي أيضاً... جعل ترتيبي العاشر... ولم يكن الخائن لا من اللجنة ولا من غيرها... هذه «وطاوة» أليس كذلك؟ عندما سمعت أمي بأني دخلت المسابقة... أقامت عليَّ القيامة... ولحظتها بكيت كثيراً. وذرفت من الدموع... بحيث رضيت أمي مجبرة. وقالت: «مادام الحال كذلك. كنت سأذهب معك إلى المسابقة ... أنت جاهلة. حتى لا أتركك وحدك». ولكنها لم تستطع الدخول إلى المسابقة لأن عمرها كان كبيراً... أمي المسكينة رأت الويلات بسببي.

قالت أمها:

ـ كنت عرفت أن المدعو حقي لم يكن من اللجنة. ولكن ما العمل: الابن هو الابن... تحملت ذلك من أجل ابنتي.

قالت أيسل:

ـ بالله عليك يا أمي وما الداعي للآن لذكر ذلك. ما حصل قد حصل وكفى.

أضافت والدة النجمة الجميلة:

ـ بعد تلك الحادثة غضبت كثيراً، ونكاية به... قررت أن أرسل ابنتي إلى كل مسابقة جمال أسمع بها... لأننا قررنا سلوك هذه الطريق. وكنت أقول في نفسي... لنُقْبَلْ في نهاية المطاف.

ودخلت بارسل أيسل بعد ذلك وتحت حماية ومحافظة أمها سبع مسابقات. توجت في إحداها «ملكة الظرافة» وفي الثانية «ملكة النظافة».

وبعد أن طلبتُ المساعدة من نجمة شاشتنا الفضية. أخذت قبلة من خدها المقدم لي... على أننا صديقان... وقالت من خلفي:

ـ هذا البيت بيتك... نحن بانتظارك دائماً.

٣٣

السيد لازم شاق شقير

السيد لازم شاق شقير. من الشخصيات البارزة والمعروفة في بلدنا. يحمل جميع الصفات المحببة سيفتح أفواه الشباب دون إغلاقها... وسيجعل الشيوخ يعضون أصابعهم. واللعاب يسيل من أفواه النساء والفتيات لشخصيته المكللة بالنجاحات المدهشة والغامضة.

وبما أن السيد لازم شخصية مستقيمة هادئة، مرحة من أساسها. وسيارته الخاصة كبيرة جداً، ولا يستطيع الدخول في الشوارع والأزقة الضيقة. لذلك لم يخرج في طريقه عن الشارع العام. وكل صفحة من ترجمة حياته مليئة بالدروس والعبر وستكون دليلاً لأولاد الوطن.

ولد المحترم السيد «لازم» صباح يوم الثلاثاء المبارك ٣١ آذار عام ١٨٧٤. يومها فتح عينيه على الدنيا ولم يغلقهما ثانية... حتى وهو نائم تظل عيناه مفتوحتين. ومن المعروف أن كل طفل يأتي إلى الدنيا وهو يبكي. أما هذا الطفل الصغير لم يفتح فمه أبداً حتى ولا «بقيق» (صوت الدجاج). ولكن القابلة التي ولدته بدأت بالبكاء والصراخ «أي واه... خاتمي»... قالت ذلك عدة مرات وهي تلطم وجهها وتولول. أما الذين كانوا حولها، تهامسوا فيما بينهم «واه... واه... كانت امرأة سالمة... ماذا حصل للمسكينة يا ترى؟»... ومع أنهم حاولوا تسليتها والتخفيف من أزمتها: «اصبري قليلاً ستمر الأزمة بسلام»... ولكن صراخ المرأة وعويلها ازداد بإضطراد... عندها فهموا أن الخاتم الذي

كانت تلبسه قد اختفى أثناء مجيء الطفل إلى الحياة.

الخاتم والنظارة.

لم يعطَ الطفل اسماً بعد. فقد لوحظ أن قبضتيه مشدودتان، مما استلزم جهود خمسة أشخاص دفعة واحدة لفتحهما. وتم ذلك بعد جهد جهيد... كان في أحدهما خاتم القابلة وفي الثانية نظارة الإمام... وبعد أن أخذوا الخاتم والنظارة من يديه... بدأ الطفل بالبكاء والعويل المستمر.

ومع أن وجود الخاتم في يد الطفل كان أمراً منطقياً إلى حدٍّ ما. ولكن الذي لم يقبله العقل. كيف وصلت النظارة إلى يد الطفل وبأية مناسبة. ولم يستطع أحد أن معرفة كيفية وصول نظارة الإمام إلى يد الطفل سوى والدته التي ردَّت على الفور: «كنا نبحث عن النظارة منذ عدة أشهر. من أين خرجت هذه النظارة؟» أجاب الحاضرون على المسكينة المتعبة، كاتمين السر عنها: إن النظارة كانت في حوزتها هي.يتحدث بعض الاقتصاديين والخبراء الماليين أنه وجد على أطراف الطفل «لازم» بعض القطع الزجاجية فور ولادته من أمه. ولكن الحقيقة والواقعة لم تكن هكذا.. بل كانت كما أسلفنا قبل قليل.

ـ مثل ثريا.

لقد بقيت والدته مدة طويلة دون حمل.. وعبثاً حاولت هي وزوجها لكنها بقيت عاقراً مثل الملكة السابقة «ثريا». ذهبت إلى شيخ معروف بحبه للنساء ويدعى «قاراباسان» فحملت بهمته واستطاعت أن تلد طفلها.

عندما أحضروا للشيخ «قاراباسان» نظارته الضائعة منذ ثمانية أو تسعة شهور قال مندهشاً:

ـ يا سبحان الله. لم أترك مكاناً إلا وبحثت فيه عنها أين كانت هذه «العكروتة».. فقالوا له الحقيقة.. عندها أجابهم:

ـ هذا الولد سيكون رجل أعمال كبير. ليتحول إلى ذهب كل ما تلمسه يداه. إنه ضروري لهذا البلد «أي لازم». وبهذه المناسبة وبتوصية من الشيخ أسموه «لازم».

وأصل والد «لازم» الصغير من ولاية «سايكري» قضاء «دوخالي» وقرية «فيرتك». لقبه «يلابوك» المعروف باسم «كال أحمد». وعندما كبر لازم، زج بنفسه في العمل وصار عنده ثمانية عشر خاناً وأربعون بناية. وثلاثون مخزناً وخمسون دكاناً... وخمسين معملاً. وعدة مزارع... وحمامات كثيرة... وبعد أن ملك كل هذه الأموال والأرزاق. دفع لازم المال الكثير، إلى بعض المؤرخين والخبراء التاريخيين ليبحثوا ويكشفوا عن شجرة عائلته. وظهر من خلال البحث والتدقيق أن والده «يلابوك كال أحمد» ينتسب إلى عائلة أصيلة جداً. وأن جده كان رئيس «السبعة» عند السلطان عبد الغفور وأنه خدم الوطن والدولة والشعب لسنوات طويلة جداً... تم إثبات هذا الشيء بدقة. بعد ذلك عمد إلى جلب بعض الرسامين وبالتعاون مع بعض المؤرخين.. طلب منهم رسم صورة والده وأجداده بالرسم الزيتي... والفحمي. واخترع شيئاً آخر... وهو أن والدته هي حفيدة الباشا زادة «صلاً تومروك».

كان دعاء الشيخ «قاراباسان» مستجاباً... وتحول كل شيء يمسكه لازم إلى ذهب. كما حصل أثناء ولادته. ووجدوا الأشياء الضائعة أثناءها. وعندما بلغ العاشرة من عمره وصار أهل القرية يجدون كل شيء ضائع عنده. اضطر إلى الرحيل من هناك والهجرة إلى ديار الغربة. واستقر في استنبول. هناك عمل عند أحد التجار الهامين... وبدأ في ذلك العمر الصغير يتعلم مسك الدفاتر بالحيلة وأصولها على أكمل وجه. ثم تعلم كيفية التهرب من الضرائب وفق النظام الأميركي وذلك عن طريق غش القيود بتسعة وتسعين بالمائة وتسعة من عشرة. طبق كل ذلك بالأصول المعروفة. حيث تعلم عن طريق حياته الخاصة أن يثبت للعالم... أن كل

من يعمل بوجدان حي وشرف وناموس... سيكون موفقاً في كل عمل يقوم به في حياته العملية والنظرية.

وكانت أول عشر ليرات سرقها تعود للتاجر الذي عمل عنده. حيث وضعها داخل إطار جميل... وبعد أن صار من أصحاب الملايين علّق ذلك الإطار في مكتبه. وكان يتفاخر به أمام زواره ويشير إلى العشر ليرات ويقول لهم بكل فخر: «إنها أول عشر ليرات كسبتها في حياتي». بعد ذلك عندما عرف أن تلك الورقة من فئة عشر ليرات مزورة اتهم ذلك التاجر الذي أخذها منه. ليكن مقامه بين الصالحين... فعل ذلك معي عن قصد. كي لا أعتاد الخيالات الجامحة.

لقد عمل مدة بقالاً في حارته، ثم بدأ بتعليم النساء فن الطبخ والطهي وصنع الحلويات. وبعد ذلك أقدم «لازم» على توسيع تجارته... فبدأ بتصدير الفستق والعنب والفاصولياء والدخان إلى البلدان الأوروبية. كان يرسل بدلاً من تلك المواد كميات ضخمة من الأحجار والحصى والرمل والتراب حتى هبط مستوى سطح الوطن إلى منسوب ساحة الحرية. وكان العلماء يظنون أن السيول هي التي تجرف كل هذه الأتربة الضائعة...

- السنوات العشر المجهولة.

العشر سنوات القادمة من حياة السيد لازم غير معروفة ومجهولة بالنسبة إلينا... ولا أحد يعرف عنها شيئاً.

وبما أنه يحب وطنه كثيراً فقد عمد إلى دفع البدل حتى لا يساق للخدمة العسكرية وقام بتأدية واجبه العسكري نقداً. بعد ذلك ابتعد كلياً عن العمليات الاقتصادية الخاصة... ودخل في التشكيلات الحكومية متسلماً منصباً رفيعاً على أنه مهندس في شركة حكومية. كما يقول المثل «من يلمس العسل يلحس أصابعه».

وبينما كان أصدقاؤه لا تكفيهم رواتبهم نراه شخصياً يدخر كل شهر

سبعة وثلاثين قرشاً ونصف القرش. هذه القروش القليلة التي لا تشكل شيئاً... ستصبح في المستقبل منبعاً للملايين التي ستأتي تباعاً... وبما أنه يحب الادخار... فلن تجد مثيلاً له يدخر المزيد من الأموال. فقد تحولت القروش السبعة والثلاثون خلال سنوات إلى ثروة هائلة.

وبعد ثمان سنوات ترك العمل في تلك المؤسسة. وقد بلغت أمواله مليون ليرة. وهناك قول مأثور للسيد «لازم»: «إذا لم يكن لديك قرش، من المستحيل أن يصبح معك ألف». هذه المقولة دخلت الكتب الاقتصادية الكلاسيكية.

بعد أن أقحم السيد لازم نفسه في الحياة الاقتصادية الحرة. أصبح متعهداً لتقديم مادة السمنة للجيش. وخلال العام الأول من تعهده... وضع في السمنة نسبة خمسين بالمائة من الشوائب.. وبما أن أحداً لم يعترضه. زاد نسبة الغش خلال سنوات إلى تسع وتسعين بالمائة. وفي النهاية أكمل النسبة إلى مائة بالمائة... ورغم افتضاح أمره، فقد تُم صرف النظر عن هذا التعهد. وقدَّم تبرعاً إلى الحزب الحاكم بمبلغ خمسمائة ألف ليرة دفعة واحدة. حيث أثبت ثانية حبه للخير والوطن على السواء.

ثم بدأ بتشغيل أمواله بالفائدة... فجاءت أرباحه خلال مدة قصيرة خمسة أو ستة أضعاف ثروته. ولكي يجعل هذا العمل قانونياً ورسمياً... أشاد مصرفاً، استهلَّه بتقديم هدايا قيمة لأصحاب المبالغ الصغيرة الذين وضعوا أموالهم في مصرفه... وعمد خلال وقت قصير على جمع كل «أجزاء العملة» من جيوب العالم. ووضعها في مصرفه.

ـ القوة الرابعة

وسَّع أعماله، حتى ضمت كل ما وصلت إليه يداه وقدماه، ووقع عليه نظره في البلد. وبما أن ذكاءه خارق وغير عادي. سيطر على وسائل الإعلام المسماة القوة الرابعة. عن طريق دفع الأجور العالية على الإعلانات.

قال عنه بعضهم: إنه أهم الخبراء الماليين عندما اخترع عملية حسابية أنزل بها ضرائبه إلى أدنى مستوى... كان يدفع لموظفيه المعاش القليل ويعطيهم الحوافز الكثيرة. بهذه العملية البسيطة أسعد العاملين وأسعد نفسه.

وعندما يجمع الربح الوفير في كل عمل جديد... وتترتب عليه ضرائب... يفتح أعمالاً جديدة... أخرى حتى يظن الآخرون والدولة أن تجارته خاسرة... فلا يدفع الضرائب.

مع أنه محب للوطن...وعلى درجة عالية من حب الإنسانية... ولا مثيل له في المساعدة والتضامن... وحب للعلم... وإيمان مطلق بالديمقراطية. كان يدفع مساعدات للأحزاب أيام الانتخابات حسب أصواتها. وبهذا يكون قد أثبت حبه للعدالة الاجتماعية. حتى أنه كان يدفع للأحزاب الصغيرة والبعيدة جداً عن النجاح والفوز بالحكم. ولكنه شخصياً كان بعيد النظر في هذه الأمور مطبقاً القول «من يدري ماذا يحصل». في آخر مرة دفع فيها للحزب الحاكم الذي نجح بالانتخابات... وإذا بانقلاب عسكري يقضي على الحكومة الجديدة. وكان مقدار ما دفعه خمسمائة ألف ليرة. لكنه حصل على الأضعاف المضاعفة بدفعه إلى المسيطرين على الحكم الجديد... وذلك بتلحيسهم شيئاً من العسل المادي والمعنوي. حتى سيطر وكسب ودهم وحبهم وتقديرهم.

وبهذه الترجمة القصيرة عن حياة السيد لازم... نتوصل إلى حقيقة مفادها... أن السيد لازم بدأ من الصفر وصار مليونيراً. وأنه ربح أمواله كلها بعرق جبينه. ولكن بعض أعداء الثروة والغنى المنافقون والخائنون المتحدثون باسم الاشتراكية. كانوا يتكلمون بأفواه تفوح منها العفونة «أرجو المعذرة» (كل هذا العرق لا يتبوله حتى البغل. هل تنام بحيرة «وان» تحت هذا الرجل؟). بهذا الكلام كانوا يصطادون في الماء العكر...

صانعين من الحبة قبة. ومثيرين زوبعة في كأس من الماء. جاعلين الأفكار العمومية المحترمة التي تستيقظ من سباتها العميق. تقلق راحتهم... وتجعلهم يتقيأون ما في معدتهم. ولكن بعناية الله ورعايته لم يستطيعوا أن يأكلوا حتى ولا فرع نعنعة صغير. وأساساً ليسوا سوى مساجين. وذلك بالاعترافات التي جعلت قوات أمننا يرغمونهم على قولها بأنهم قتلة ليس إلا. وأن ملفاتهم تكبر وتكبر.

السيد المحترم لازم... له كلمة وجيزة صغيرة هامة يقول فيها: «أجمل الاستثمارات... هي الاستثمارات الخاصة».

السيد لازم دافع بقوة عن الاستثمار الخاص... والمال الخاص والكاتب الخاص والقطاع الخاص... والسكرتير الخاص. والسيارة الخاصة. ومع كل ذلك يتطلع بحب خاص إلى القطاع العام والدولة. وباستطاعة الدولة والعاملين فيها رفع طاقة القطاع الخاص. ودعمه وهذا من أولويات وظائفهم.

وفي الوقت نفسه فالسيد لازم اشتراكي واشتراكيته نبتت جذورها في الأعماق. والسيد لازم ليس اشتراكياً فقط. بل هو أيضاً من محبي «أتاتورك» ويقول دائماً «نحن في إثر أتاتورك». أي أنه مواطن اشتراكي. كمالي. جمهوري.

وهو أب الفقراء والمعوزين في بلدنا. بنى مشفى ضخماً للمصابين بالسل من العاملين لديه. فقد أكل حقوقهم وجعلهم فقراء معدمين محرومين حتى أصيبوا بالسل من الجوع. ويعتبر هذا بمثابة كفارة له على الأقل.

- ليكون كريماً

وفوق ذلك عمد السيد لازم على فتح بئرين وبناء جامع ومدرسة. فقد أمَّن لنفسه ولعائلته أجمل القطع في الجنة وهو على قيد الحياة. كما أنه لم

يترك للفقراء والمعدومين قطعة واحدة على الساحل. كذلك لم يترك لهم مكاناً في الجنة... وأبقى لهم جهنم فقط. وبهذا يكون قد أثبت لهم قطعياً إيمانه بالعدالة الاجتماعية. وهو رجل من رجال الأعمال الذين لم يتركوا لرجل عمل آخر أن يقول له «إنه رجل محب للخير».

وصرف الأموال الطائلة في خدمة الطب الحديث... فقد زرع جسمه بالفوسفات... حتى لا تستفيد النباتات من جسمه في القبر وفي الوقت نفسه ليعيش أطول مدة.... ولكن عندما ناهز الثمانين من العمر. كان جسمه قد تَكَلَّسَ كلياً... وطلب الموت. لأنه أصبح في حالة لا فائدة منها. وانتقل إلى رحمته تعالى. بينما ظلت عيناه مفتوحتين.

وبجنازة محترمة محتشمة. لم نرَ مثلها من قبل وضعوا جسده وهو عبارة عن كومة من الكلس في القبر بينما آلاف العيون تبكي من خلفه. وقد أرسلوا لجنازته أكثر من ستمائة باقة ورد. وبقيت الجرائد تكتب عن موته متأثرة آخذة كل يوم صفحة كاملة أو نصف صفحة هذا العنوان «عالم من الضياء». وكانت الشركات تدفع للجرائد ثمن الإعلانات والتعازي.

أما ابنه الذي ذهب إلى أوروبا لدراسة الفلسفة. سافر من هناك إلى أمريكا لإتمام دراسة الصيدلة. والآن هو في أمريكا يلحن موسيقا الجاز. أما ابنته الكبرى فهي على وشك أن تترك زوجها الرابع. وابنته الصغرى السيدة موريس: تحاول مع زوجها وبشتى الوسائل تخفيض ورثة والدها والتي من غير الممكن إنهاؤها دفعة واحدة. (صحتين وعافية).

٣٤

تيربان آلتان لاعب كرة القدم الذي مزّق الشباك

هناك شخصيات كبيرة ومشهورة في التاريخ، سلكت عكس الطريق المطلوب منها، واختارت الطريق الذي أعجبها. وهكذا ترقت في سلم الشهرة حتى وصلت إلى القمة.

وهناك عائلات رغبت أن يتعلم أولادها سر الكهنوت. ولكن بعضهم أصبح من كبار القادة العسكريين أو الجلادين. كما أن عائلات كثيرة رغبت أن تجعل من أولادها محامين. ولكن الأولاد اختاروا لأنفسهم مهنة فتح الخزائن، أو مهنة رجال البوليس، أو كبار التجار.

مثلاً: هل تعرفون أن والدي نابليون كانا يرغبان أن يصبح ولدهما مهندس قطارات كهربائية؟.

أما الأناس المشهورون عندنا ومنهم الأسطة يعقوب الشهير في صنع الكباب واللحم بالعجين. فقد رغب والداه أن يكون معلماً. (ولكن تبيَّن فيما بعد أن المسكين مصاب بالصرع والهلوسة). وظلّ يعقوب يطمح حتى أصبح معلماً كبيراً في الكباب، ويملك الآن أكثر من ثمانية مطاعم كبيرة تقدم الكباب واللحم بالعجين.

ومع الأسف الشديد. هناك أخطاء قاتلة وكثيرة من الآباء. فهم لم يستطيعوا الكشف عن الرغبات في رؤوس أطفالهم. لنأخذ مثلاً نجم كرة القدم عندنا الذي مزّق الشباك «تيربان آلتان». (وكما هو معروف يوجد لدينا نجمان معروفان اسمهما آلتان. ولكي يتم التفريق بين الكبير والصغير.

أطلقوا على النجم الكبير «الدب الكبير». والنجم الصغير «الدب الصغير»). لم يستطع والداه اكتشاف تعلقه بالكرة. مع أنه دخل قافلة المشهورين العالميين. ولو سمع مشورة والديه، لأصبح الآن موظفاً يعيش من الضرائب الخاصة التي كان سيأخذها من المواطنين. ولكن آلتان وقف بعناد وصبر كبيرين أمام مواقف أمه وأبيه... وخط طريقه كما أملى عليه عقله. وأرشده إلى مجال كرة القدم، حتى وصل هذا المستوى الكبير.

ويعتبر «تيربان آلتان» من أهم الشخصيات التي دخلت وربحت قلوب وعقول الجميع. الشباب، الفتيات، النساء، الرجال، والعجائز. أي من السبعة إلى السبعين. وتعد أقدامه من أغلى الأقدام في العالم «ماعدا عملية جراحية واحدة أجريت لإحدى ساقيه». ماضيه الرياضي مشرف «وقد ثبت أنه أخذ مالاً مقابل إحدى المباريات» ليس في ساحتنا فحسب بل في كل البلقان والشرقين الأوسط والأدنى. أي لم يظهر مثله أبداً. وهو من الرياضيين النادرين. لعب إحدى وعشرين مباراة دولية مع المنتخب الوطني. واستحق بجدارة لقب «البطل بلا منازع». ولم تصدر عنه كلمة سوء طيلة حياته سوى واحدة... عندما نظر إلى إحدى الجهات وصرخ «ولك يا جماعة البقر»، وقد ظن الجميع أنه يوجه الكلام إلى حكم الساحة. إلا أنهم عندما نظروا إلى مكان صراخه، وجدوا بقرة حقيقية وسط الساحة، عندها نال إعجاب المتفرجين والإداريين، فقد كان صراخه على وجه حق... بقرة مسكينة خدعها المتفرجون... عندما كانوا يهتفون الساحات الخضراء لنا. ولم تجد البقرة سوى ساحة ترابية، فوقعت تحت سيل المتفرجين ودخلت عنوة إلى الساحة. لقد ضلت البقرة المسكينة الطريق... فأسرع رجال الشرطة وأخرجوها من وسط الساحة.

أما تسميته بـ/ممزق الشباك/ فقد جاءت إثر حادثة غريبة. عندما حاول أثناء المباراة تخليص الكرة من قدم أحد أصدقائه في الفريق... وحدثت دربكة كبيرة في تلك النقطة فجاءته كرة موجهة بقوة من أحد اللاعبين،

أصابته من خلفه أي من نقطة الثقل عنده وقذفته بقوة إلى الزاوية اليسارية من المرمى... وطار في الهواء بفعل هذه الضربة الخارقة، وثقب رأسه الشباك بينما بقي جسمه داخل المرمى تماماً كالسمك الذي يقع في الشباك.

وفي رواية أخرى: أن آلتان الذي كانت عنده حساسية كبيرة للشباك... كان يمزق كل شبكة يراها. في إحدى المرات كان يصور فيلماً مع عارضة الأزياء المشهورة فارمو آر. على ساحل البحر، ضمن مجموعة كبيرة من شباك الصيادين... ووسط هذا المنظر الرومنتيكي الجميل لم يستطع آلتان تمالك نفسه فانقض على الشباك ومزقها شر تمزيق. واثر ذلك قالت الفنانة الجميلة «إن الشباك لم تتحملك يا سكرتي». ولهذا لقبوه آلتان ممزق الشباك. مع أنها أي فارمو آر قالت للصحفيين بعد تلك الحادثة «ليس هناك شيء بيني وبين آلتان سوى أننا أصدقاء فقط».

أما سبب تسميته بـ «تيربان» فهو أنه إذا كان في مباراة أو خارجها... ويقف أمامه من يقف، لاعباً كان أم حكماً، فإنه يهجم عليه ويمزقه شر تمزيق... ولهذا استحق اللقب بجدارة عالية.

تحدَّر آلتان من عائلة فقيرة جداً... من ذوي الدخل المحدود. وهو الشقيق الأصغر لتسعة أخوة... ولقد ركض وجرى طويلاً مع أولاد الحارة خلف الكرات الورقية والقماشية لسنوات طويلة جداً. وكان والده يضربه بشدة عند عودته من العمل مساءً. لأنه لم يعد بإمكانه أن يشتري له أحذية. فآلتان يستهلك كل يوم أو يومين حذاءاً جديداً... ويظل أبوه يضربه «حتى تنزل المياه من الصنبور» لأنهم كانوا يسكنون في استنبول.

وبسبب هذا الضرب الكثير والشديد والتمرين اليومي القاسي. أصبح جسمه يتحمل أقسى أنواع التعب والإرهاق والضرب. وهو صاحب جسم قوي، حتى أنه كان يتحمل أقسى أنواع الضربات واللكمات أثناء

المباريات... كما كان يتحمل الضربات القوية التي تنهال عليه من المدرجات. مثل زجاجات الكازوز الفارغة، والأحجار، وأنصاب الذرة، والفواكه. ولهذا لقبوه بـ «تيربان آلتان ثاقب الشباك». وكان يذكر دائماً والده بالخير ويقول «من رعاني وجعلني قوياً هو المرحوم والدي». أما والده الذي قرأ في إحدى الجرائد خبراً مفاده أن ابنه آلتان قبض مبلغ سبعمائة ألف ليرة... أحس بندم شديد لظلمه ابنه وسقط على الفراش من عذاب ضميره. وكان آخر ما قاله «آه... لو أصبحت لاعب كرة». وبما أنه لا يملك شيئاً يقدمه لزوجته. فقد سلمَّ روحه لها وأغمض عينيه عن هذه الدنيا الفانية.

ويجب أن لا يعتقد شبابنا أنهم عندما يأخذون الدروس والعبر من كبار المشهورين وخاصة من آلتان... أن محيطه قد ساعده على هذه الشهرة... فهو كالآخرين... أنشأ نفسه بنفسه... كان محيطه لا يفهمه أبداً. لأنه وفي كل شوطة للكرة الورقية أو القماشية... كان يكسر نوافذ الجيران. فكيف لهذا المحيط الذي لا يفهم شيئاً أن يساعد آلتان. ومع الأسف فإن التاريخ كان دائماً هكذا. أما والده الذي لم يستطع تأمين الأحذية لابنه. فقد ظل يضغط على المسكين ليجعل منه رجلاً حقيقياً. أما بعد ذلك... فقد اعترف والده لأقربائه وأصدقائه، أنه يعاني كثيراً من عذاب الضمير.

ومع أنه لا من أحد يعرف كيف حصل على شهادة الدراسة الإعدادية. فهو ضمن الفاعل المجهول.

كان يلبس أثناء المباراة اللون البنفسجي الفاتح، عندما أصبح هاوياً. ويلبس لون وبر الجمل بعد احترافه. وبعد أن تحدث عن ناديه قال «أنا أعيش من أجل ألوان النادي». في هذه الفترة دُعي إلى الخدمة العسكرية وانتسب هناك إلى فريق «مهْتَرْ» العسكري محافظاً على مهارته وقوته

وتكتيكه. وخلال العامين... حافظ على مرمى فريقه ومرمى الوطن دفعة واحدة.

وبعد أن أدى واجبه تجاه الوطن على أكمل وجه... عاد إلى فريقه. ويعتبر تيربان آلتان مرتبطاً بناديه وألوانه... ولهذا لم ينتقل سوى ست مرات من نادٍ لآخر.

لم يعتد تيربان لعب القمار كما هو سائد لدى جميع اللاعبين عندنا. وهي عادة سيئة جداً. ولكن عندما يعسكر الفريق في مكان ما... كان يلعب «الباربون» في أوقات فراغه... ويرمي بالزهر. ويلعب بـ «البوكر». وبقية الأوقات كان يروح عن نفسه بلعب الطاولة. «كل جولة» بعشر أو خمس وعشرين ليرة.

ومع أنه لا يعاقر الخمر. فلم يخرج إلى أية مباراة وهو سكران أبداً... إنه رياضي نظامي إلى أبعد الحدود. حتى أنه في إحدى المعسكرات... كان رئيساً لفريقه... ولكي لا يخرق النظام في المعسكر. كان يدخل إلى المرحاض ليشرب «كولونيا الليمون»... وبما أن المباراة صعبة وحامية الوطيس جداً... كان يرش الساحة بأريج رائحة الليمون.

وخدمات ممزق الشباك تيربان آلتان كثيرة لا تحصى للكرة التركية. فمثلاً خسارتنا أمام فريق «هوتانتو» بـ ١ ـ ٧... وأمام فريق «بوتانتو» ٠ ـ ٥... هذه النجاحات بأكملها سببها «تيربان آلتان ثاقب الشباك». لأنه لو لم يلعب في تينك المباراتين، لكان الفرق كبيراً.

وهو في الوقت نفسه يحمل حباً قوياً لناديه. ويكن عشقاً كبيراً لألوانه. فإذا ما هزم فريقه في مباراة ما... يُشاهد في جميع المباريات الخاسرة.. يبكي في غرف تبديل الملابس لأنه لن يأخذ حافز الانتصار. وعندما تضايقه هذه الأحزان الكبيرة. يذهب إلى البارات للبحث عن تسلية لطرد الحزن والألم. تراه دائماً متوثباً للهجوم على الآخرين... إلا إذا

التقي واحد من ذوي الرقاب الغليظة المليئة بالشعر... فيعمل له مساجاً في «باي أوغلو» ويفتح في وجهه بعض الخرائط... فيبدل شكله ويغطّس أنفه... عندها ينزوي ساكناً هادئاً.

ويعدُّ ثاقب الشباك «تيربان آلتان» الذي صار مثل أسطورة. لاعب كرة لا مثيل له. ومن هذه الأساطير التي قيلت فيه: وهو أنه بعد اثنتي عشرة تمريرة بالكرة وشوطه لها... أصاب ثوراً ضخماً فأوقعه أرضاً لقوة الكرة... وهذه الرواية مخالفة للحقيقة والمنطق معاً. وحقيقة الأمر هي: أن تيربان آلتان ليس من اثنتي عشرة تمريرة... بل من ثماني عشرة تمريرة وليس بقدمه اليسرى بل باليمنى... وليس ثوراً بل فداناً... أوقعه أرضاً وأرداه قتيلاً. وهذه هي الحقيقة بعينها.

بدا صابراً في كل المباريات التي أجراها في حياته. ولكن في إحدى هذه المباريات وعندما شتمه أحد المتفرجين. وقف وأشار إليه بإصبعه الوسطى الرذالة المعترف بها دولياً... وفي نهاية الموسم اختير أفضل لاعب أخلاقي «جنتلمان».

هذا اللاعب الأسطوري الذي حاولنا تقديم نبذة عن حياته الكروية المشرفة والمليئة بالانتصارات. ترك الحياة الكروية والتفت إلى النوادي الاجتماعية. فبدأ بألعاب الحظ والحكايات الخضراء. في الوقت الذي سيبدأ فيه ثاقب الشباك تيربان آلتان. آملاً النجاح في حياته الجديدة.. حددوا الأحد القادم إقامة مباراة الاعتزال. وهكذا يُسدل الستار على حياته الكروية المليئة بالانتصارات والنجاحات نهائياً. لاعبنا الأسطوري هذا سنظل نصفق له في هذه المباراة حتى تنفجر الدماء من أكفنا... وهذا ما نعلنه لمشجعي، ومحبي الرياضة والكرة في بلدنا.

٣٥

صهر الجمهورية «دامات»

إن تاريخنا ثريّ بالأصهرة المشهورين والمعروفين. وبلدنا رعت وأنشأت أصهرة كثيرين كالذين يزرعون الدخان، والفستق، والعنب، والبلوط... والذين صاروا بإنتاج محاصيلهم في طليعة دول العالم. وفي مثل بلدنا الذي رعى وأنشأ مجموعات كبيرة من الأصهرة.. فقد ظل بعضهم طي النسيان، ومازال الكثير منهم لم يكتب عن سيرهم كتاب واحد... وهذا يعد تقصيراً كبيراً للناشرين في تركيا.

قبل كل شيء لنعد إلى كلمة «الصهر» ولندقق معناها، من أين جاءت. وكيف وصلت إلينا؟.

السيد الناشر:

تحية طيبة وبعد. في هذه القصة سنستعمل الكلمات التركية للتوصل إلى المعنى الحقيقي... وبدونها لن نتوصل إلى ترجمة القصة أبداً... وليس علينا سوى أن نتعرف إلى بعض الكلمات القليلة.

دامات: الصهر.

قاينانا: حماتي.

قاين: Peder: الكنة.

Peder: الأب.

Anne: الأم آنًا.

قاين Brader: أخ الزوجة أو ابن الحما.

من المعروف إن أصل كلمة «قاينانا» الحماة. هي: «قايم أنّا أو قينانا» وأصل قاين Peder (بدر) الحما: هي قايم بدر وأصل كلمة «قاين برادر» ابن الحما «قايم برادر» قايم والدة..

وضعت محل الوالدة. كلمة القايم التي تأخذ هنا معنى الأم «آنّا». أما «قاين Peder» و«قاين برادر» معناه الإنسانوبموجب هذه القاعدة اللغوية يجب أن يسمى «دامات» أو الصهر «قايم أولاد». والسؤال هنا يطرح نفسه عجباً لماذا يقال له «دامات» (أي بمعنى الصهر). إن سبب هذا يستند إلى حادثة تاريخية قديمة جداً... وكما هو معلوم فإن الملوك يجعلون من المقربين إليهم أو الذين يحبونهم، باشاوات (باشا) ثم يزوجونهم بناتهم، أو أخواتهم. وأحياناً يحصل العكس.. يزوج ابنته أو أخته لأحدهم فيجعل منه باشا. وبما أن «الدامات» الأصهار مبنية في أكثر الأحيان على مصالح سياسية أو تجارية... أو اقتصادية. ومن الطبيعي أن يتشكل لهم بالمقابل أعداء كثيرون حسداً.. ولن يتوانى الأعداء على البطش بالصهر أو الدامات في أول فرصة سانحة.

وهناك أثر تاريخي رائع وقيم للمؤرخ «شمس جودت باشا» بخط يده وعنوانه «تذكرة الدومادا. وداعاً للأصهرة». ودومادا بالعربية معناها الأصهرة (حرفياً من الكاتب). وفي هذا الأثر يحاول «شمس جودت باشا» إظهار كلمة الدامات وتفسيرها:

«خطف بعض الأتراك طفلاً اسمه «ميجو» من بالوز. وعرضوه للبيع... كان الطفل قد جذب أنظار الشاه زادة جعفر فاشتراه، وأسكنه منزله حيث أدخله المدرسة، وأشرف على تربيته بصورة جيدة... وعندما أصبح جعفر ملكاً. جعل من الولد العزيز «صدراً أعظم». وبعد ذلك زوجه ابنته وجعل منه «قايم أولاد» أي صهراً أو «داماتا».

لكن المسكين تعرَّض لوشايات الأعداء وافتراءاتهم، وغمزوا الباشا

عليه، فما كان من الأخير إلا أن نقم على صهره، وطلب من الجلاد قطع رأسه. وبعد أن فصل الجلاد رأس الصهر عن بدنه... سأل الملك «ماذا أفعل بهذا الرأس يا مولاي؟» عندها أجابه الملك: (داما آت.. داما آت) ومعناه: ارمه عن السطح. (دام =السقف. آت=ارمِ). وتكررت الجملة على لسان الحاشية كثيراً... وتحورت من (داما آتَ) إلى (دامات) أي الصهر... وهكذا ظهرت كلمة دامات إلى حيز الوجود. إن هذه الحادثة تظهر سلوك الداماتية المبني على المصالح السياسية والتجارية والاقتصادية... وخطرة وبومبو...».

وبما أن الكتاب مكتوب بخط اليد... وقديم، فإن الحروف بعد بومبو غير واضحة. ولم يستطع أحد قراءتها... ولكن من السهل أن يخمن الإنسان الحرف أو الحروف التي أراد الكاتب شمس جودت باشا أن يقولها: وهي «بومبوش» أي فارغة.

ومن الداماتية أو الأصهار المشهورين في تاريخنا والذين من الصعب إحصاؤهم. وأول ما يخطر على بال الإنسان هو صهر سليمان «إبراهيم باشا»... وصهره «رستم باشا». (الذين ألقي بهما من على السطح). وصهر السلطان أحمد الدامات نفشهرلي إبراهيم باشا وزوج السلطان «ناجية» «أنور باشا» وصهر السلطان مجيد الدامات «فريد باشا». وحتى في عهد الجمهورية انكشفت الداماتية أكثر وتوزعت... لقد دامت مؤسسة الداماتية عندنا على أسس ثابتة ولا تزال إلى الآن. وبما أنها أي الداماتية تستند إلى جذور تاريخية قديمة جداً. نستطيع أن نقول عنها أنها من أكثر المؤسسات إنتاجاً وعطاءاً بالنسبة للرأسمال.

وكما أنه لدينا الكثير من الدامات التاريخيين... كذلك لدينا مثلهم من الدامات الجغرافيين. والمشهورين أيضاً. وإذا قمنا بمقارنة بين الدامات التاريخيين والجغرافيين نستطيع القول كما هو معروف: أنه يُقال للدامات

المشهورين في عهد السلطنة «حضرة الدامات شهريار». أما الصفات التي كانت تعطى لدامات الجمهورية مثلاً «الدامات الحمار». وحاشا من هنا... أليس عيباً من أجل صهر أو دامات قليلي التربية. نظلم الحموات. ولهذا السبب وصف أحد الشعراء المشهورين.. حموات الجمهورية بهذه الكلمات:

«لم يتعب من شيء في حياته

كما تعب وذاق الأمرين من داماته

- - - - - - - - - - - - - -

وآه عليك يا عبد الرحمن جلبي».

فالشاعر وضع اسم عبد الرحمن جبلي في بيته الأخير ملمحاً إلى الأصهار... أو الداماتية... وعندما لم يجد الخروف الضائع، تحدث عن العنزة التي كانت تمر أمامه.

أما الفرق الثاني بين دامات عهد السلطنة المشهورين ودامات الجمهورية هو: أنه في عهد الملكية كان الدامات غالباً ما يصبحون صدراً أعظم أما الدامات المشهورين في عهد الجمهورية فلا يكونون سوى الأذن اليسرى للصدر الأعظم الحالي... وليس لهم عمل سوى الثرثرة وقلة الأدب.

ولكن الشيء المشترك بين الدامات التاريخيين والجغرافيين. هو أن الفئتين تنتسبان إلى الفئات «الدنيا»... ثم تصعدان وتنتسبا خلال وقت قصير إلى الطبقات العليا. مثلاً: الدامات إبراهيم باشا كان ابناً لأحد الصيادين الطليان. أما الدامات نفشهرلي إبراهيم باشا كان ابن مزارع فقير في إحدى القرى. أما دامات الجمهورية. ومع أنهم يحسبون أولاداً للجمهورية. فإن أحدهم أي من الدامات الجمهوريين المشهورين يقال له: هين بن هين.

والتشابه الكبير بين الدامات التاريخيين والجغرافيين... فالجنسان جاءا

من الجبل... وحاولا الجلوس محل القاطنين في المزرعة. والسيطرة عليها. (هناك مثل شعبي تركي شائع: «جاء الجبلي ليطرد الحضري»).

وليس الدامات الجغرافيون أقل شأناً وعدداً من من الدامات التاريخيين. ولهذا السبب فقط فإننا نحاول أن نلقي نظرة علمية فاحصة على مؤسسة الداماتية. بدلاً من أن نتطرق بالحديث عن واحد منهم.

لو كان ولد الجمهورية «الدامات» واحداً. لكان هذا الشعب المعدوم الفقير يأكل العسل والسمن واللحم. لا يفكر بأمور أخرى. ولكن عهد الجمهورية كان معطاءً جداً من حيث الدامات. وخاصة دامات هذا الزمن. لأن أقصر طريق للوصول إلى الشهرة وقوة الكلمة والمال لا يمر سوى من والد الزوجة ومن وسائل الإعلام. لهذا فإنهم يحاولون وبشتى الوسائل الإيقاع بين العائلة الواحدة. أما دامات آخر زمن فهو مثل منقار الغراب الذي يأكل الجيفة. إذا لم يجد ثياباً قذرة ليوسخها بقلمه. يوسخ الثياب ثم يُدخل قلمه فيها. وبهذا يشعر أنه يخدم الوطن على أكمل وجه... ويحظى بأعلى درجات الذوق والسعادة.

وليكونوا دامات أية مرحلة من المراحل. فإنهم جميعاً ليس عندهم مشكلة عدم وجود مسلك ما في حياتهم. لأنهم بالأصل تبنوا مسلك الداماتية برضاهم وصاروا محترفين في مسلكهم هذا. فمثلاً أحد الدامات المحترفين كونه قد صار «رئيساً للسبعة وذمتها» وذلك «بالفخرية» فهو يوزع العقول على المسؤولين. وأصبح مديراً للمرور إلى الحياة السياسية بوجهين.

ـ أنت اذهب من هنا!

ـ أنت وقف هناك

ـ أنت... ارجع

ـ ابتعدت... توقف بعض الشيء

ـ التفت نحو اليمين

ـ مر من هنا نافخاً بفارته «هيس ماسترز فوجيه» مشعلاً المصابيح الخضراء أو الحمراء للسياسة. ولذلك نجحوا في تعقيد الحياة الاجتماعية والسياسية التي يُعجب بها الأجانب.

ويقولون أنه في أحد الأيام جمع خرافه وأغراضه ذهب مع الشيطان منهزماً. ويقول شهود عيان أنه ضحك على الشيطان نفسه. والذين يضحكون على الشيطان... يتراءون للذين لا يعرفون شيئاً وكأنهم عرفوا أشياء كثيرة. والحقيقة هي أنه يعرف الأشياء كمن يمد إصبعه إلى أصناف الطعام ليتذوق نكهتها. مثل هذا الشخص يكون بسيطاً جداً. ومن خدم البلد بأخذه مسلك الداماتية أو هكذا كما يقول عن نفسه. ولكي يبقى على حياد في كل الأمور... فهو لا ينتسب إلى حزب من الأحزاب أو يصير عضواً في مجلس الأمة. ولكنه يدير أشغاله ومصالحه على أكمل وجه بكل السبل والوسائل.

وبما أن الداماتية مسلك فيه الغيرة والعداوة على الدوام. فيجب على الدامات المشهورين عندنا أن يكونوا قد أخذوا الدروس والعبر من التاريخ وأن يكونوا حذرين جداً... لأن الواقفين على الدور والذين يحملون الملاعق في أيديهم ينتظرون الفرصة المناسبة لخنق هؤلاء الدامات في ملعقة من الماء.

٣٦

علي تمل هاجان
الذي أحدث انقلاباً في العمارة والخان

من لهم علاقة أو معرفة بتاريخ الفن التركي... من قريب أو بعيد. يعرفون أن محاولات كثيرة جرت لإيجاد خط وطني ترأسه شخصية وطنية متعمقة في الأدب والموسيقا والرسم والنحت.

لقد تم العثور على شخصية وطنية حقيقية في الفن المعماري منذ ثلاثين عاماً.. مع أننا لم نتخلص من التقليد الأعمى في فروع الفنون الأخرى. فإذا جاء أحد خبراء الفن المعماري إلى استنبول وأنقرة وإزمير والمدن الكبرى الأخرى. وشاهد الأحياء الشعبية المحاطة بالأسوار. إضافة إلى آثار القصور التاريخية الجميلة الممتدة على طول «البوغاز» والتي تت إزالتها، وخاصة البنايات القديمة المبنية من التراب والحجر الأحمر... حتى «بنديك» (حي من أحياء استنبول). ورفع بدلاً منها العمارات الحديثة، سيعرف من نظرة واحدة أن هذه الاكتشافات المعمارية هي تركية الأصل ومناسبة جداً لنا. وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على أننا وصلنا مستوى حضارة رفيعة من الناحية المعمارية والفن المعماري (الكاتب يسخر من إزالة القصور والقلاع القديمة ورفع بنايات حديثة مكانها... ويشتم الفوضى القائمة في نظام البلديات داخل وخارج المدن... وكثرة الأحياء الشعبية دون نظام ولا رخصة) المترجم.

وكما يبصم المزارع الأمي على عريضة بإصبع واحد أو إصبعين...

نحن أيضاً بصمنا بشفاهنا على هذه الأحياء الشعبية الحديثة والعصرية. هذا هو الفن الوطني. الذي يعكس لنا ما نحن فيه. كيف استطعنا أن نجد هذا الفن الخاص بنا دون أن نستورده من شخص أو جهة ما؟ لماذا هذا الفن بالذات... الفن المعماري؟ وبهذا الأسلوب والطراز؟... والحقيقة التي نبحث عنها تأتي في الجواب على هذا السؤال.

على رأس القائمين بهذه المعجزة أحد المواطنين والقاطنين على ساحل البحر الأسود. اسمه «علي تما هاجان». وقبل أن ندخل في حياة هذا المواطن... لنلق نظرة خاطفة على تاريخ فن العمارة التركي والعالمي... وتطورهما.

كما كان لدينا أدبان منفصلان بعيدان عن بعضهما البعض. أدب الديوان والأدب الشعبي... فإن فن العمارة التركية يشبه ذلك. تطور باتجاهين بعيدين عن بعضهما. الأول الذي يشبه أدب الديوان وهو «Aportaman» (الكاتب يقلد هنا لهجة الناس القاطنين على ساحل البحر الأسود: البناية= «Apartman») أما هو أي الكاتب يقول عن إحدى فروعها «Aportaman») المترجم. والنوع الثاني الذي يشبه الأدب الشعبي هو (Gecekondu) معناه الحرفي «البيوت التي تهبط في الليل» أي البيوت الشعبية) المترجم. التي لا يوجد عند سوانا شبيه لها على الإطلاق. وإن وُجد فسيكون تقليداً لمدرستنا المعمارية. فإذا كنا نقلد الأجانب حتى الآن. فهم الآن يقلدوننا وهذا يظهر أننا سبقناهم على الأقل في هذا المجال من الفن.

ومع الأسف. أنه مازال مخترع الفن المعماري للبيت الشعبي مجهولاً عندنا حتى الآن. وكما أن الفن المعماري للحي الشعبي مناسب لنا على أكمل وجه، فهو بهذا النظام الجديد قد جدد أشياء كثيرة في العمارة العالمية. تماماً كالجنود الذين يموتون في الحروب ولا تعرف هويتهم ومن ثم

يكتب على قبرهم... «قبر الجندي المجهول». وهذا ما سينطبق على عمارتنا الشعبية... فكل بيت شعبي قائم بحد ذاته يعيش وهو عمارة مجهولة.

ومع أن كل الآلات التي نستوردها مثل الراديو والتلفزيون والسيارة وغيرها هي من صنع الآخرين. وحتى المؤسسة الاجتماعية... فلا داعي للحزن أو الخوف... فقد صدرنا لهم بالمقابل هذا النظام المعماري الشعبي. وهناك شيئان أهديناهما للدنيا بعد قيام الجمهورية عندنا، وبهما نكون قد استرجعنا ديوننا المادية والمعنوية... أحدهما الدولمش= dolnus = الممتلئ. (يقصد هنا سيارات الأجرة الكبيرة أي السرفيس. غير الحافلات التاكسي الكبيرة أو الميكرو الصغير) المترجم. والآخر Gecekondu أو البيت الشعبي. وكما أن الجميع يعرفون مخترعي كل من القطارات والطائرات والتلفونات وغيرها. فلا أحد يعرف اسم مخترع السرفيس... والبيت الشعبي.

أما النوع الثاني من العمارة التركية وهي البنايات الحديثة «Apartman» فالسلطان محمد الفاتح أحدث انقلاباً كبيراً في العالم بعد فتح مدينة استنبول. أما «علي تمل هاجان» فقد أحدث انقلاباً كبيراً وفتحاً جديداً في تاريخ فن العمارة العالمي: باختراع العمارة «Aportaman» وهكذا أثبت «علي تمل هاجان» أنه من أحفاد المعمار «سنان» والذي سبق جده بأشواط بعيدة في هذا المجال. وبالأساس لم يحصل على الشهرة ولم يتطور سوى معمارين في جميع أرجاء العالم في القرن العشرين وهما الفرنسي «جور بوسير» والتركي «علي تمل هاجان». ولكن الأخير سبق الفرنسي في هذا المجال. رغم أنه كان أمياً... فهو عصامي أنشأ نفسه بنفسه.

وبما أن علي تمل ولد في إحدى القرى القريبة من ساحل البحر الأسود.

وما يزال يتحدث اللهجة المحلية... فيمكن القول أن هذا الفن المعماري الذي أسميناه «Aportaman» هو عمارة أو فن «لاظي» (نسبة اللاظ كثيرة في تلك النواحي). وبالنسبة لها إذا قلنا أبورتومان ميرارسي (عمل المعماري بالميراري. لهجة اللاظ والقاطنين في جبال البحر الأسود). وذلك يكون علمياً أكثر.

وكما هو معروف إن كان فن العمارة المصري، اليوناني الروماني القديم وفي العصور الوسطى العمارة «الكوتيكية». قد تركت بصماتها عبر العصور على الفن المعماري بشكل عام. كذلك عندنا فالعمارة السلجوقية أظهرت نفسها بوضوح.

ساد الفن المعماري في أوائل القرن الثامن عشر الطراز الروكوكي والطراز «باركو»... في هذه الأثناء كان الأرمن يحاولون إزالة الأصالة عن فن العمارة العثماني. لكن علي تمل هاجان هو الذي أوجد العمارة «الأبورتومانية». لأنه عبَّر عن روح وأصالة الأمة في هذا الفن. ويعد هذا الفن حديثاً ليس من الناحية الجمالية فحسب بل من حيث التكتيك البنائي. وقبل أن نتطرق إلى الفروق بين هذه المدرسة التركية والمدارس الأخرى. لنلق نظرة على حياة باني هذه المدرسة...وقصة حياته.

علي تما هاجان أصغر أخ من أصل ستة عشر أخاً. وجميعهم من أم واحدة. مات لها ستة أطفال صغار وأجهضت بثمانية آخرين. كانت عائلة هاجان تسكن منطقة جبلية عالية تطل على البحر الأسود، وتملك قطعة صغيرة من الأرض يزرعونها بالذرة. وبما أن الأرض شديدة الانحدار. فالعمل الزراعي فيها شاق ومتعب، حيث لا يستطيع أحد حراثتها دون أن يربط نفسه بحبل. وكان والد علي تمل يربط نفسه بالحبل ويعطي الطرف الثاني لزوجته تشده إلى الأعلى. هكذا كان والد علي تمل يعمل في أرضه. وهناك حادثة طريفة قصها والد علي تمل... لا يزال الناس يتناقلونها:

عندما كان والد علي تمل في الجيش... كان يفكر كثيراً بمسقط رأسه ويتأوه بين وقت وآخر قائلاً: «آه يا وطني... آه يا وطني». ولاحظ أحد أصدقائه هذا الغم وهذه الحسرة الطاغية، فقال في نفسه: «ربما يملك صديقي بستاناً جميلاً وحقلاً خصباً وبيتاً رائعاً مما يسبب له هذا الهم والغم». وانتهت خدمتهما الإلزامية وذهب كل واحد منهما في حال سبيله... وبعد عدة سنين التقيا صدفة، عند مرور صديقه في تلك المنطقة... فسأل عن صاحبه هنا وهناك حتى وجده. وإذا به يرى صاحبه أي والد علي تمل. قد نزل إلى قطعة أرض منحدرة جداً... وثمة حبل مربوط على ظهره... وهو يحفر الأرض... أما الطرف الثاني للحبل فكان في يد زوجته من الأعلى. فناداه من الطريق:

ـ حسن... حسن! أهذا هو المكان الذي كنت تناديه يا وطني... يا وطني.

ـ نعم... هنا... هنا

فقال له صاحبه:

ـ ...!... في وطنك و...!... في ماسك الطرف الثاني من الحبل.

(هنا تأتي القافية واحدة وبشكل جميل) المترجم

ـ Vatan توتان «Tutan»

وطن الماسك

قال ذلك وتابع سيره.

كان والد علي تمل لا يستطيع أن يؤمن لعائلته الكبيرة المال والرزق اللازم مع أنه كان يعمل ليل نهار. وكانت امرأته تلد كل عام ولداً. وفي أعوام الخصب توأمين عسى ولعل أن يكونوا سنداً ودعماً له عندما يكبرون... لكن عندما وصل عددهم إلى ستة عشر ولداً... أدرك عندها أنه لو أطعمهم

حبات الذرة وفروعها وأغصانها كلها. فلن تكفيهم... ولكن السيل بلغ الزبى... لم يستطع المسكين أن يتحمل طويلاً هذا الثقل العائلي فارتحل عن الدنيا بشرف وكرامة. وكان ولده الأصغر آنذاك في الحادية عشرة من عمره. إخوته الكبار رحلوا إلى ديار الغربة بحثاً عن لقمة الخبز. أما هو أي علي تمل فعندما صار في الرابعة عشرة من عمره... وقع في مشكلة كبيرة... دامية مع الجيران من أجل تلك القطعة الصغيرة من الأرض.

كانت هناك حجرة بيضاء على التخم بينه وبين الجيران... وكان كل من يستيقظ باكراً... يذهب إلى الحقل ويحرك الحجرة لمصلحته ويضعها على بعد شبر واحد أي يوسع أرضه... ومن أجل هذه العداوة الحجرية التخمية... ترك وطنه ورحل إلى استنبول وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره... وعندما وصل استنبول فعل مثل طارق بن زياد عندما اجتاز المضيق إلى الأراضي الإسبانية... وأحرق السفن كلها... كي يقطع الأمل على جنوده بالعودة... فقد صمَّم أنه جاء إلى استنبول بمبدأ واحد. إما الموت وإما البقاء... هررو مررو.

بحث عن عمل مناسب... لكنه لم يجد... نفذ المال الذي كان معه. وبقي جائعاً أياماً كثيرة... ولا تزال ذكرى حادثة طريفة في حياة علي تمل هاجان منذ ذلك الوقت... تدور على الألسن هنا وهناك حتى الآن.

في تلك الأيام التي بقي فيها جائعاً لمدة طويلة... كانت قوته قد انهارت تماماً فارتمى تحت جدار أحد الجوامع. وكان بطنه يقرقر على الدوام... فضاق ذرعاً وغضب كثيراً من صوت القرقرة التي كانت تأتيه من أمعائه الخاوية... فأحنى رأسه نحو بطنه وصرخ بكل قوته:

ـ لماذا تظل تقرقر هكذا ولك «هاجان» (يبدو أن سكان البحر الأسود يبدؤون كل جملة بكلمة هاجان) المترجم. هناك الكثيرون ممن يأكلون البراز... ولكن لن أعطيه لك.

لم يكن علي تمل هاجان على علم بأنه أبدع أثراً ساخراً بكلامه هذا...

وكل فرد في تلك المناطق... يعرف جميع الأعمال والمهن. فعمل وعمل... لم يترك مجالاً إلا وعمل به... حتى أنه بدأ بجمع بعض الليرات حارماً نفسه الأكل والملبس. وبنى أولى بناياته كمتعهد للبناء تقريباً دون مقابل أي دون أجرة... ولكنهم وعدوه أن يعطوه عدة شقق... حيث فكر وفكر وصمم أن يأخذ العقار دون مقابل أيضاً... فعندما بدأوا بوضع أساساته... بدأ ببيع الشقق على الفور وبالتقسيط. وهو الذي أقنع المشترين بالتقسيط على شققهم برفع إصبع الإشارة عنده نحو الأعلى. بدأ ببناء أبورتومان جديد... قبل أن ينتهي من بيع الأول. وأوجد ذرائع كثيرة للتنصل من الضرائب وغيرها وتسبب بظهور نظام جديد في محاسبة الإنشاءات والأبنية... وبموجب نظام الضرائب لدى علي تما هاجان... الدافع ممنون... والشاري ممنون. وحتى العاملون في مكافحة تهريب الضرائب والذين اشتروا شققاً من علي تمل. عملوا بنظامه.

أما نظام التكنيك والتجديد في «الأبورتومانات» فكان غير نظام الإسمنت العادي الذي نعرفه... وكل كشف جديد لا يأتي سوى حسب الحاجة ليس إلا... وهكذا صار نظام علي تمل هوجان... عندما لا يكفيه المال لشراء الإسمنت عند بنائه أول «أبورتومان». فيضع بدلاً من مئة كيس من الإسمنت... عشرة أكياس. وبدل عشرة أطنان من الحديد طناً واحداً... ونجح في رفع أربعة طوابق حسب المخططات.

وعندما بنى بنايته الثانية والثالثة... استفاد من تجربته الماضية في البناية الأولى... فوضع بدلاً من الإسمنت رماداً وبدل من الرمل تراباً وبدلاً من الحديد... أسلاكاً وتنكاً. فأوجد تكتيكاً من هذا النوع في البناء. وفي النهاية... بدأ ببناء أبنية دون إسمنت ودون رمل أو حديد... ونجح في ذلك. ولم يستطع أحد أن يحقق المعجزة مثله: إلا موسى عليه السلام...

وتطور الفتح الجديد لدى علي تمل هوجان... إلى مدرسة في فن العمارة. وتوسعت بسرعة كانهيار الجبل الثلجي في كل المدن الكبيرة. ولفت الأبنية الجديدة المدن كما تلف الفطر وتخرج من الأرض.

وخصائص هذا الفن المعماري الأبورتوماني... لا تعد ولا تحصى...

شقق الأبورتومانات لها تهوية بحيث... إذا ما فتحت نافذة المرحاض بسبب ما وبقيت مقدار إصبعين... لرأيت تلاطم الأبواب والنوافذ والقناطر... وتكسر جميع الزجاج... أما جدران هذه البنايات فهي حساسة لنقل الصوت أكثر من أسلاك الهواتف... ويمكن لصوت هامس صادر عن الطابق الأول أن يسمعه الساكن في أعلى طابق «عفواً» إذا ما أصدر أحدهم كلاماً غير لائق. تسمع في أرجاء العمارة وكأن قنبلة قد انفجرت. لو دفعت الأبواب ببطء لا تغلق وكذلك لو سحبتها بقوة... يجب أن تكون على نعومة أكثر من اللزوم. مثلاً لو أسندت ظهرك إلى جدار ما... يظهر ظهرك في الطرف الثاني من الجدار. وعندما يعمل قازان المكيف... تهتز الأبواب والنوافذ مصدرة صوتاً عجيباً... تظن أن البناية تحولت إلى باخرة برية تمشي.

والآن فعلي تمل هوجان الذي أنشأ مدرسة الأبورتومان يبلغ الثامنة والثمانين من عمره... أما شغله فنقله إلى أولاده الثمانية وأصهاره الأربعة... وإذا شاء الله سيذهب هذا العام للمرة الثامنة إلى الحج.

٣٧

مصطفى أفندي الفقير والسيد مصطفى الغني

هناك عالمان كبيران في الحساب والرياضيات لم نستطع أن نسمع عنهما ولا استطعنا أن نُسمعهما للعالم أجمع. فهنا نريد أن نعطي لمحة موجزة عن حياة هذين العالمين الكبيرين، اللذين يجب أن يسطر اسمهما في التاريخ بأحرف من ذهب. لكن مع الأسف الشديد فقد انمحتا من ذاكرة الشباب.

هذا العالمان الكبيران اللذان دفنا في ذاكرة شعوب محيط وبيئة لا يعرفان القيمة والتقدير... واللذان اكتشفا الشيء الكثير في مجال الحساب. وهي كشوفات لا تعد ولا تحصى وقيّمة: لأنها هزت النظريات العلمية الكلاسيكية من أساسها. وباعترافات علماء الغرب أنفسهم. فإن نظرية أينشتاين ونظرية «جون أحمد» «الدفرادايم» بقيتا مثل لعب الأطفال أمام نظرياتهما.

هذان العالمان اللذان قدَّرهما بلدنا واللذان لا يعرف أحد عنهما شيئاً حتى العلماء الأجانب، ظلا مجهولين حتى جاءت بلدنا هيئة من العلماء الأمريكيين وجهوا الأنظار إلى هذين العالمين وإلى النظريات التي أبدعوها. وهما مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود (الفقير). والسيد مصطفى ذو الدخل الواسع (الغني).

أما مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود الذي أوقع كل علماء رياضيات العالم في حيرة ودهشة وحاز على تقديرهم واحترامهم وبسبب البديهية

المعروفة منذ القدم والتي تعد نظرية حقيقية لا جدال فيها وهي «اثنان + اثنان = أربعة» لكن مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود والذي أثبت أن اثنين + اثنين لا يساويان أربعة بل يساويان علة (أربعة = Dort دورت، العلة = Dert درت).

وقد وضعت هذه النظرية تحت «معادلة» ٢ + ٢ = درت = علة.

وهذه النظرية دحضت جميع النظريات التي سبقتها منذ الإغريق حتى اليوم. ونقضت النظريات العلمية من أساسها.

أما إذا جئنا إلى الاكتشاف الكبير الذي حققه السيد مصطفى ذو الدخل الكبير: فهو أهم من اكتشاف مصطفى أفندي ذي الدخل المحدود: فقد ألغى القاعدة المتبعة والمعروفة منذ الأزل وهي «صفر × صفر = صفر» أو صفر - صفر = صفر وأثبت ذلك من خلال حياته العملية وبهذا يكون قد جعل أساس العلم هباء منثوراً وأوقع الكثيرين في حيرة.

وهذان الاكتشافان الجديدان أظهرا وبشكل غير قابل للنقد أن ملايين الطلبة والذين كان يُظن أنهم كسالى ورسبوا في صفوفهم منذ مئات السنين ليس صحيحاً.

وليس التشابه والقرب بين مصطفى أفندي ذي الدخل المحدود والسيد مصطفى ذي الصرف الواسع... مبني على تشابه الاسمين أو لكونهما من علماء الحساب فقط. بل هناك تقارب وتشابه في مجالات عدة. فمثلاً ولد الاثنان في عام إعلان الجمهورية... فكلاهما يعدان من أولاد الجمهورية. لكن السيد مصطفى ذو الصرف الواسع ينزعج كثيراً عندما يقال له ابن الجمهورية لأن ذلك يذكره بشيء ما. أما مصطفى أفندي ذي الدخل المحدود فإنه عندما يسمع هذه الكلمة... يفتخر بنفسه كثيراً. فالمسكين لا يوجد عنده شيء يفتخر به. سوى أن يكون ابناً للجمهورية. ولهذا السبب فقط إذا ما تعرضت شخصيته للتحقيرِ أو لل ظلمِ أو عندما

يهضم أحدهم حقه... حتى وهو في الخمسين من عمره... كان يقول... وهو يضرب صدره بيديه مفتخراً.

ـ أنا ابن الجمهورية. فيضحك الجميع من تصرف هذا الولد أو ابن الخمسين من عمره.

والاثنان ولدا في استنبول أيضاً. ووالداهما من القرى البعيدة والمحرومة وكلاهما فقيران معدمان... جاءا إلى استنبول واستقرا فيها. وكان الاثنان يفكران بأن يدرِّسان أولادهما... كي لا يظلوا مثلهما جاهلين ومتعَبين في حياتهما.

والمصطفيان... كانا ناجحين جداً في حياتهما الدراسية. كان مصطفى أفندي الذي سينال لقب مصطفى ذي الدخل المحدود فيما بعد... يكد ويتعب في الدراسة ليلاً نهاراً. أما مصطفى الذي سيلقب فيما بعد السيد مصطفى ذي الصرف الواسع... كان ينجح في صفوفه بانتظام بدعم من الوصفات التي كان يحملها عند دخوله كل امتحان ويحالفه الحظ دائماً.

كان مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود متفوقاً في الحساب. لكنه في الوقت نفسه لا يعرف حسابه الشخصي. أما مصطفى ذو الصرف الواسع لا يفقه من الحساب شيئاً ولكنه كان يعرف حسابه الشخصي بشكل كامل. ولهذا السبب فقط كان زملاؤه في الصف يقولون عنه «بلا حساب ولا كتاب». أما بعد انخراطه في الحياة العملية وعندما لمسوا النجاح الذي حقَّقه في كل عمل يقوم به، قالوا عنه «الرجل الذي لا يجمعه حساب». أما مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود فكانوا يقولون عنه «الإنسان الذي لا يَسعه كتاب ولا حساب».

وكان الاثنان قد أرغما على ترك المدرسة بسبب الفقر والحاجة والحرمان. فعملا مدة هنا وهناك... في أي عمل وجداه. وعندما حان

وقت تأديتهما الخدمة العسكرية. جاء الاثنان في قطعة واحدة. وهناك نجح مصطفى الذي سيلقب فيما بعد السيد مصطفى ذو الصرف الواسع بالبلوغ إلى المراكز الراقية في القطعة: في البداية صار حاجباً لقائد الوحدة ثم نادلاً في مطعم الوحدة ومن ثم استلم البوفيه التابعة للشرطة العسكرية. أما مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود فقد مارس العمل العسكري والتدريب. وكانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب آنذاك... أما مصطفى أفندي وكما قلنا الذي انصرف للخدمة العسكرية... كان الأول في الرمي. والأول في فك وتركيب الرشاش طراز «هوتشكيس» وهو مغمض العينين. كسب رتبة عن جدارة. ساهم في عمليات الحفر والتحكيمات على طول حدود الوطن. وهو أول عسكري سُرِّح من الخدمة دون أن يتعرض للقتل والضرب والإهانة من قادة وحداته. وعاد إلى منزله خاوي الوفاض، لا يملك مجيدياً واحداً.أما مصطفى الغني الذي لا يعرف الحساب ويعرف جيداً حسابه الخاص. فقد عاد إلى منزله ممتلئ الجيوب.

توظف الاثنان في الدولة... بأدنى المراتب... وفي تلك الأثناء... كان زملاؤهما في الدائرة قد لقبوهما... الأول مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود والآخر السيد مصطفى ذو الصرف الواسع... وكان سبب تسمية هذا اللقب لهما كمايلي: فمصطفى الذي يعرف الحساب... كان يعيش في ضنك شديد. أما مصطفى الذي لا يعرف الحساب جيداً... والذي كان يقبض نفس الراتب الذي كان يقبضه مصطفى الأول... لم يعط أهمية للمادة ويعيش في بحبوحة... أي أنه كان يبذر المال تبذيراً. وفي الوقت الذي كان فيه مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود يشتري كل عامين أو ثلاثة طقماً من الألبسة. كان السيد مصطفى ذي الصرف الواسع يشتري كل شهر طقماً من الألبسة. وفيما كان مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود... يدخن أرخص أنواع الدخان... ولا يستطيع أن يوصي أو يطلب شيئاً من

أحد... والذي كان يتمنى أن يأتيه المزيد من الضيوف لكنه لا يستطيع أن يستقبلهم أبداً. ولهذا السبب كان شخصاً غير محبوب في محيطه. أما السيد مصطفى ذو الصرف الواسع... فقد كان كريماً. مكرماً فوق العادة... منزله يعج دوماً بالضيوف. يأكلون ويشربون. ويقدم لأصدقائه الهدايا القيمة. ولهذا السبب كان محبوباً في محيطه لأعلى الدرجات.

تزوج الاثنان... بعد الزواج تضاعف ضيق مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود. بينما كان السيد مصطفى ذو الصرف الواسع يبذر المال أكثر من أيام عزوبيته.

وفي الوقت الذي كان فيه مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود يسكن بعيداً عن مركز المدينة في حي شعبي وبيت شعبي وبأجر رخيص. كان السيد مصطفى ذو الصرف الواسع يسكن بناية كبيرة وشقة كبيرة منها في أجمل حي من أحياء المدينة وفي مركزها. وأثناء الصيف كان يتوجه إلى المصايف. وفي الوقت الذي كان فيه مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود... يمسك الذهب فيتحول إلى تراب... كان الآخر إذا مسك تراباً تحول إلى ذهب... البركة مفقودة من يد أحدهما... أما في يد الآخر فكانت البركة تفيض.

كان كل منهما قد خلَّف ولدين. أما مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود قد كشف نظريته الرائعة «اثنان + اثنان لا تساويان أربعة بل تساويان علة». في الوقت الذي كان فيه الزوج والزوجة اثنان. وبعد مجيء ولديهما لم يصيروا أربعة. بل حول كل شيء إلى علة.أما السيد مصطفى ذو الصرف الواسع والذي عنده ولدان مثل الآخر... ويقبض نفس الراتب أيضاً. فقد توصل إلى حقيقة «صفر ـ صفر لا يساويان صفراً بل يساويان مائة».

أما المواطنون الذين وقعوا تحت قبضة السيد مصطفى ذي الصرف

الواسع. فكانوا لا يستطيعون الوقوف في وجهه وهو يجمع أرقام «صفر - صفر لا يساويان صفراً بل يساويان مائة» وليست عندهم الشجاعة الكافية على كشفه.

أما الذين كان يعتريهم الشك في حال هذين الرجلين وهما يقبضان نفس الراتب. الأول في ضيق شديد والآخر في بحبوحة جيدة. فكان السيد مصطفى ذو الصرف الواسع يجيب على تساؤلات هؤلاء:

«إذا كانت ساقاي طويلتين واللحاف قصير... فما ذنبي؟ عندها أمد ساقيّ بطول اللحاف. والإله يمنح الثلج على حجم الجبل. أنا عندي ضيوف كثرون... لذلك يعطيني الله».

أما مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود لم يشأ التحدث في هذا الموضوع ولم يقل سوى هذه الكلمات «لقد عانيت الكثير في هذه الدنيا. ولكن عندي إيمان قاطع بأنني سأكون مرتاحاً في دار البقاء لأنني عشت بشرفي وناموسي».

كان السيد مصطفى ذو الصرف الواسع يحاول جاهداً كوالده أن يعتني بتعليم أولاده... كان يدرِّسهم في المدارس الأجنبية ويرسلهم إلى أوروبا لتحصيل العلم. أما مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود... فكان يقدم لأولاده ما يستطيعه. فمثلاً... كان يأخذ زوجته وأولاده أيام العطل إلى السوق ليتفرجوا على المحلات والمخازن الكبيرة. ويدلُّهم على الأشياء الجميلة المعروضة في واجهات المحلات الكبيرة من الدرجة الأولى. عندما سألته زوجته أكثر من مرة عن شيء شاهدته في واجهة أحد المحلات. كان جوابه لها... مرة إنه حذاء نسائي أو سروال نسائي... أوملابس داخلية نسائية. وكانت زوجته تقول:

- آآ أهذا سروال نسائي!. ما شكل هذا السروال؟ كيف تدخل رجل الإنسان فيه؟

وقالت مرة وهي تنظر إلى حذاء نسائي باستغراب:

ـ آمان... إن هذا حذاء نسائي..

تقول ذلك ضاحكة مسرورة.

وهكذا كان مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود... يأخذ عائلته إلى البازار أيام العطل فيروح عنهم ويزيد من ثقافتهم. ويأخذهم إلى باعة الفاكهة أو إلى المطاعم الفاخرة الكبيرة... ويجول بهم على المتاحف. هذه النزهات ضرورية لهم حتى لا يبقوا جهلاء.

ـ انظروا يا أولاد... يقولون عن هذا موز... وهذا تمر... وتلك برتقالة...

وهكذا كان يعلمهم أسماء الفواكه والخضراوات... وأسماء الحلويات والأطعمة. ويعطيهم دروساً في الحياة والطبيعة.

في تلك الأيام... جاءت هيئة علمية أمريكية إلى تركيا. لإلقاء نظرة فاحصة على الاقتصاد التركي. وأرادت الهيئة مقابلة مختلف الناس وحتى الموظفين... ليأخذوا فكرة عن مستوى الحياة العلمية والاقتصادية والاجتماعية. وكانت الهيئة مجهزة بأحدث الأجهزة الإلكترونية والأتوماتيكية لتسجيل الأسئلة والأجوبة. ثم تجري حساباتها بواسطة أجهزة الحواسيب.

وكان الاثنان مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود والسيد مصطفى ذو الصرف الواسع قد اختيرا من قبل الإدارة ليكون التدقيق والتكتيك معهما.

بدأت الهيئة العلمية الأمريكية المتخصصة في البحث والتدقيق لقاءها مع مصطفى أفندي ذي الدخل المحدود. صاروا يسألونه مجموعة من الأسئلة. وكان جهاز الحاسوب يسجل الأسئلة والأجوبة.

ـ كم هو راتبك الصافي؟

- الذي أقبضه ألف وأربعمائة ليرة.
- من كم شخص تتكون عائلتك؟
- أربعة.
- هل هناك من أحد غيرك يعمل في عائلتك؟
- لا.
- كم غرفة بيتك؟
- غرفة ونصف.
- الخبز بكم؟
- بليرتين ونصف.

وهناك أسئلة مشابهة كثيرة... وكان جهاز الحاسوب يسجل كل ذلك... وبعد كل سؤال وجواب... كان الحاسوب يعطي وضع مصطفى أفندي ذي الدخل المحدود بشكل صحيح. ضُغط على زر... فظهرت بطاقة من الجهاز فيها كلمة واحدة... «إنه لا يعيش». لم تستطع الهيئة المختصة أن تعطي معناً لهذه الواقعة... والحاسوب لا يخطئ أبداً. فسألوه ثانية. وأخذوا أجوبة... أعطيت للحاسوب فجاءت النتيجة على بطاقة: «ألم أقل لكم إنه ميت»... في التجربة الثالثة. كان جواب الحاسوب طويلاً إلى حد ما: «ألا تفهمون الكلام؟ أقول لكم إنه ميت. حسب المعلومات التي أعطيت لي على أساس علمي... يجب أن يكون هذا الرجل قد مات منذ عشرين عاماً. ولكنه لا يزال على قيد الحياة».

بدأت الهيئة المختصة بتدقيق حالة السيد مصطفى ذي الصرف الواسع وسألوه:

- كم هو راتبك الصافي؟
- الذي أقبضه ألف وأربعمائة ليرة.

ـ هل منزلك إيجار؟

ـ نعم.

ـ كم ليرة تدفع للإيجار؟

ـ ألفين...

كانت الكلمة الأخيرة قد خرجت لتوها من فم السيد مصطفى ذي الصرف الواسع وإذا بالجهاز يصدر أصواتاً غريبة من داخله مثل أصوات الكسور والخلوع «جاتير ـ جوتور»... وثمة شرارات كانت تصدر منه... وبعد قليل وقف الجهاز كلياً... لقد تعطل... قاموا بإصلاحه... وبدؤوا بتوجيه الأسئلة للسيد مصطفى ذي الصرف الواسع ثانية.

ـ كم ليرة مصاريف المطبخ عندك؟

ـ أربعة آلاف ليرة في كل شهر.

توقف الجهاز ثانية مصدراً أصواتاً أكثر شدة وقوة وشرارات كبيرة وتعطل ثانية. جربوا ذلك عدة مرات. ولكن الجهاز كان يتوقف عند كل جواب يأتيه من السيد مصطفى ذي الصرف الواسع. ولم يكن الجهاز يتحمل أجوبته.

ومات الاثنان في يوم واحد كما ولدا في يوم واحد. كانت الجرائد قد نشرت خبر وفاة السيد مصطفى ذي الصرف الواسع... فجاء إلى تشييعه أناس كثيرون... أما الآخر فلم يُعلن خبر وفاته في الجرائد ولم يسمع بموته أحد... ولم يشيعه إلا القليل.

فالتقى الاثنان في الحياة الآخرة. كان مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود مسروراًجداً لموته. لأنه عانى الكثير في هذه الدنيا. وبما أنه لم يعمل شيئاً يسيء إلى نفسه أو إلى ربه، ولم يأخذ رشوة من أحد. ولم يخن الأمانة. ولم يكذب. ولم يأكل حق أحد. خدم وظيفته بصدق

و أمانة ولم يتواجد في مكان غير أخلاقي ولم يقم بأي عمل لا أخلاقي. بطبيعة الحال يجب أن يدخل الجنة. وبهذا الأمل الذي كان يملأ صدره... سار في طريقه مراقباً السهم الذي كان يشير إلى مكان الجنة... حتى وصل إلى بابها... وإذا بالسيد مصطفى ذو الصرف الواسع يدفعه من الخلف بقوة ويأخذ مكانه وكأن رائحة نتنة منفرة قد صدرت من يديه الحقيرتين. عندها لم يستطع مصطفى أفندي ذو الدخل المحدود أن يتحمل هذه الإساءة فبدأ بإلقاء الشتائم والسباب إليه وهو الذي لم تخرج من فمه كلمة واحدة غير لائقة في حياة الدنيا.

ـ ولك يهودي (جاء بالحرف)... ولك بزونك... ولك واطي... ولك قليل الناموس... ولك رذيل... ولك حرامي... لقد عشتَ بخير في الحياة التي جئنا منها. أخذت كل شيء على كيفك. أما أنا تحملت كل أذية... وتحملت الألم. لأدخل الجنة وأرتاح في هذه الدنيا. ألا يكفيك ما أخذته من الخير والكيف في حياة الدنيا. وتأتي الآن تريد الدخول إلى الجنة؟

فسأله السيد مصطفى ذو الصرف الواسع بغرور وهو ينظر إليه من أعلى كتفه:

ـ هل ساعدت الفقراء... وأعطيتهم أموالاً؟

ـ ما كنت أملك مالاً... ولم أستطع أن أساعد أحد.

ـ طيب. هل فعلت الخيرات والحسنات؟

ـ وأين ذلك؟ وأنا الذي ما كنت أستطيع أن أفعل الخير مع أولادي.

ـ هل ذهبت إلى الحج؟

ـ لم أستطع.

ـ هل ساعدت الجمعيات الخيرية؟

ـ لا...

ـ هل ساعدت الأيتام والمرضى؟

ـ وأين ذلك؟

كان السيد مصطفى ذو الصرف الواسع يسأل ومصطفى أفندي ذو الدخل المحدود يجيبه بـ «لا.. أبداً... ومن أين» وهو مخجول من نفسه.

في النهاية قال السيد مصطفى ذو الصرف الواسع:

ـ انظروا إلى هذا... يقول أنه سيدخل الجنة وهو غير خجل من نفسه. بأي وجه وبأي صورة ستدخلها. ارجع... وقف خلفي.

قال ذلك صارخاً في وجهه ومشى. وعندما أخرج البطاقة التي في جيبه وأبرزها لحارسة باب الجنة الملاك... أحنت رأسها وفتحت الباب حتى آخره.

ولم يأخذوا مصطفى أفندي ذا الدخل المحدود إلى الجنة لأنه لم يفعل أية حسنة... ولم يدخلوه النار (جهنم) لأنه لم يفعل أية سيئة.

ملاحظة:

يجب أن لا يقرأ هذه الكتابة من هم دون الثامنة عشرة والذين لم نستطع أن نخرب أخلاقهم بعد.

الفهرس



شهادة ميدالية التمساح
للقصة القصيرة الساخرة

حصل الكاتب الكبير عزيز نسين على ميدالية التمساح عام ١٩٦٩، تقديراً لفنه القصصي، وتألقه في المزاح والمزاح المر، بالضحك والضحك المر، بالمسخرة والسخرية، الظاهر منها والباطن، وجميع أشكال السخرية والمزاح.

موسكو ١٩٦٩

مجلة التمساح

ميدالية التمساح

في عام ١٩٦٩، أعلنت مجلة التمساح الروسية الواسعة الانتشار عن مسابقة للقصة القصيرة الساخرة. فجاءت مجموعة عزيز نسين القصصية «صحوة الناس» في الترتيب الأول بين آلاف القصص المشاركة من جميع أنحاء العالم، وعليها نال «ميدالية التمساح» التي لاتقدم إلا لمن يملك الموهبة والقدرة في فن صياغة النكتة، ويتمتع بروح مرحة ومزاج زاخر بألوان السخرية والضحك.

الناشر

السعر 200 ل.س